رواد الفن القصصي

إبراهيم المويلحي

تقديم وتحرير : روجر آلن

المجلس الأعلى للثقافة



المجلس الأعلى للثقافة

إبراهيم المويلحى

الأعمال الكاملة

حررها

روجر آلن



٢٠٠٧

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

المويلحى ، إبراهيم

الأعمال الكاملة ، تأليف : إبراهيم المويلحى ، المحرر : روجر آلن

- ط١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧

٢٤٠ ص ، ٢٤ سم .

١ - إبراهيم ، المويلحى (المؤلفات الكاملة)

(أ) العنـوان

رقم الإيداع ٢٠٠٤/٨٦٣٩

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 Fax : 7358084

رواد الفن القصصى

الطبعة الأولى

المجلس الأعلى للثقافة

القاهرة ٢٠٠٧

إبراهيم المويلحى

المؤلفات الكاملة

مقدمـــة

١ – حياة المؤلف(*)

ولد الصحفي والكاتب السياسي المصرى إبراهيم المويلحى (١٨٤٤–١٩٠٦) فى أسرة مصرية ثرية من تجار الحرير، تعود أصلها إلى بلدة مويلح على ساحل البحر الأحمر بشبه الجزيرة العربية ، وحين توفى والد إبراهيم فى عام ١٨٦٥ ، تولى هو وشقيقه الأصغر عبد السلام إدارة أعمال الأسرة . وشهد العام نفسه بداية تعاون دام طويلاً بين إبراهيم المويلحى والخديوي إسماعيل الذى عيّنه فى مجلس التجار والمحكمة الابتدائية . وفى عام ١٨٦٨ شارك إبراهيم فى إنشاء دار للنشر كانت الأولى ضمن سلسلة من هذه المبادرات خلال حياته ، إلا أنه حلت به نكسة مالية فى عام ١٨٧٢ حين فقد كل ثروة الأسرة فى المضاربة فى البورصة التى أنشئت حديثًا . ومرة أخرى يظهر الخديوى كى يتدخل لإنقاذه من الدمار المالى .

فى عام ١٨٧٩ أُجبر الخديوى إسماعيل على التنازل عن العرش والذهاب إلى المنفى . وتبعه إبراهيم المويلحى إلى إيطاليا كى يعمل معلمًا لأبنائه ويواصل نشر الصحف التى كانت أبرزها « الاتحاد » التى أثارت تعليقاتها النقدية غضب السلطان العثمانى عبد الحميد . لحق محمد المويلحى بأبيه فى المنفى ، وسافر الاثنان إلى باريس فى عام ١٨٨٤ حيث يُقال إنهما ساعدا جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى إصدار جريدتهما « العروة الوثقى » . وبينما كان إبراهيم المويلحى فى فرنسا أصدر

(*) ترجم المقدمة عن الإنجليزية أحمد محمود .

عدداً آخر من « الاتحاد » انتقد فيه السياسة الخارجية العثمانية ، مما أدى إلى ترتيب السلطات العثمانية طرده من فرنسا (هناك وصف مفصل لحقيقة هذا النفوذ وتدبيره للمكائد فى كتابه الشهير « ما هنالك » الذى سنناقشه فيما بعد) . سافر المويلحى وولده عبر بروكسل إلى لندن . وهناك غيَّر إبراهيم موضوعه ومقاربته إلى حد ما ، حيث اختار كتابة المقالات التى تهاجم سياسة الحكومة البريطانية وتؤيد السلطان العثمانى . وكانت نتيجة ذلك أن وجد إبراهيم نفسه مدعواً إلى اسطنبول ، حيث قبل العرض بعد شىء من التمنع فى البداية .

فى اسطنبول ، عُيِّنَ إبراهيم رسميًا فى مجلس التعليم ، حيث تعرف على مُنيف باشا وزير التعليم ، وهى المعرفة التى فتحت أمام إبراهيم وولده أبواب مكتبة الفاتح الشهيرة ومجموعتها من المخطوطات . ألا أن جزءاً كبيراً من وقت إبراهيم فى اسطنبول كان مشغولاً بالمشاركة المستمرة فى المؤامرات السياسية ، المحلية والدولية ، التى نجح فى أن يودع جزءاً كبيراً من نكهتها فى عمله الشهير « ما هنالك » الذى نشره على هيئة كتاب فى عام ١٨٩٦ بعد أن نشره كسلسلة مقالات فى الصحيفة المصرية « المقطم » . وعاد محمد المويلحى إلى مصر فى عام ١٨٨٧ ، إلا أن والده بقى فى العاصمة العثمانية عدة سنوات أخرى . ولم يفت قرار إبراهيم المويلحى العودة إلى مصر فى عام ١٨٩٥ على السلطان ، إلا أنه من الواضح أن تعبيره عن الحنين إلى أرض وطنه كان مقنعًا .

فى الرابع عشر من أبريل عام ١٨٩٨ بدأ إبراهيم المويلحى نشر أشهر صحفه « مصباح الشرق » التى وصفها محمد كُرد على فى « المذكرات (١٩٤٨ - ١٩٥١) بأنها « أفضل جريدة أسبوعية » . وساهم إبراهيم المويلحى وولده محمد بالمقالات ، بما فى ذلك التعليق على الأحداث الجارية ، والقضايا السياسية والاجتماعية ، ومقتطفات من الأعمال الأدبية المنقولة من مخطوطات فى مكتبة الفاتح باسطنبول . وبلغت شهرة الجريدة ذروتها أثناء نشر سلسلة المقامات الخاصة بمحمد « فترة من الزمان « (نوفمبر ١٨٩٨ - ديسمبر ١٩٠٠) التى نُشرت عام ١٩٠٧ على هيئة الكتاب الشهير « حديث عيسى بن هشام » ، وفى الفترات التى تخللت مقامات محمد ،

ساهم إبراهيم كذلك بنفس النوع الأدبى ، حيث كتب مجموعة من تسع مقامات بعنوان « مرآة العالم أو حديث موسى بن عصام » (سنناقشها فيما بعد) .

استأنف إبراهيم حياته العملية كمستشار للخديوى ، وتولى محمد شيئًا فشيئًا الوظائف التحريرية فى الصحيفة . وقلت فى ظل رئاسته للتحرير مقالات الصحيفة النقدية اللاذعة – وهو الملمح الذى ساهم من قبل فى شهرة الصحيفة – من حيث النوع والكم . وبدلاً من المقالات الأصلية . كانت هناك مقتطفات مطولة من مصادر غربية وإعلانات . وأخذت الصحيفة تنهار انهيارًا سريعًا تم توقفت عن الصدور فى الخامس عشر من أغسطس عام ١٩٠٢ . واستمر إبراهيم فى نشر مقالات فى صحف أخرى ، بل وأسس صحيفة أخرى اسمها « المشكاة » فى عام ١٩٠٥ . إلا أنه مرض مرضًا عضالاً فى ديسمبر من ذلك العام وتوفى فى التاسع والعشرين من يناير ١٩٠٦ .

يصف محمد كُرد على إبراهيم المويلحى بأنه « أعظم كاتب فى عصره ، حيث يمكنه أن يكتب كتابة ممتعة عن أكثر الموضوعات مللاً » . إلا أن محمد كُرد على يمضى فيختلف مع الطريقة التى أساء بها إبراهيم المويلحى النقل عن معلمهما محمد عبده ، ولكنه أشار إلى أن « سلطة عليا ما كانت وراء إبراهيم بك » . وإبراهيم المويلحى هو الناقد الحاسم ، والكاتب اللامع بالطريقة التقليدية ، والمخطط السياسى المتمكن ؛ فتلك هى صورته التى تظهر من قراءة الروايات المعاصرة ، وهى قصة الحياة التى كثيرًا ما تزين بالعديد من الحكايات المشكوك فى صحتها التى شجع هو نفسه نشرها وأوعز بها فى كثير من الأحيان .

٢ – أعمال إبراهيم المويلحى

(أ) تمهيد

يأتى تجميع الأعمال الكاملة لإبراهيم المويلحى معه ببعض المشاكل . فقد كان إبراهيم وولده المشهور ، محمد إبراهيم (١٨٥٨ – ١٩٣٠) كاتبين وصحفيين . بل إن تاريخى ميلادهما يشيران إلى أن أربعة عشر عامًا فقط تفصل بين الأب والابن ،

ويشير قدر كبير من الأدلة المستقاة من معاصريهما إلى أن علاقتهما كانت أقرب إلى علاقة أخ أكبر بأخيه الأصغر أكثر منها علاقة والد بولده . وخلاف ذلك ، كانت الظروف السياسية لعصريهما تعنى أن المويلحيين كان مقدراً لهما أن يمضيا سنوات طويلة معًا فى المنفى بعيداً عن وطنهما يتنقلان بين إيطاليا وفرنسا وإنجلترا واسطنبول العثمانية ، قبل أن يعودا فى نهاية الأمر إلى مصر . والواقع أن إبراهيم استخدم ولده كمبعوث ، حيث أرسله قبله من إنجلترا إلى اسطنبول للتأكد من أن الدعوة الموجهة من السلطان العثماني عبد الحميد دعوة حقيقية ، ثم أرسل فيما بعد محمداً قبله إلى مصر فى عام ١٨٨٧ . وفى عام ١٨٩٩ سافر محمد إلى باريس باسم الصحيفة العائلية « مصباح الشرق » لحضور معرض باريس ؛ حيث انعكست هذه الزيارة فى « الرحلة الثانية » ، وهى الجزء الثانى من عمل محمد المويلحى الشهير « حديث عيسى بن هشام » الذى أضافه إلى الطبعة الرابعة (١٩٢٧).

يتكون كتاب إبراهيم المويلحى الأشهر ، وهو« ما هنالك » (١٨٩٦) ، وكتاب محمد « حديث عيسى بن هشام » (١٩٠٧) ، من تجميع لمقالات صحفية ، فقد نُشر الأول على هيئة مقالات فى « المقطم » اعتباراً من ١٨٩٥ ، والثانى فى « مصباح الشرق » اعتباراً من ١٨٩٨ . وينطبق الشىء نفسه على كتاب محمد اللاحق ، وهو مجموعة من المقالات نُشرت بعد وفاته باسم « علاج النفس » (١٩٣٢) . والمؤلف فى حالة « ما هنالك » و « حديث عيسى بن هشام » مؤكد من هو (حتى وإن ظهرت « ما هنالك » تحت اسم مستعار »). وهناك قدر وافر من الأدلة المستقاة من المعاصرين القادرة على تأكيد من هما مؤلفا الكتابين . والواقع أنه بينما كان محمد المويلحى ينشر مقاماته « فترة من الزمان » ، وهو العنوان الأصلى لـ « حديث عيسى بن هشام » فى مصباح الشرق ، كان والده ينشر سلسلة مشابهة من المقامات تحت عنوان « مرآة العالم » ومنعًا للخلط بين المجموعتين من الحكايات على وجه التحديد ، بدأ كل من إبراهيم ومحمد المويلحى توقيع المقامات التى تخصه ؛ فكان توقيع إبراهيم « ألف » وتوقيع محمد « ميم ». ومن هنا نجد إشارات شديدة التحديد إلى أى من المويلحيين هو مؤلف أية مساهمة فى صحيفة « مصباح الشرق » .

وسياق « الأعمال الكاملة » الخاصة بإبراهيم المويلحى هو الذى يجب علينا فيه على وجه التحديد الاعتراف بأن هناك شكًا كبيرًا بشأن من هو مؤلف كل ما ظهر تقريبًا على صفحات « مصباح الشرق » فى البداية ، حيث لم تكن المقالات موقعة . وأدى هذا إلى ظهور قدر كبير من الخلط بين من حاولوا إعداد مجموعات من كتابات هذين الكاتبين المصريين البارزين فى السنوات الأولى من القرن العشرين . وبذلك نسب مصطفى لطفى المنفلوطى (المتوفى عام ١٩٢٤) ، على سبيل المثال ، إلى إبراهيم مقالاً عنوانه « جواهر الشعر » فى حين نسبه نقاد آخرون (وهم الأصح) إلى محمد (مختارات المنفلوطى ، القاهرة : المكتبة الأنجلو مصرية ، بلا تاريخ ، ص ١٨٦ – ٢٠٠) . وكان أحد الباحثين الذى حاولوا توضيح الموقف هو إبراهيم عبده . فالمجلد الثالث من سلسلة كتبه المنشورة تحت عنوان « أدب المقالة الصحفية » (القاهرة : دار الفكر العربى ، بلا تاريخ) مخصص لإبراهيم المويلحى (وحتمًا لولده محمد كذلك) . ويُضمِّن إبراهيم عبده نماذج من المقالات الرئيسية من مصباح الشرق ، بما فى ذلك المقال الافتتاحى فى العدد الأول ، الصادر فى الرابع عشر من أبريل ١٨٩٨(ص ٧٤ – ٧٦) ، ومقتطفات من مقالات أخرى ، بما فى ذلك « أيها العلماء » (ص ٨٢ – ٨٩) و « غضب » (ص ٩٤ – ٩٧) المعروف أنها بقلم محمد المويلحى (انظر « علاج النفس » [١٩٣٢] ص ١٤ – ٥١) ، و« الترك والعرب » (ص ١٧١ – ١٧٢) ، و « مصر » (١٧٣ – ١٧٩) . وتقدم هذه المقتطفات صورة جيدة للأوضاع السياسية والاجتماعية المنعكسة فى السياسات التحريرية الخاصة بـ « مصباح الشرق » ، وهو ما يجعلها واحدة من أكثر الصحف شعبية فى وقتها .

مع أخذ هذه الحقائق فى الاعتبار ، قد يكون من الممكن الإشارة إلى أن أية طبعة من أعمال إبراهيم المويلحى الكاملة يجب أن تضم شريحة كبيرة من المقالات الافتتاحية فى « مصباح الشرق » ، على الأقل فى الفترة التى كان يتولى فيها إبراهيم المويلحى رئاسة تحريرها . إلا أن هذا القرار يجعل من يقوم بالجمع يواجه مشكلتين . أما الأولى فقد أشرنا إليها بالفعل ، وهى أنه لا توجد طريقة لتحديد أى الافتتاحيات كانت بقلم إبراهيم المويلحى ، وأيها بقلم محمد ، أو بالأحرى أى المقالات قد تتضمن

مساهمات من الوالد والولد . أما الحقيقة الثانية التى يجب أن نعيها جيداً فهى أن الروايات المعاصرة تشير إلى أن إبراهيم المويلحى تخلى تدرجيًا عن مهام رئيس التحرير فى « مصباح الشرق » لولده ، مفضلاً أن يواصل هو مشاركته فى المؤامرات السياسية فى ذلك العصر . وكلا الأمرين يعقد الموقف فحسب .

تشمل هذه المجموعة من أعمال إبراهيم المويلحى التى واجهت هذه المعضلة عمليه الرئيسين ؛ وقد نُشر أحدهما فى هيئة كتاب ، وهو « ما هنالك » ثم حُظر نشره بناء على أوامر من السلطان العثمانى ، أما الآخر فلم يُنشر قط على هيئة كتاب وإنما كان متاحًا على صفحات أعداد من « مصباح الشرق » كما نُشر فى ترجمة ألمانية فى عام ١٩٥٤ (عمل جوتفريد فيدمر ، فى Die Welts des Islams ، السلسلة الجديدة رقم ٣ [١٩٥٤] ص ٥٧ وما بعدها) ، وقد أضفنا إلى هذين العملين الكاملين عينات من المقالات الصحفية التى ضمَّنها إبراهيم عبده فى دراسته لصحيفة إبراهيم المويلحى ومحرريها الأساسيين . وفى حين أن مؤلفها غير مؤكد ، فإن من الواضح أنها انعكاس دقيق لكل من مضمون وأسلوب الصحيفة التى نشر فيها المويلحيان ، الوالد والولد ، الأغلبية العظمى من كتاباتهما .

(ب) ما هنالك

كما أشير من قبل ، كتب إبراهيم المويلحى العديد من المقالات عن السلطان العثمانى والسياسية العثمانية أثناء رحلاته . ولم يتلق دعوة للحضور إلى العاصمة العثمانية إلا حين كتب تأييداً للحكومة العثمانية من لندن . وإذا ما قارنا هذا بالطبع مع طرده من فرنسا قبل ذلك ، فسوف يشير إلى مدى مراقبة السلطات العثمانية الدقيقة لما كان يُكتب عنها فى أنحاء الشرق الأوسط وأوروبا . وإذا ما أخذنا هذا كله فى اعتبارنا ، لابد أن نفترض أنه بينما ذهب إبراهيم المويلحى إلى اسطنبول (بناء على نصيحة ولده محمد الذى سبقه إلى هناك للتأكد من الوضع) ، فقد كان على علم تام بحقيقة أن دعوته كانت تستهدف إلى حد ما مراقبة أنشطته عن كثب . فسوف يجعل كونه مقيماً فى اسطنبول تلك العملية أيسر بكثير .

بينما استفاد المويلحيان من الوقت الذى أمضياه فى اسطنبول لإجراء الأبحاث فى مكتبة الفاتح ، فمن الواضح أن إبراهيم كان يتبع كذلك موهبته الطبيعية ، وهى المشاركة فى المناقشات السياسية ومعرفة أكبر قدر ممكن من المعلومات عن العلاقات المصرية العثمانية . وأوضح مضمون « ما هنالك » بشكل كبير جداً أنه نجح فى معرفة قدر وافر من تلك المعلومات . ومن المعقول افتراض أنه بعد فترة دامت سنوات عديدة فى اسطنبول كانت أنشطة إبراهيم المويلحى تثير فى أذهان أجهزة الأمن العثمانية من الشك ما يكفى لأن يصبح من الأفضل له ، إن لم يكن من الضرورى ، مغادرة البلاد والعودة إلى مصر . ومن الممكن إلى حد كبير فى الواقع أن إبراهيم المويلحى كانت لديه مخطوطة ، أو على الأقل ملاحظات منسوخة ، جاهزة قبل مغادرته اسطنبول ، حيث إنه بدأ نشر مقالات « ما هنالك » فور عودته إلى مصر . والواقع أنها كانت تُنشر أسبوعيًا وبلا انقطاع من يوليو ١٨٩٥ إلى فبراير ١٨٩٦ . وظهرت النسخة التى على هيئة كتاب من « ما هنالك » بعد شهور من انتهاء سلسلة المقالات الصحفية .

كانت الصحيفة التى اختارها إبراهيم المويلحى للنشر هى « المقطم » . وكان الغرض من هذه الصحيفة التى أسسها فى عام ١٨٨٩ الصحفيون السوريون يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس هو تأييد سياسة المحتلين البريطانيين لمصر (وبهذا كانت تتعارض مع المصلحة الوطنية لـ « الأهرام » التى تأسست قبل ذلك) . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الاهتمام السياسى أن كانت الصحيفة كذلك معادية بشدة للعثمانيين (وبذلك قد يتضح أنه بينما كان إبراهيم يكتب أثناء إقامته فى لندن مقالات تأييداً للعثمانيين فى مواجهة السياسة البريطانية ، كان ذلك تغييراً مؤقتًا فى الموقف ، ربما أحدثته ظروف بعينها خاصة بتلك اللحظة) .

من المفيد مراجعة المقالات المنشورة فى « المقطم » فى الفترة التى كان فيها « ما هنالك » يظهر مسلسلاً مراجعة سريعة . فقد كانت الجريدة فى إطار السياق المصرى متساوقة فى تأييدها للسياسة البريطانية وهاجمت « تعصب » صحيفة « المؤيد » التى كانت تدافع عن مصالح القومية المصرية (انظر على سبيل المثال العددين ١٩٥٠ ،

فى ٢٢ أغسطس و ١٩٦٢ فى ٥ سبتمبر ١٨٩٥) . وكانت هناك تقارير منتظمة من العاصمة العثمانية ، « أخبار من الآستانة » ، وكانت جميعها غُفْلاً مثل « أحد الفضائل العثمانية » . ومن بين الموضوعات الأساسية التى كانت « المقطم » يكتب عنها ، فى الوقت الذى يُنشر فيه « ما هنالك » مسلسلاً ، مصير الأرمن داخل المناطق العثمانية، ومحاولات السلطات حظر حركة تركيا الفتاة أو على الأقل السيطرة عليها . وكانت هناك كذلك مقالات منتظمة تتعلق بالإجراءات الأمنية داخل العاصمة العثمانية (العدد ١٨٦٤ فى ١١ مايو ١٨٩٥) وفى أوروبا (العدد ٢٠٢١ فى ٣ نوفمبر ١٨٩٥ ، والعدد ٢٠٢٥ فى ١١ مايو ١٨٩٥) . وكان مصدر الفضائح الذى على قدر كبير من الثراء هو سلوك السفير العثماني فى باريس منير باشا الذى قُبض عليه وهو بصحبة عاهرة فرنسية فى غابة بولونى (العدد ٢١٩٢، ١٠ يونيو ١٨٩٦) . وحملت الصحيفة مرتين على الأقل تقارير لصحفيين أوروبيين نجحوا فى إجراء مقابلات مع السلطان عبد الحميد نفسه ، وفى كل مرة كان الموضوع الأساسى هو الجو القمعى الذى خلقته إجراءات الأمن فى اسطنبول (وهو ما أنكره السلطان بشدة فى العدد ١٩٧٧ ، فى ٢٧ مايو ١٨٩٥ ، والعدد ٢١٢٧ فى ٢١ مارس ١٨٩٦) . وكانت الحالة المزرية لجمال الدين الأفغانى ، الذى فرضت عليه الإقامة الجبرية ، موضوع مقال فى العدد ٢٠٤٦ ، فى ١٢ ديسمبر ١٨٩٥ .

نُشرت تفاصيل أكثر لما جاء فى هذين المقالين ، وغيرهما من المقالات التى تناولت الجو العام فى اسطنبول وسلوك السياسة العثمانية الداخلية والخارجية ، على صفحات « المقطم » حين بدأت المقالات المسلسلة التى تحمل عنوان « ما هنالك » فى الظهور . ونُشر المقال الأول فى الجريدة فى الثامن والعشرين من يونيو عام ١٨٩٥ منسوباً إلى « أديب فاضل من المصريين » . وكانت النبرة شديدة النقد والسخرية التى تميز المقالات كافة فى السلسلة موجودة منذ اللحظة الأولى :

كان السلاطين من آل عثمان غير الفاتحين منهم ، وغير ذوى الأعمال العظيمة التى زينت تاريخهم بالفخار والمجد يقضون أوقاتهم بالملاهى واللذات فى قصورهم .

وتحلل المقالة الحكومة العثمانية بالتفصيل التى يتسم بالحيوية ، بل والفاضح . وتبدأ الرواية بوضع السلطنة العثمانية بصورة عامة ، ثم تمضى إلى تحليل البيروقراطية ، باباً وراء باب . ويبدأ التحليل بقصر السلطان نفسه (« المباين » ، والباب العالى والسياسية الخارجية ، وسلوك الموظفين الذين يديرون كل مصلحة من مصالح الحكومة . وسياسة الكاتب هى وصف التكوين الفيزيقى للمكاتب التى يناقشها ، كى يعرض تفاصيل عن وظيفة كل مسئول ، ثم يقدم سلسلة كاملة من الحكايات عن الجوانب الطيبة ، وفى مرات كثيرة الجوانب السيئة ، للمنصب ومن يشغلونه . وهناك أبواب أخرى عن الباش أغا وجنرالات الجيش ؛ وبينهم ما لا يقل عن ستين مشيراً . بعد ذلك يخصص الكاتب فصلين كبيرين لنظام التجسس المعقد الذى سبق أن تناولته الكثير من المقالات السابقة فى « المقطم » . وهنا بالطبع يعتمد الكاتب اعتماداً تاماً على مستودع ضخم من الحكايات ، حيث إنه من المستحيل الحصول على « المعلومات » نظراً لطبيعة الموضوع المطروح للنقاش . ويلى هذه الفصول عدد من الأبواب التى تصف طقوس الخلافة فى اسطنبول ؛ فهناك الموكب الضخم إلى صلاة الجمعة ، وبالأخص التفاصيل المتعلقة بالاحتفالات والشعائر الخاصة بشهر رمضان المبارك (العدد ١٨٧٦ فى ٢١ سبتمبر ١٨٩٥) . وبعد مناقشة عملية تعيين المسئولين التى تتسم بالفساد فى أغلب الأحوال (بما فى ذلك السفراء لدى الدول الأجنبية) ، يركز الكاتب على كبار المشايخ فى اسطنبول ، وعلى رأسهم الشيخ السورى أبو الهدى الحلبى . ويشمل هذا الباب كذلك مجموعة وفيرة من الحكايات المهينة .

عند هذه النقطة فى سلسلة النشر الخاصة بالمقالات الصحفية قد نكتشف إشارة ما إلى المشاكل التى ستقع فيما بعد ، كما فى المقال المنشور فى العدد ٢٠٢٧ فى ٢٠ نوفمبر ١٨٩٥ ، حيث يفتتح الكاتب مقاله بشرح مفصل لما قصده من كتابة هذه المقالات ، فهو يقول إن لديه هدفين رئيسيين ، أولهما هو وضع حد للممارسات التى تحدث فى ذلك الوقت فى العاصمة العثمانية ، والثاني أوسع منه مجالاً وهو الحيلولة دون الانهيار الوشيك للخلافة العثمانية ، والسلطنة ككل ، وبما أن هذين الهدفين

فى ذهنه ، فإنه من المفارقة إلى حد كبير أن تنتهى المقامات بفصل عن السلطان عبد الحميد شخصيًا ومقال أخير يوثق ما وقع فيما مضى من خلع للسلاطين ، وظهرت هذه المقالة الأخيرة فى العدد ٢٠٩٣ فى ٨ فبراير ١٨٩٦ .

حين نبدأ بالعدد ٢٢٨٤ من « المقطم الصادر فى ٧ أكتوبر ١٨٨٦ ، نقرأ عن ظهور « ما هنالك » على هيئة كتاب . ونُشرت المقالات الأصلية بالترتيب الذى ظهرت به فى الصحيفة ، وقد حُذفت مقالتان (العدد ١٩٢١ والعدد ١٩٢٣ فى ١٩ و ٢٢ يوليو ١٨٩٥ ؛ وقد أعيدا فى هذه الطبعة) ، وأضيفت مقالتان أخريان فى بداية الكتاب ، وهما « الدين النصيحة » من العدد ١٩٦٠ فى ٢ سبتمبر ١٨٩٥ ، و « الأمة العثمانية » من العدد ١٨٩٨ فى ٢٢ يونيو ١٨٩٥ . وكان اسم « المؤلف » لا يزال هو « أديب فاضل من المصريين » ، إلا أنه من الواضح أن الاسم المستعار لم ينجح فى تضليل مسئولى السلطان العثمانى ، فى اسطنبول أو فى مصر .

لم تكن العملية التى أدت إلى اختفاء « ما هنا لك » غير واضحة ، طبقًا لطبيعة الأشياء . ومن الواضح أنه لابد أنْ ضغطًا كبيرًا قد وقع على إبراهيم المويلحى ، وربما ناشريه ، من السلطات التى تربطها صلات قوية بالحكومة العثمانية ، لأن كل نسخ « ما هنالك » مُنعت من التداول وأُعدمت . وقد اتضح أن ذلك الإجراء تم بشىء من الدقة والإحكام ، إذ لم يُسمع الكثير عن هذا العمل منذ ١٨٩٦ . ومن الواضح أن نسخة واحدة على الأقل نجحت فى البقاء فى مكان ما من مصر ، وهى النسخة التى أعددت منها هذه الطبعة (وكنت أود بشدة التمكن من اكتشاف أى شىء عن تاريخها السابق) . ولكن هاهى « ما هنالك » ترى النور من جديد الآن ، بعد قرن من آخر مرة أُتيح فيها الحصول عليها فى شكلها المطبوع .

(جـ) مرآة العالَم (حديث موسى بن عصام)

حين بدأ المويلحيان نشر صحيفة « مصباح الشرق » فى أبريل من عام ١٨٩٨ ، وضعا سياستها التحريرية بمهارة كبيرة جعلتها تحتل مكانة تختلف عن مكانة

الصحف الكبرى الأخرى مثل « الأهـرام » و « المقـطم » و « المؤيـد » . وسـرعـان ما جذب نقد « مصباح الشرق ، الذى اتسم ببراعة أسلوبه وانعكس على مقالاتها ، عددًا كبيرًا من القراء حسنى التمييز . وازدادت شعبية الصحيفة إلى حد كبير حين بدأ محمد المويلحى نشر سلسلة من « المقامات » الخيالية ، التى استفاد فيها من راوية بديع الزمان الهمذانى الشهير عيسى بن هشام ، كى يقدم تعليقات مناسبة إلى حد كبير على الظروف السياسية والاجتماعية داخل مصر فى عام ١٨٩٨ (المقامات موجودة الآن فى الأعمال الكاملة لمحمد المويلحى التى نُشرت فى هذه السلسلة) . كان المقصود من هذه المقالات الخيالية أن تكون تعريفًا للجمهور المصرى بمشروع أكثر طموحًا شرع فيه محمد المويلحى فى سبتمبر ١٨٩٨ حين بدأ نشر « فترة من الزمان » ، وهى سلسلة مقالات جمعت فيما بعد وحُررت فى صورة « حديث عيسى بن هشام » الشهير (١٩٠٧) .

من الواضح أن نجاح مقامات محمد المويلحى ، الذى يمكن قياسه من خلال تلك التعليقات التى تثنى عليه ، المنشورة فى عمود بريد القراء بالصحيفة ، قد أسرَّ الوالد والولد . كما بدا كذلك أنه حث إبراهيم ، الوالد ، على محاولة بدء مشروع مشابه خاص به . وبعد بضعة أشهر كانت مقامات محمد المويلحى « فترة من الزمان » يُشار إليها على أنها « حديث عيسى بن هشام » (انظر « مصباح الشرق » ، العدد ٣٠ فى ٥ يناير ١٨٩٩) . وهكذا فإنه حين نشر إبراهيم مساهمته فى هذا النوع الأدبى أعطاها « مرآة العالَم أو حديث موسى بن عصام » فى إشارة واضحة إلى العنوان الذى أخذ الناس يعرفون به عمل ولده . وبدا من المحتمل كذلك أن إبراهيم المويلحى كان على علم إلى حد كبير بأهمية مشروع ولده ، حتى أن مقاماته « مرآة العالَم » كانت تُنشر فقط متخللة ظهور مقامات محمد المويلحى « فترة من الزمان » . والواقع أن سرد إبراهيم ظهر فى مجموعتين منفصلتين ؛ فى العددين ٦٠ و ٦٢ من « مصباح الشرق » فى يونيو ويوليو من عام ١٨٩٩ (فى الوقت الذى كان محمد قد أكمل المجموعة الأولى من « فترة من الزمان » التى تتناول محاولات الباشا استغلال النظام القضائى المصرى لاستعادة ثروته) ، وفى الأعداد ١٠٩ - ١١١ و ١١٤-١١٥

و ١١٩ من « مصباح الشرق » في الفترة من يوليو إلى سبتمبر من عام ١٩٠٠ (حين غادر محمد مصر ليسافر مع الخديوى إلى لندن ، ثم اتجه إلى باريس لزيارة المعرض) .

وكما هو الحال بالنسبة لعيسى بن هشام ، راوية « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى ، كان موسى بن عصام مصرياً معاصراً يستطلع ظروف أبناء بلده بعين نقدية . وبينما يستفيد عيسى بن هشام من ردود أفعال باشا من عصر محمد على في مناقشة ، شديدة النقد ، الظواهر الخاصة بطبيعة وسرعة التغيرات التى حدثت في مصر في ظل الاحتلال الإنجليزى ، يلتقى راوية إبراهيم المويلحى ، موسى ابن عصام ، بشيخ يوافق على أن يأخذه إلى مكان مرتفع يمكنه منه رؤية العالم بتفصيل كبير ، ويسمح موقع المشارفة هذا لموسى بن عصام أن يشاهد المصريين وهم يحيون حياتهم اليومية . وبعد المقامة التعريفية (« مصباح الشرق » العدد ٦٠ في ٢٢ يونيو ١٨٩٩) ، يشاهد موسى في استياء رجلاً شديد الثراء يبحث عن العديد من الطرق كي يرفض كل طلبات فعل الخير (« مصباح الشرق » ، العدد ٦١ في ٢٩ يونيو ١٨٩٩) . ويزداد شعوره بالغضب حين يلفت الشيخ انتباهه إلى السودان ، فيرى موسى بن عصام الجيش المصرى وهو يُهان حيث يعمل جنوده في الحرارة الشديدة بينما « الزملاء » البريطانيون فيما يسمى الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى للسودان يشرفون على الأنشطة (« مصباح الشرق » ، العدد ٦٢ في ٣ يوليو ١٨٩٩) . وتبدأ المجموعة التالية من المقالات بسلسلة من ثلاث مقامات تسجل الأخطار المرتبطة بالمضاربة في البورصة . ومن الواضح أن هذا موضوع يتصل اتصالاً مباشراً بإبراهيم المويلحى نفسه الذى فقد جزءاً كبيراً من ثروة عائلته في المضاربة . وقد جعل راويته موسى بن عصام يشاهد في رعب عدداً من المصريين تقنعهم مجموعة من الوكلاء باستثمار مبالغ ضخمة من المال ، ثم يستخدمون كل أنواع العرافين وضاربى الوَدَع كي يقدِّروا احتمال النجاح (« مصباح الشرق » ، الأعداد ١٠٩-١١١ في ٢٣ و ٣٠ يونيو و ٦ يوليو ١٩٠٠) . وتعود المقالات الثلاثة الباقية من « مرآة العالَم » إلى مركز الاهتمام الأخلاقى الخاص بالنماذج السابقة . حيث تعرض بالتفصيل المبالغ الضخمة التى ينفقها الناس على الجنازات ، والتدين الزائف الذى تنطوى عليه

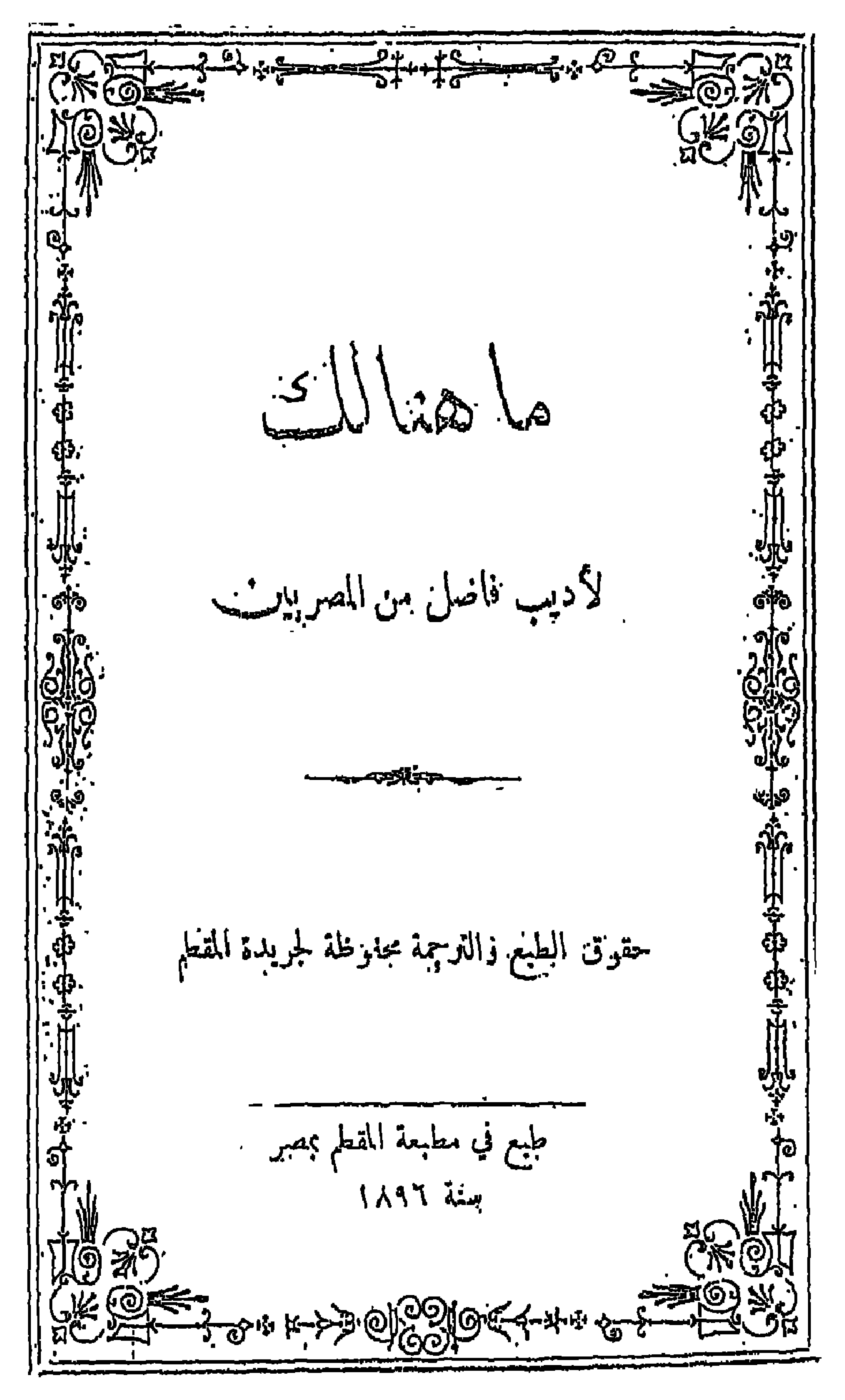
هـذه الأشكال من التباهى ، والمناخ العام للفساد الذى يستشرى فى المجتمع (« مصباح الشرق » ، الأعداد ١١٤ و ١١٥ و ١١٩ فى ٢٧ يوليو و ٣ أغسطس و ٧ سبتمبر عام ١٩٠٠) .

من الواضح أن هذه السلسلة من المقالات ، « مرآة العالَم » ، تكشف عن عدد من التشابهات مع « فترة من الزمان » التى كتبها محمد المويلحى ومع شكلها اللاحق « حديث عيسى بن هشام » . فالموضوعات معنية بشكل كبير جداً بحياة المصريين المعاصرين ومشاكلهم ، والسرد مكتوب بأسلوب شديد البراعة ويستفيد استفادة مُحْكَمة من السجع ، وخاصة فى الفقرات الافتتاحية لكل مقال . إلا أنه قد يتضح فى المقام الأول أن الموضوعات التى يختار إبراهيم المويلحى التركيز عليها تختلف عن تلك التى يختارها محمد المويلحى . فعلى سبيل المثال لا يناقش « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى السودان أو البورصة . إلا أن الأعمال الكاملة لمحمد المويلحى تبين أنه ناقش هذين الموضوعين فى مقامات بعينها ضمن « فترة من الزمان » ، ولكنه قرر ألا يُضمِّن سرده الذى أخذ شكل الكتاب ، « حديث عيسى بن هشام » ، هذه المقالات . ومن قبيل المصادفة أن هذه الموضوعات نفسها تضمنها كذلك كتاب آخر من هذا النوع نُشر قبل عام من « حديث عيسى بن هشام » وهو « ليالى سَّطيح » لحافظ إبراهيم (١٩٠٦) . وبما أن حافظ إبراهيم الشاعر المعروف كان صديقًا مقربًا لعائلة المويلحى ، وكان مثلها عضواً فى الوسط الأدبى الشهير الخاص بالأميرة نازلى ، فمن الواضح أن الموضوعات التى كانت تناقش بانتظام فى ذلك الوسط عرفت طريقها إلى سرد المؤلفين الثلاثة . وكتأكيد لتأثير سرد المويلحى على حافظ إبراهيم ، يمكن أن نشير إلى حقيقة أن « ليالى سَّطيح » تتضمن نصًا مقتبساً من « فترة من الزمان » لمحمد المويلحى (انظر حافظ إبراهيم « ليالى سَّطيح » ، القاهرة : الدار القومية ، ١٩٦٤ ، ص ٢٩ .)

هكذا يشكل « مرآة العالم أو حديث موسى بن عصام » إلى حد كبير جداً مجموعة متكاملة مع « حديث عيسى بن هشام » (فترة من الزمان) وكتاب حافظ إبراهيم « ليالى سَّطيح » . إلا أنه يبدو واضحًا أن إبراهيم المويلحى ، الوالد ، كان

يدرك جيداً أن العبقرية التى كان يبديها ولده ، محمد ، فى عمله الذى سيصبح « حديث عيسى بن هشام » كانت أعلى قدراً مما لديه هو من إلهام . لذلك فمن المؤكد أن قراره قصر تأليفه على تسع مقامات رمز لتفاخر الوالد بما أنجزه ولده .

" ما هنالك "



ملاحظة هامة :

الهوامش المشار إليها بأرقام ((1) مثلا) موجودة فى النص الأصلى والمفروض أنها للمؤلف إبراهيم المويلحى نفسه .

الهوامش المشار إليها بنجمة (* مثلا) للمحرر .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(آل عمران آية : ١٠٤)

هذا ما رأيناهُ واجبًا علينا من ذكر المضار لتجتنَب والمنافع لتجتلب ولسنا نجد مقدمة تليق بهذا الكتاب فى بيان غرضنا الذى نقصدهُ منهُ ونحاولهُ فيه . ونكشف للناس الأسباب الشريفة الّتى دعتنا إلى وضعهِ ونشرهِ سوى مقالتين إحداهما لأحد أئمة الإسلام العظام وثانيتهما لفاضل كان يمضى مقالاتهُ بحرف الياء فى جريدة المُقَطَّم

قال الإمام المُعَظَّم فى مقالتهِ .

الدين النصيحة(*)

إن منا من يتظاهر بأن تنبيه الدولة إلى ما هى عليه من سوء الحال مروق وضلال ، وليته مع ذلك يكتفي من هداه بالإمساك عن التنبيه بل يتطرف إلى تحسين القبيح وتزيين السوء وإطراء الذميم إلى مثل ذلك مما يزيد الدولة تورطًا فى المزالق وتوغلاً فى الخلل وتخبيطًا فى الفساد وشططًا عن السداد ويتبجح بأن هذا هو الحب والإخلاص والولاء ، فياليت شعرى ما عسى أن يكون البغض والغش والتلبيس لديه بعد هذا . وقد لا يبلغ العدو من عدوه بالحرب والقتال ما يبلغ منه بهذا التوريط والتضليل .

ولا أقبل أن إنسانًا يعمل على توريط دولته إلى هذا الحد وهو صحيح المزاج ، فإن النفس لا ترضى من عز الملك بديلاً فهى بطبيعة الوجدان لا تنبعث إلى ما فيه وبال ملكها وتدمير سلطانها بل هى متجهة بفطرتها إلى تأييد دولتها وسلامة عرشها، وإنما ما ذكرناه هو مذهب قوم استؤجروا عليه لسقوط مروءاتهم وفساد مزاجهم .

وقد يحتج لنفسه صاحب هذا المذهب لدفع الخجل أو تلطيفه بأن فى تنبيه الدولة دلالة لعدوها على مغامزها وهو مستوفز يترقب فرصة للوثوب عليها ، فليس المنبه إلا كرائد العدو فهو يجلب عليها الضرر من حيث يقصد النفع وذلك فعل الصديق الجاهل. فمن الحزم تعظيمها فى عين عدوها حتى يقع فى روعه أنها قوية عزيزة منيعة الجانب فييأس منها وينقطع طمعه فيها ، ولعل الله بعد ذلك يبعث فيها منبهًا فتنبعث إلى لم شعثها وتقويم أودها واستعادة مجدها الأول وسؤددها التالد .

(*) المقطم ١٩٦٠ ، ٣ سبتمبر ١٨٩٥ . « لفاضل من أئمة المصريين وأدراهم بأحوال الدولة العثمانية ».

وهذا الاحتجاج غش وتدليس أيضاً . أما أولا فلأن عدوها متنبه يقظ متأمل فهو أبصر بمغامزها وأخبر بدخائلها بل مطلع منها على ما لم نحط به خبراً ، وإنما تصادم المطامع فيها أوقف كل عدو يترقب غفلة الآخر أو اشتغاله بسواها أو يحاول التمالؤ مع ثان ليتناصرا على قطع الطريق إليها ويتساهماها . فليس فى تنبيهها ما يكشف للأعداء شيئًا فيها قد كان عنهم مستوراً بل لو تنبهت لوجدت من تصادم المطامع فرصة تمكنها من الاستدراك . وأما ثانيًا فلأنه إذا كان عدوها بحيث يجهل دخائلها وهى بادية للعيان فأهون به عدواً إذ لا يبلغ الجهل من دولة هذا المبلغ وهى فى عالم الأحياء . وأما ثالثًا فلأنه إذا خيف على الدولة عاقبة التنبيه كان الخوف عليها من التمادى على الخلل أشد ، فإنه أعجل من العدو سيراً وأسرع بطشًا وأسوأ تأثيراً . على أن قارعة العدو قد تدفع أو يحتال لها ولا دافع ولا حيلة لقارعة الغفلة وسوء التدبير . وكذلك منا من يحسب أن تنبيه الدولة ضرب من العبث وإنما هو فضيحة من غير جدوى فقد أصبحت بحيث لا ينفع القول فيها على أنها قد سدت سبيل النصح على نفسها لشدة حظرها على جرائدها ولمنعها الجرائد الأجنبية من طروق ديارها ما دامت تحمل النصح إليها ، ولئن طرقتها من سبيل خفى فإنها لا تخترق حجاب أمير المؤمنين ولئن اخترقته بحيلة من الحيل فإنها تصادف حول عرشه ملأ من الغاشين المحتالين الذين عدلوا به عن تدبير الملك وعرفوا كيف يقلبون النصح فى عينه غشاً يعود عليه فى ذات نفسه .

وهذا رأى من لا خبرة له بالشرع ولا دراية عنده بتأثير القول . فأما الفضيحة فلو كان فى اتقائها خير بإطلاق لتعطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولما كان الدين النصيحة لله ولرسوله والأئمة المسلمين كما قال صلوات الله عليه وكررها ثلاثًا . ولما قال الفاروق رضى الله عنه من رأى منكم فىَّ اعوجاجًا فليقومه . وأى شرع أم أى عقل يأمر باتقاء الفضيحة فى درء المفاسد . ومع كل ذلك فأى عورة مستورة منا حتى نتقى الفضيحة من كشفها . وأما عدم نفع القول فمن المكابرة فى الواقع وهل كان كون أو فساد فى بداوة أو حضارة إلا بفعل القول من تأليف وتنفير وتحذير وتطمين ووعد وتثبيط وتهييج وتسكين وتحريك إلى غير ذلك من أفانين اللسان وضروب البيان . وهل الأنبياء صلوات الله عليهم دعوا الخلق إلى الأديان بأكثر من

قوة اللسان وهل الكتب السماوية تنزلت إلا بالبيان ؟ وبه ثارت أحقاد أو سكنت والتحمت ملاحم وانفصلت وأريقت دماء أو حقنت بمثل القول وشدة اللفظ ؟ ولم أقيمت المنابر وخطب الخطباء ووعظ الوعاظ وسعى المبشرون والدعاة وشرع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ؟ أليس إلا لسر اللسان وحكمة البيان وفضل الكلام ؟. وبالجملة فهل في الدنيا شيء من عظائم الأمور إلا وهو غرس اللفظ وحصيد النطق . وعلى كل حال فالأمر في ذلك أوضح من أن يحتاج إلى إطناب . وإنما ليس لثمرة القول أوان محدود فقد تسرع وقد تبطئ . ورب رجل يتكلم كلمة لا يؤبه لها في جيله فتثمر في جيل آخر ثمرة يتمتع بها أهل الأرض جميعًا . فادعاء أن الدولة لا ينفع فيها الكلام حماقة وجهالة .

وأما الحظر على الصحف الداخلية ومنع الخارجية من طروق الديار فهو قول ضعيف الحيلة . أما ترى من هو من أعظم الملوك لا تكاد تقع يده أينما وضعها إلاّ على كتابات الطوائف تارة تحت وسادة منامه وأخرى في صحفة طعامه ومرة على مكتبه وحينًا بين دفتي كتبه فلو صحت منا النية وصدقت العزيمة ما أعوزتنا حيلة ولا بقي في نفسنا نصح مستور على أمير المؤمنين .

وأما الملأ الذي دار بعرش الخلافة فأهون من الهوان وليس اعتقادنا فيه القدرة على قلب النصيح غشًا إلا وهما منشأه دوام قربه من جلالة أمير المؤمنين مع ما هو عليه مما يوجب امانته وإقصاءه ومهما يكن من قدرته على مقاومة الحقائق بالشعوذة فإن من أساليب الكلام ما لا تنفع معه شعوذة ولا تنطلي عليه سحر ولا تفيده حيلة . وبالجملة فالحق أجدر من أن يكافح ولئن ثبت ... أساسه مرة فكلما يثبت أخرى ، وماله إلى الفرار على كل حال ، وحينئذ فترك النصح ... من قصور الرأي أو فتور العزم .

وإن منا أيضًا من يزعم أن داء الدولة قد أزمن وتأصل بعد أن استفحل وفشا في عروقها . وانبسط وسرى في دمها . وامتد وتشعب في أعصابها . وصار لا يرجى برؤه حتى يعالج بل لا يؤمل تلطيفه حتى يداوى كما قطع بذلك حذّاق أطباء السياسة . على أن داءها يستوي في معرفته الطبيب وغيره كما يستويان في معرفة الأكمه

والأعرج والمجدوع وأمثالهم من ذوى العاهات المفضوحة . وإذا فالنصح لا يورثها إلاّ التنغيص ، ومن الرحمة ترك تنغيص من لا يستطيع التدارك .

وهذا ما عليه كثير من كبار الدولة وهو يأس استحلوا به تناهب أموال الدولة والمسلمين ليدخروها وقاية لهم وأهليهم من الفاقة بعد انحلال الدولة ، خاب ظنهم وكذب حدسهم . وما الداعى ، حاسبهم الله ، لهذا اليأس والدولة بحمد الله لا تحتاج فى استرجاع عظمتها إلى غير لفتة واحدة من أمير المؤمنين ، فما عليهم لو بذلوا جهدهم بل ما لهم لا يبذلون نفوسهم فى تلك اللفتة عوض إفراغ وسعهم فى اغتيال أموال المسلمين ، فان نجحوا كانوا مشكورين وإن لم ينجحوا كانوا مشكورين معذورين . وما يدريهم لعل الله عند العزم وحسن القصد يخلق من الضعف قوة فكثيراً ما كان ذلك. وليس بعزيز أن يكون أصلح الله شأنهم أو عوضنا خيراً منهم رجال من أولى العزم تهون عليهم نفوسهم فى مصلحة الدولة وعامة الأمة .

وبعكس هؤلاء فئة ترى أن الدولة بريئة من العيوب ، قوية لا ضعف بها وإنما تحازب الأعداء عليها وتمالؤهم على اضطهادها وتقومها من عناصر متخالفة لاتنفك تتنافر ميلاً إلى الانفكاك ومساعدة الأعداء لتلك العناصر كلما شغبت ، كل ذلك خيل لنا أن الدولة هرمت وخارت قواها وانحلت عزائمها وليس الأمر كذلك فى الواقع ولو كان مكانها أعظم دولة من دول أوروبا ما جلدت على احتمال ما هى تحتمله ، ولا صبرت لمعاناة ما تعانيه وإذاً فلا يرميها بالضعف ولا يتهمها بالخلل إلا عدو يريد بث الفساد بينها وبين تبعتها أو تقوية جأش أعدائها عليها وإن ظهر بمظهر الناصح الأمين .

وما أعظم هذا الرأى وقعًا فى ذوق السذج الذين لا إشراف لهم على الحقائق حيث يقوم به لديهم عذر الدولة عند طأطأة رأسها لكل نازلة تضع من قدرنا ، وتدك طود شرفنا وهى قد تكون أقل مما يسعنا دفعه . ولكن ما أبعده من الحقيقة وما أقصاه عن الصواب كما لا يخفى على من له إلمام بنسب الدول وموازنة قواها . فإن دولتنا فى ميزان الدول العظام أخفهن على الإطلاق كفة وأقلهن رجحانًا ولا يناقش فى ذلك إلاّ من هو بمعزل عن العالم . أما الاعتذار عنها بتحارب الأعداء وتخالف العناصر فمن

الحجة عليها ولولاه ما رُميت بالتقصير ولا احتاجت إلى النصح والتنبيه كما أنه لولا مثله فى جميع الدول ما اضطررن إلى تجنيد الجنود ، وإقامة المعاقل والحصون وبذل الأموال الطائلة فى الآلات والاستعدادات . وهل الدنيا من أول نشأتها إلاّ على هذا الحال ، وهل كانت فنون الحرب واختراع آلات القتال إلاّ لهذا السبب ؟. وحينئذ فليس بغاش من يستلفت الدولة إلى ضعفها ويستنهضها إلى تدارك شأنها بل هو الناصح الأمين فليضع نفسه كل رجل من رعيتها حيث يريد .

هذا وحيث إن لكل معلول علة ولا يمكن استئصال المعلولات إلاّ باستئصال عللها، فعلى من يريد أن يضع نفسه من الدولة موضع الناصح الصادق أن يبحث عن علة ضعفها وأصل خللها ثم يحاول استئصال الأصل بما يراه ناجحاً من عقاقير النصح ترياقًا كان أو سموماً، فإنه إن فعل يوشك أن ينجح إن شاء الله .

الأمة العثمانية(*)

يقضى على الأمة فى أيام محنتها بالذهول ، ويعتريها الخمود وهى تصلى بنار المظالم فيحسبها الجاهل الذى لا يأخذ بغير الظواهر أنها فى خير حالاتها راضية مطمئنة غير باكية ولا شاكية . ويصور له جهله أن تنبيهها واستفزازها إلى تبديل ما هى فيه عدوان عليها وإيقاع بها وضرب فى مفاصلها لتثور فتتمزق . وأن ما بها من السبات خير لها من اليقظة ، وأن البقاء على الموجود أولى من التطلع إلى المفقود . والشر كل الشر فى ما يفيق وينبه ويدعو إلى الحراك ، وأن الداعى إلى ذلك شاق لعصا الألفة خارق لحرمة الإجماع مبتغ للفتنة والشرور ساع فى هتك قناع الأمة وتمزيق أثوابها يتربص بها ريب المنون . فمثله كالذى يمر بالمغشى عليه فيظنه متنعمًا بلذة الراحة البدنية إذا أنت نبهته آلمته . وإنما هو ميت إن لم تنبهه . ومن كان جاهلاً بالطب تساوت لديه السنة عن مرض والنوم عن صحة .

ولكن العالم بأخلاق الأمم إذا رأى أمة على تلك الصفة نبذ الظواهر وعمد إلى كشف البواطن فيتضح له أن ذلك السكون والذهول إنما هو داء خدر فى الأفكار إن دام بها قضى عليها ، ولا يعوزها للشفاء منه إلا تنبيهها إليه . وأصل هذا الخدر هوالحذر والتخوف من سلطة قادرة قاهرة ربما تلاشت مع ذلك ولكن يبقى أثرها فى الأوهام ثم تحمل العادة عملها فتلهى الأمة عن البحث عن أسباب هذه القوة القاهرة التى استكانت لها النفوس وعن كونها هى مصدرها . وكم نحت الإنسان الحجر بيده ثم يعتقده إلهًا فيعبده ، وتستمر به العادة فيخافه ويرهبه موقنًا أنه القادر القهار فوقه لا يزال هكذا ذاهلاً حتى يأتيه من يخبره أنه يعبد من دون الله مالا ينفعه ولا

(*) المقطم ١٨٩٨، ٢٢ يونيو ١٨٩٥ .

يضره فيستيقظ من غفلته حينئذ ويتذكر أنه يعبد حجراً من صنع يده فينثني عن عبادته ويتبين له وهمه فيترك الضلال إلى الرشاد .

وكذلك كان الحال فى الأمم منذ الأزمان الخالية ، يسود الرجل الفرد الضعيف على الملايين من النفوس فيظلم ويجور ويسلب ويهتك وهم ذاهلون لا يقدرون على الأنين ، فإذا جاءهم من يوقظهم من رقدتهم نفضوا غبار الأوهام عن أثوابهم وقاموا يطلبون حقوقهم المفروضة التى لا عيش بدونها . ويجوز لفرد واحد أن يوقظ أمة كما جاز لفرد واحد أن يرقدها .

وحالنا فيما نكتبه عن البلاد العثمانية هو أننا نريد تنبيه الأمة إلى دائها لتنقذ نفسها من سوء المظالم ، ومن التمزق والتشتت الذى لابد أن يلحقها إن هى بقيت على حالتها الحاضرة الموجبة لتداخل الأجانب فى أملاكها تداخلاً يفضى بها إلى الانحلال والانفصام كما نشاهده فى المسألة الأرمنية وما قبلها من المسائل وما سيكون بعدها . ولأجل أن تصير لها حكومة صالحة الإدارة منظمة الأحوال كبقية الأمم المجاورة لها حتى يطيب لـها عيـش في هذه الحياة . وينحصر غرضنا في ذلك وراء غايتين إعلان ما يخفيه عنها الظلمة من سوء أحوالها وإرشادها إلى المطالبة بحقوقها كما يكون الدواء بجانب الداء . ومن حقوقها أنها تطالب الحكومة بالإصلاح وتنفيذ القانون الأساسى وإعادة مجلس المبعوثان وتشكيل وزارة متصرفة مسؤولة أمام الأمة والتفسيح لحرية الأفكار كما هو موجود فى أدنى دولة من دول أوروبا . وهذا النظام وحده هو الكافل لتحسين حال الأمة العثمانية وحفظها من التفريق والتمزق وبركته تصير قادرة على صد كل طامع فيها . وأمامنا اليوم شاهد عدل من الحرب بين الصين واليابان كيف أن أمة صغيرة تغلب أمة عظيمة هى عشرة أمثالها بفضل هذا النظام .

فإن رمانا الجهل بمن يقول إن الأمة العثمانية لا ينفعها هذا النظام ، ولا يصلح لها ولا تقاس بسواها من الأمم لاختلاف الأجناس والأديان والمذاهب فيها ، أحلناه على أحد التلامذة فى المدارس ليعلمه أن ذلك ما لا تكاد تخلو منه دولة من دول أوروبا . وهذه دولة النمسا أقرب الدول جواراً للدولة العلية تتألف من جهة الأديان من كاثوليك ومسلمين وأرثوذكس وبروتستانت ويهود ، وتتشكل من جهة الأجناس من بولونيين

وبوهيميين وألمانيين وطليانيين ومجريين وصقالبة وما منعها ذلك من حسن النظام الذى هى عليه .

فما الذى يمنع الحكومة العثمانية من مباشرة هذا النظام الشورى الذى يأمر به الشرع الشريف من طريق الخلافة ويدعو إليه الحزم من طريق السلطنة . يمنعها عنه أن الأمة لم تهب للمطالبة بهذا الحق فتجبرها على التسليم به . وأهل الحكومة يصبون البلايا على رؤوس الأمة ليباعدوا بينها وبين هذا الطلب لأن فيه سداً لمطامعهم . وفائدتهم من الحال الحاضر جزيلة فهم يعتقدون أن أمر دولتهم آخذ فى التلاشى والانحلال وليس لديها ما تدفع به أطماع الدولة ولئن نجت منها اليوم فلا تنجو فى الغد وما هى إلا مدة ثم تنقضى فينتهزون هذ الفرصة لاتخاذ الأحكام واسطة فى إحراز الأموال . فالسابقون السابقون أولئك هم المقربون والفائز من أخذ نصيبه وبادر إلى سهمه . وصارت الأزمة فى أعينهم بمثابة بيت أصابه الحريق فينثال حوله الشطار من كل حدب لنهب ما احتواه من أثاث ومتاع ، والسعيد من اختطف شيئًا قبل أن تلتهمه النيران . وعلى ذلك فلا مناص للأحرار من كشف الستار عن هؤلاء الحكام والتشنيع عليهم وتشهيرهم فى أنحاء العالم حتى يعدلوا عن ذلك الرأى الذى ملأ رؤوسهم يأسًا واستبدلوا ذلك الاعتقاد بأن الأمة العثمانية دواؤها فى يدهم وهى أبعد الأمم عن التلاشى والانحلال إذا هم ساروا بها فى طريق الإصلاح وأن المجد فى إحياء أمة خير من المال فى موتها . فإن لم يرغبوا فى هذا الخير ولم يعدلوا عن طريقهم كان الواجب على الأحرار تنبيه الأمة لتطالب هى بحقوقها .

هذا غرضنا الذى نرمى إليه ونسعى له ؛ إما أن يأمر الحكام بالعدل وإما أن يمتثلوا أمر الأمة فى إجرائه . ولا نبغى بالأمة العثمانية إلا إحدى الحسنيين . ولسنا نبالى بقول من يقول من أرباب الإفك والبهتان أن ما نكتبه عن الدولة العلية ناشئ عن عداوة لها ومحبة فى الانتقام والتشفى وتفريق الجامعة العثمانية التى لا يدركون لها معنى . ولو كان ذلك كذلك لكنا اليوم فى صف أولئك المنافقين نرمى دلونا بين دلائهم نحسن القبيح ونطرى الظالم ؛ ونخفى على الأمة سوء أحوالها ونلبس الأمور عليها غشًا وإيهامًا ونجتهد فى ما يزيد فى غفلتها حتى تسقط فى وهدة الخراب والدمار . أولئك

هم الأعداء حقا ، ومن يلتفت إلى أقوالهم ويركن إلى ترهاتهم فهو جاهل مغرور لا يفرق بين الضار والنافع . وليس ينكب بنا عن ردع الظالمين عن ظلمهم وتنبيه الغافلين إلى حقوقهم افتراء مفتر ولا قول كاذب . وليعمل كل على شاكلته : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾

ما هنالك

المقالة الأولى(*)

فى أحوال السلطنة العثمانية

كان السلاطين من آل عثمان غير الفاتحين منهم وغير ذوى الأعمال العظيمة التى زيَّنت تاريخهم بالفخار والمجد يقضون أوقاتهم بالملاهى واللذات فى قصورهم، ولا يشتغلون بأمور الدولة إلاَّ إذا تكلفوا التصديق على الأوامر المرفوعة لهم من صدورهم العظام . وكانت السلطنة العثمانية مع ما كان يلحقها فى أزمان حكمهم من شؤم الحروب بسلخ البلاد عنها رابضة ربوض الليث على آجام البسفور يخافها من يغلبها لما رسخ فى النفوس من شجاعة الأتراك وبسالتهم ، وكانت أعلامها المحاذية للهلال والنجم رفعة وجلالاً تخفق فى الشرق فتخفق منها القلوب فى الغرب .

وكان السبب الوحيد فى بقاء السطوة والجلال لها مع تلاهى أولئك السلاطين هو أن أمور السلطنة كانت موكولة إلى صدور ووزراء من أشهر الرجال فى أعصارهم حزمًا وعزمًا، فكانوا يخافون من يسألهم من فوقهم فإن أخطأوا مرة أصابوا مراراً . وما زالت الدولة تقوم وتقعد فى هذه التقلبات، يأتى سلطان عظيم النفس كبير الهمة فيرفع شأن السلطنة ببذل نفسه الشريفة فى سبيل المجد لتشييد أركان الدولة بما يعانيه ويقاسيه من الحروب والفتوح مع فحول قواده المجربين ، ويأتى سلطان يركن إلى الدعة واللهو فيحفظ شأن الدولة ونظامها بمن ينتخبهم من ذوى الكفاءة من

(*) المقطم ١٩٠٣، ٢٨ يونيو ١٨٩٥ .

الصدور والوزراء حتى حصل ما حصل من خلع المرحوم السلطان عبد العزيز والسلطان مراد .

ولما استولى على عرش آل عثمان جلالة السلطان عبد الحميد الثانى فى غمرة تلك الاضطرابات والارتباكات ، رأى جلالته أن السكون لا يستتب وأن النظام لا يحفظ وأنه لا يأمن على ملكه ونفسه إلا إذا قبض بيده القوية على زمام كل الأمور كبيرها وصغيرها ، وكان من سوء حظ العثمانيين أن طاف حول العرش الحميدى زمرة مختلفة الأجناس والأنواع من نزاع الآفاق . ولما تمكنوا بحيلتهم ودهائهم من الثقة بهم والركون اليهم رأوا أن أغراضهم لا تنال ومراكزهم لا تحفظ وراحتهم لا تدوم إلاَّ بإشغال جلالته بمضاعفة إيجاس الخيفة من كل شىء ، واختلاس أوقاته التى تحتاج إليها مصالح الدولة . فتدرجوا إلى ما ابتغوا - والتدريج قائد الإفراط - حتى وصلوا إلى ما لا تصدق ناقله إلاَّ إذا قاسمك الأيمان المغلظة عليه . وأبعدوا عن سدته كل صادق أمين قادر بكفاءته على خدمة الدولة بوصفه بسرعة الحركة فى الفكر وبسرعة الإقدام فى العمل ، فتشتت أهل الفضائل الذين كانت الدولة تنتفع بهم فى حل مشاكلها ، ولم يبق منهمْ إلا من تغابى أو تجاهل أو أفرط فى إظهار الجبن حفظًا لوظيفته أو طمعًا فى وظيفة يريد الحصول عليها أو إبقاء على وجوده فى الأستانة .

وحكاية واحدة فى هذا الموضوع تدل على الكثير منه . كان أحد وكلاء الدولة مع صديق له فحضر ابن صغير للوزير فى السادسة من عمره ، فوقف فى حضرة والده يسأله الأسئلة المخصوصة بهذا السن ، فضحك والده وقال لصديقه إن كامل باشا ذلك الداهية الدهياء يسأل السلطان أحيانًا أسئلة هذا الطفل .

هذا حال الكفاة من رجال الحل والعقد فى الدولة ، قد ذهب الموت والنفى والخوف بهم فلم يبق منهم أحد يشار إليه . ثم نشأ الناشئون فى عشرين سنة على الجبن والخوف من التظاهر بحب الوطن حتى رفعوا من كتابتهم فى معروضاتهم وجرائدهم لفظ (الملة) فلا يقولون « لخدمة الدولة والملة » بل يقولون « لخدمة الذات الشاهانية » وأشربوا فى قلوبهم التجسس ، فصار الابن يتجسس على أبيه والأخ على أخيه والزوجة على زوجها بما لم يسمع بتفاصيله فى تاريخ .

وفى هذا الباب حكايات كثيرة مشهورة نذكر واحدة منها ونترك الباقى لمواضعه . ضاقت يومًا من الأيام ذات يد جميل باشا من الأخبار التى يعرضها على جلالة السلطان، فجاء إلى أبيه نامق باشا وهو شيخ الوزراء قدرًا وسنًّا وقال يا أبت إن أخى قد طال عليه النفى وأولاده يبكون كل ليلة وأنت المقرب الملحوظ بعين العناية السلطانية ، وأن الناس بين متهم لك بالعجز وهذا ما لا نرضاه لقدرك ، ومتهم لك بالقسوة وهذا ما لا ترضاه لنفسك فى طول سكوتك على تخليص ابنك ، فاطلب بعريضة تعرضها على أعتاب مولانا السلطان خلاص أخى . فاعتذر الرجل بأن الحال لا يقضى بالعرض خوف القيل والقال . فما زال به حتى أخذ الرجل يكتب عريضة فى هذا الأمر . ولما تمت حيلته على أبيه تركه وذهب فكتب إلى جلالة السلطان عريضة يقول فيها إن أبى أصابه الهتر والخرف وأنا براء مما يريد عرضه من التماس الرضا عن ابنه المنفى .

هل بعد هذا فساد فى الأخلاق وهل يرجى مع جماعة هذا حالهم صلاح أو نجاح للدولة التى سقطت من بين أيديهم .(*) ولما رأى الناشئون أن الرتب والوظائف لا تنال إلاَّ بالتجسس وإظهار الجبن أخذوا يتسابقون حتى وصلوا إلى غايات يمجها السمع، وينفر منها الطبع ويبكى لها العثمانى الحر بل ربما انتقل من البكاء إلى الضحك طفرة . يقرأ القارئ منهم الكتاب المطبوع فى ذات الأستانة بإذن الحكومة مرارًا فيجد فيه جملة فيكتب تلك الجملة ، ويبنى عليها خراب الدولة فتصدر الأوامر بجمع الكتاب من الأقطار وإحراقه كما فعلوا فى « الطريقة المحمدية » لسيدى عبد الغنى النابلسى، وفى ألف كتاب مثله وذلك أن القارئ وجد فيه قوله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » فطار البرق ليلاً إلى جميع الولاة بجمع الكتاب من كل زاوية وركن وإحراقه بالنار ومحو أثره . ولم يقف بهم الجبن إلى هذا الحد بل نقلهم إلى الخوف من كتاب الله فلا يأذنون لكتاب فيه آية من آيات الجهاد أو آية فيها « **الذين كفروا** » أو ما أشبه ذلك خوفًا أن تحاربهم أوروبا على هذا . وقد بقيت « العقائد النسفية » أعوامًا تتردد

(*) المقطم ١٩٠٤ ، ٢٩ يونيو ١٨٩٥ .

بين المعارف والمشيخة الإسلامية بالكتابة الرسمية وكل جهة من هاتين الجهتين تريد أن تتخلى من مسئولية إعطاء الإذن بطبعها ، وتلقى على كاهل الأخرى عبءَ تلك المسئولية ، وما أمكن لإحداهما أن تخدع الأخرى في هذا . فاتفقتا على حفظ الأوراق والسكوت عن إعطاء الإذن . كل هذا لأن تلك العقائد فيها ذكر الإمامة وشروط الخلافة ومنعوا الكتاب المسمى بالأحكام السلطانية في الفقه الحنفي من الدخول إلى الممالك العثمانية لأن فيه تلك الشروط أيضًا(*) .

وما تحرك الأرمن حركاتهم تلك إلاَّ من جبن هؤلاء من جهة ومن ضغطهم عليهم من جهة أخرى بسبب هذا التخوف ، والأرمن ليسوا كما كانوا قديمًا في الجهل بل أخذوا يتعلمون في المدارس التي أنشأها لهم المرسلون الأميركيون في الأستانة وغيرها من البلاد العثمانية حتى فاقوا مواطنيهم في العلم والمعارف لما قعد بهؤلاء ما هم فيه من موت الأفكار والهمم . فمن المضحكات أن عالمًا أرمنيًّا ألف قاموسًا بالتركية والأرمنية وعرض الكتاب على الحكومة ابتغاء الإذن بطبعه فلما وجد رجال الحكومة في القاموس كما يوجد في غيره لفظة « السيف » مترجمًا بالتركية والأرمنية أمروا بمحو هذه اللفظة وقالوا لا يجوز أن يكون في قاموس أرمني لفظة « السيف » : فكيف يكون تأثير هذا التحكم البارد على قوم عرفوا الدنيا ودرسوا أحوال العالم ونبغوا في المدارس الأميركية . فإن شك قارئٌ في صدق هذا - وله الحق أن يشك - فليسأل عن ذلك في دار الخلافة والسلطنة يجده حقًّا صدقًا ، وما نقلناه إلاَّ ونحن واثقون بإثباته .

هذا حال الناشئين في السلطنة الذين أصبحوا الواسطة بين الرعية وراعيها فإن شذَّ بينهم ذو فضيلة اضطرته المخاوف أن يترا‌ءى برذيلة تقابل تلك الفضيلة ليأمن على نفسه من شرورهم . وقد بلغ بهم الجبن أنهم حظروا على الجرائد فوق الحظر على الأفكار جملاً وألفاظًا فلا تستطيع جريدة تذكر « جمهورية أمريكا » مثلاً فإن اقتضى لها ذكرها قالت « مجتمعة أمريكا » خشية أن لفظ الجمهورية يقلب الحكومة

(*) النص من « منعوا الكتاب » إلى « الشروط أيضا » غير موجود في المقال الأصلي .

في حال النطق بها . ولا تستطيع جريدة أن تكتب « ولى عهد روسيا » مثلاً خشية أن لفظ ولي العهد يحدث انقلاباً في السلطنة . وسنأتي على كثير من مثل هذه النوادر عند الكلام على الجرائد ومديرية المطبوعات .

ولقد بلغوا في إشغال جلالة السلطان وقلب الحقائق له حتى صاروا يقدمون لجلالته في اليوم ما ينيف على مائة وخمسين تقريراً كلها كذب وإفك . ومن العجيب أن الكاذب من هؤلاء الجواسيس إذا ثبت كذبه لا يعاقب رجاء أن يأتي مرة بصدق . ومن الحكايات العجيبة أن رجلا من أهل المابين طلب في إحدى الليالي أن يقابل جلالة السلطان لأمر مهم يعرضه شفاهاً على سدته ، فأذن للرجل المعروف فقال لجلالة السلطان إني رأيت اليوم في بك أوغلي محمود باشا الداماد (وهو الذي نفي مع من نفي إلى الطائف وكان قد مات) في صورة عبد أسود وهو يتكلم مع رجل أجنبي باللغة الإنكليزية . فاستيقظ لهذا الخبر جميع من بالمابين وصار الليل نهاراً وبعث بالبوليس والجواسيس إلى أنحاء الأستانة للبحث عن الباشا المصبوغ بصبغة العبد ، وأرسل بالتلغرافات إلى والي الحجاز وشريف مكة ليلاً للسؤال والبحث عن هذا الأمر العظيم . وجاءت التلغرافات بأن الرجل مات ودفن . وحضر البوليس والجواسيس بعد أن أقاموا القيامة في البحث والتنقيب يحققون أنه ليس في الأستانة خيال لهذا الباشا المصبوغ وحققوا أنه ما كان يعرف اللغة الإنكليزية . فلم يقع على الكاذب الذي أقلق المابين والأستانة والحجاز ليلة ويوماً أدنى عتاب ولا لوم . ولم يذهب الشك عن السلطان إلاّ بحضور رأس محمود باشا الداماد من الطائف(*) .

وسنذكر أحوال السلطنة بالتفصيل ليعذر الناس الحال التي عليها الأمة العثمانية والسلطنة السنية في الوقت المشحون بالمشاكل والمعضلات وليطلبوا من الله أن يلهم جلالة السلطان أن يبعد عنه من أشغلوا أوقاته وقلبوا الحقائق له وأن ينقذ الدولة سبحانه مما أصابها كما أنقذها من قبل . وإنا لذاكرون المابين برجاله وأحوالهم وأطوارهم وعلاقاتهم ثم الباب العالي بصدوره ووزرائه وهلم جراً إلى آخر المأمورين بالحقائق التي لا يجرأ أحد على تكذيبها ، ليعلم الناس أن ما نكتبه عن الدولة صادر عن نفس حرة تريد بيان الفساد ليستبدل بالصلاح ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾

(*) توجد في المقال الأصلي بعد كلمات « الداماد من الطائف » الجملة الآتية : وإذا كانت هذه الطفائف تشغل كبار الإستانة فكيف يكون لمصالح الدولة ومشاكلها وقت تنظر فيه .

المقالة الثانية(*)

المابين

هذه الكلمة تطلق فى اللغة التركية على الحجرة التى لها بابان : باب إلى جهة الحرم وباب إلى جهة الخدم ثم اختصت بالسراى السلطانية . ولفظ السراى لا يطلق فى الأستانة إلا على بيت السلطنة بخلاف ما نراه فى مصر فإن فى العزب والكفور سرايات لعامة الناس . ولو اعتبرنا الاصطلاح الرسمى الجارى فى الأستانة لم نطلق لفظ السراى إلا على عابدين أو رأس التين بلا إضافة ، وهذه السراى السلطانية لها بابان كما فى عابدين وفى رأس التين باب خاص بجلالة السلطان وبالملوك وسفراء الدول عند مجيئهم رسمياً وبالعائلة السلطانية ، وباب عام للخاصة والعامة من الصدر الأعظم إلى الحمَّال . وعلى هذا الباب نفران من العساكر ببنادقهما للسلام . وقبل الدخول نذكر حكاية ليعلم القارئ أن الشيء إذا بلغ الغاية فى عظم القدر قل الاعتناء به . خرج رجل فى شهر رمضان ليلاً من السراى ومعه أحد كتبة المابين وشيخ من أكبر المشايخ فحالت من الرجل التفاتة عند خروجه فوجد أحد مصراعى الباب مغلقاً ورآه مرقعًا بالخشب الأبيض الجديد فى وسط الخشب الأسود القديم فطرف هذا المنظر عينه فقال همساً للشيخ. انظر يا مولاى إلى الباب .

فاختلس الشيخ نظرة إلى الباب ثم التفت إلى صاحبه باسماً وقال إن كل شيء فى هذه السراى مرقع حاشا جلالة مولانا السلطان ثم ما زال ينشد بيت أبى الطيب :

(*) المقطم ١٩٠٨ ، ٤ يوليو ١٨٩٥ .

ولم أر فى عيوب الناس شيئًا كنقص القادرين على التمام

حتى وصل إلى بيته . وقد نقل الناقل أن ذلك الشيخ كان ينشد بيت المتنبى بأصوات مختلفة فمرة كان ينشده بصوت منخفض لا يكاد يسمع وتارة كان يرفع به عقيرته ومرة كان يصحبه بزفرات حتى يتخيل السامع أن الرجل كان يعرض على فكره جميع المناظر التى فى حافظته الواسعة فيعطى بلا إحساس كل منظر ما يستحقه من النغمات الوجدانية .

وبعد العتبة التى يعبرون عنها بأنها فى مرتبة الفلك (عتبة فلك مرتبة) يجد الداخل عليها خمسة عشر من البوابين وعليهم ثياب لا تروق الناظرين ، وبعد الباب حجرة لها أربع نوافذ وفيها كاتب منهم ومعه دفتر يكتب فيه اسم الداخل والخارج بإملائهم له من تلك النوافذ فإذا جاء عليهم مجهول سألوه عن اسمه وعمن يريد مقابلته ثم يوقفونه ريثما يذهب أحدهم فيسأل من يريد الرجل مقابلته فإن رضى بدخوله أدخلوه بعد أن يأخذوا ما معه من عصا أو مظلة ويكتبوا اسمه واسم من دخل عنده ثم يقابلون فى آخر اليوم أسماء الخارجين بالداخلين وبعدها يقدمون الدفتر إلى مكلف غير دائم بقراءته فإن رأى فيه غريبًا عرض اسمه واسم من دخل عنده إلى جلالة السلطان وجلالته ينظر فى الطريقة التى يختارها من طرقه المختلفة لاكتشاف حال الداخل والعلاقة مع مدخله .

وفى أيام القلاقل والاضطرابات التى لا تخلو السراى منها كثيرًا يقرأ جلالة السلطان بنفسه ذلك الدفتر .

وفى السراى دوائر منها دائرة الحبيب الهمايونى . ودائرة الباشكاتب . ودائرة المابينجية . ودائرة الباش أغا . وكان بها دائرة مخصوصة لرئيس الخفيات (أى الجواسيس) ولكن لما عم التجسس بطل ذلك الاختصاص .

وقبل الكلام عن أهل السراى نورد كلام بعض علماء الأخلاق من الإفرنج . قال : ليس فى جميع اللغات كلمة تجمع بمفردها من الرذائل ما تجمعه كلمة كورتيزان (Courtisan) أى أهل البلاط والبطانة والحاشية . وقال فى موضع آخر إن

للكورتيـزان ثلاث خـواص من خـواص المرمر فهـو ثقيل بارد أملـس كغطاء القبر فلا يعدمه الملوك فى الحياة ولا فى الممات . وقال آخر منهم إن الكورتيزان كالنيران اللولبية لا تقارب عند التهابها ولا ينتفع بها عند انطفائها .

أما دائرة الحبيب الهمايونى وهـى على باب السراى فتحتوى على رئيس وجملة من المترجمين وظيفتهم الأولى وظيفة غيرهم (من التجسس) ووظيفتهم الثانية أن يترجموا ما يأمر جلالة السلطان بترجمته من الجرائد الأوروبية على اختلاف لغاتها، وما يأمر خليفة النبى أن يترجموه لجلالته من اللغة العربية من الجرائد وغيرها . وهؤلاء المترجمـون لا يذهبون إلى مـركز وظيفـتهم لاعتـماد بعضـهم على بعض ولاعتمادهم فى حفظ حالهم على ما ترجموه من كلام الجرائد وغيرها مما يوجب الدلائل أو لاعتمادهم على أن لهم شغلاً شاغلاً من التجسس . وفى قدرتهم كافأهم الله بما يستحقـون أن يختـرعوا على عـباد الله ما يجعل إهمالهم أعمالاً مفيدة تقتـرن بالشكر والإحسـان عند الـسلطان ، فلـو دخل محلهم الواسع داخل وقد تفرق أكثرهم منه لوجده بما بقى فيه من الأشخاص كرقعة الشطرنج فى آخر اللعب . وكثيرا ما يطلب جلالة السلطان واحداً منهم لترجمة ضرورية فلا يجده فيبحث الباحثون فى السراى عن مترجم يقضى الحاجة فلا يجدون . وقد أعوزهم البحث ليلة فلم يجدوا إلا كاتبًا صغيراً فى زاوية السراى فقدموه للحضرة الشاهانية فأعجب جلالة السلطان فجعله مابينجى وهو عارف بك المنتفخ الآن الذى يتملق له سعيد باشا وكامل باشا وشيخ الإسلام وهو من عوامل السيد أبى الهدى . ولم ينل المكلفين بهذه الوظيفة المهمة على كثرتهم لوم أو عتاب على إهمالهم . والحقيقة فى هذا التسامح هى بعض الاجتماع ولو كان فى المصالح الضرورية .

وفى الجيب الهمايونى قاعة الضيافة للأجانب الذين يحضرون للتشرف برؤية الموكب السلطانى فى صلاة الجمعة ، فيجتمع فيها أحيانًا ما ينيف على خمسين شخصًا من السفراء والأمراء الأجنبيين بنسائهم وأولادهم فينظرون ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر من الزينة والجمال . لكنهم يأسفون ، ويحق لهم الأسف ، فإن مدة الموكب قصيرة لأن المسافة بين باب السراى وباب المسجد الحميدى

لا تزيد عن خمسين متراً وفى هذه المسافة يرون الخيول العربية بعساكرها الشاهانية صفوفًا كالعرائس والرعية على اختلافها وقوفًا والقواد والضباط بملابسهم الذهبية ونياشينهم المجوهرة حافين حول المركبة المذهبة التى تحمل السكينة والوقار والمجد والفخار حتى يتخيل للرائى منهم أنه يرى المركبة ومن أحاط بها من هالة الضباط والقواد قبة من الذهب مرصعة بالجوهرة فيرجع الأجانب وهم يحلفون أنهم لم يروا ولم يسمعوا بأن الله أعطى لأحد من ملوك الأرض ولا لملك الصين من الزينة ما أعطاه لخليفة النبى الذى كان يخصف نعله والذى كان يقول في دعائه عليه الصلاة والسلام « اللهمّ أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحشرنىَ مع المساكين » .

وقد سأل بعض الإنكليز أمين بك المابينجى الذى يرسله السلطان لتبليغ سلامه لهؤلاء الضيوف عن هذا الجيش الجرار وعن هؤلاء الأهالى الواقفين من غير صلاة فى الوقت الذى وجبت عليهم فيه الصلاة « هل صلاة السلطان تكفى عن صلواتهم » . فانفلت أمين بك منه بلطافة من غير أن يجاوبه . فترقى يومها إلى رتبة البالا مكافأة على حسن تخلصه . وسنأتى على الكلام فى هذه المسألة المهمة فى موضع آخر من رسائلنا .

المقالة الثالثة

دائرة الباشكاتب فى المابين(*)

هذه الدائرة من أجل دوائر المابين قدراً وأهمها عملاً وهى تحتوى على الباشكاتب وعلى عشرين كاتبًا معه من ذوى الرتب من الرتب الثانية إلى رتبة بالا ومعناها (الرتبة العليا) . وعلى ذكر رتبة بالا نذكر ما تغلط فيه الجرائد المصرية كل يوم فإنها تقول لصاحب رتبة روم ايلى بكلربكى أو رتبة ميرمير أن عطوفتلو فلان باشا . ولفظ باشا لا يرد أبداً مع عطوفتلو إلا فى عنوانين مخصوصين السر عسكر وداماد جلالة السلطان (صهره) فيقال دولتلو عطوفتلو فلان باشا .

أما صاحب تلك الرتبة فيقال له عطوفتلو أفندى أو بك على حسب ما كان يطلق عليه قبلها وهى آخر الرتب القلمية وبعدها رتبة الوزارة فإذا ترقى صاحب رتبة روم ايلى بكلربكى إليها حذف رسميًا فى الحال من اسمه لفظة باشا ووضع مكانها أفندى أو بك . وكان يجب على الجرائد هنا أن تتبع قانون التشريفات فى الدولة ما دامت هذه الرتبة منها ولا تغلط غلطتين فى كلمة واحدة بالجمع بين لفظة الباشا والعطوفة . وأهل الأستانة يضحكون إذا رأوا فى جرائد مصر هذا الغلط لأن جرائدهم لا تزيد حرفًا ولا تنقص حرفًا فى أمور رسمية تحت قانون مخصوص يجازى مخالفه .

والكتبة المذكورون آنفًا هم من الشبان الناشئين على الأخلاق الجديدة وكلهم عيون على الباشكاتب حتى كأن عليه من حدقٍ نطاقا . وهو عين عليهم وقد باعد بينهُم

(*) المقطم ١٩١١ ، ٨ يوليو ١٨٩٥ .

الشقاق فتراهم جميعًا وقلوبهم شتى . ومن عوائد السراى أن يكون الباشكاتب ذا لحية لوقار منصبه وجلال وظيفته ولأنه الواسطة العظمى بين جلالة السلطان والحكومة بصدرها وشيخ إسلامها كما أن من تلك العوائد أن يكون المابينجى بغير لحية . ولم تنقض هذه العادة فى الباشكاتب إلى اليوم وإن كان انتقض فيه غيرها وانتقضت فى المابينجى . وقد تحوّل فى السابق من وظيفة الباشكتابة رجل إلى وظيفة المابينجية فحلق لحيته بحكم العادة . ومن العوائد أيضًا أن يكون الباشكاتب خارجًا من الباب العالى متقلبًا فى فنون الكتابة التركية والفارسية (دون العربية) مشهورًا بالبلاغة فيهما للزوم ذلك لوظيفة هى اللسان الناطق عن السلطنة واليد الكاتبة عن الخلافة وقد بقيت هذه العادة جارية إلى الباشكاتب الماضى الذى مات فجأة . أما تحسين بك الباشكاتب الحالى فلم يكن من كتبة الباب العالى ولا من المشهورين فى فن من فنون الكتابة بل ينزله من معه من الكتاب إلى درجة من يغلط فى رسم الحروف وهو فى الثلاثين من العمر وكان مكتوبجى فى نظارة البحرية مع حسن باشا ناظرها الذى حفظت له أمانته كرسيه فى كل وزارة تألفت مدة اثنتى عشرة سنة . أما ما خالف الباشكاتب فى تلك العوائد التى تقتضيها وظيفته ورقاه إلى هذا المنصب الجليل على مشهد من المترشحين له فهو اعتماد ناظر البحرية عليه فى حفظ الأسرار العميقة وكونه صهرًا لمحمود نديم باشا سيد لطفى أغا (هرقل المابين) فرفعته الثقة بشهادة لطفى أغا فيه إلى هذا المنصب العالى الذى تفانت قروم الرجال عليه وتقلده سعيد باشا الصدر الأعظم ببلاغته وسعة علمه وهو أول من نال رتبة الوزارة فى تلك الوظيفة التى كانت قاصرة من قبله على رتبة بالا وعلى الباشكاتب ترد جميع الأوراق الرسمية من الباب العالى ومن المشيخة الإسلامية ومن سائر النظارات وسائر الولايات وتصدر عنه إلى الباب العالى وجميع الجهات وهو يبعث بملخصاتها لتوضع على المكتبة السلطانية فيتلقى عنها الإرادات بتبليغ المابينجية أو من يأمره جلالة السلطان بالتبليغ من الذين فى الحضرة الشاهانية . والباشكاتب يبعث بالإرادات السنية بإمضائه فى أوراق صغيرة إلى الصدر الأعظم أو إلى من تخصهم من الوكلاء والوزراء .

واغوثاه لقد كانت ورقة من هذه الأوراق تنشر القانون الأساسى وتجمع مجلس المبعوثان وتدفع عن الدولة غوائل التداخل الأجنبى وترفع شأن العثمانيين . ولكن واحسرتاه يصدر اليوم عشرات منها فى النهار لتفتيش بيت زيد أو استنطاق عمرو أو إبعاد خالد أو سجن بكر وحين يستلم الصدر الأعظم أو غيره تلك الإرادات يكتب على ورقة مع المرسل بها ساعة الاستلام والدقيقة . ولدى الباشكاتب دفتر يكتب فيه المبلغ للإرادة صورتها ودقيقة صدورها ويمضى ما يكتبه بإمضائه .

وهذه عادة جديدة لم تكن من قبل ، أحدثها ارتكاب بعض المبلغين تبليغ إرادات لا أصل لها .

ومن كثرة ما يعترى الإرادات السنية من التغيير والتبديل اضطر الباشكاتب أن يرجئها ريثما ينقطع شكه فى النقض والإبرام . وهذا ناشئ من تحاسد الحاشية ومواراة بعضهم لبعض فما أبرمه منهم زيد ينقضه عمرو . وربما زال الخطأ وثبت الصواب عفواً من تخالفهم ونقضهم مساعي بعضهم لبعض . فإذا التمس أحدهم مثلاً نشاناً أو رتبة لمن لا يستحق وصدرت الإرادة من حاتم النياشين والرتب جاء الآخر فبين لجلالة السلطان غش صاحبه فتصدر الإرادة بإلغاء الإرادة الأولى . وإذا صدرت لمستحق جاء ذو الغرض فروّج بفتنة يخترعها مالا يريد حصوله فتقف إرادة السلطان على ما يريد وفى بعض الأحيان تخفى الإرادة بالكلية . وقد تمادى بعضهم فى الغش ورمى بشرف الدولة مبعداً إذ استحصل من جلالة السلطان على إرادات بنياشين الشفقة لنساء لا تسمح الآداب أن يمسسنها . ولما تبين الأمر اقتضت الأحوال استرداد تلك النياشين فردت إلى الدولة بعد ما دفعت خمسين جنيهًا إلى كل منهن استرضاء لهن .

وهنا نذكر حكاية وقعت قريبًا . أمر جلالة السلطان بالإحسان على حسن بك صيادى ابن الشيخ أبى الهدى (أحد الشيوخ المقربين) بالنشان الثالث المجيدى ثم تلا إرادة الإحسان إرادة الإرجاء فذهب الشاب إلى الباشكاتب وقال له لست ممن ترد إرادة نشانه وإنما ترد إرادة فلانة وفلانة يعنى النساء المذكورات . فلم يخرج من السراى إلا والنشان فى جيبه .

والباشكاتب ركن عظيم من أركان الجواسيس في السراى وهو يعرض فوق وظيفته الرسمية العليا أوراق الخفيات التى ترد عليه منهم . ولها النصيب الأوفر من عنايته واهتمامه فلا تلبث فى يده إلا ريثما يتناولها فيبعث بها إلى الحضرة الشاهانية فتذهب أسرع من منحدر سائل فيتلقى عنها الإرادة فى الحال سواء كانت إرادة استنطاق أو استيضاح أو التفات أو إحسان على من قدمها بخلاف الأوراق الرسمية أو أوراق ذوى الحاجات فإن لها طريقًا فى العرض لا يتغير وربما تأخرت شهوراً أو جاء عليها تيار الأوراق الأخرى فلا ينفع البحث عنها ولايجدى لو كان إليه سبيل .

والباشكاتب يبقى فى شغله إلى الليل فى السراى ويترك من يقوم عنه لقيد الإرادات الصادرة ليلاً . ويستأذن عليه ذوو الحاجات فيأذن لهم ويلاقيهم بالبشر ويردهم باللطف بخلاف ما نراه فى مصر وفى الولايات العثمانية من أصغر المأمورين من العبوس فى المقابلة والعنف فى الرد . أما كبار الموظفين منا ومن حكام الولايات فأولئك جذيمة الأبرش من حجابهم وإذا سلم عليك أحدهم فكأنما وهبك الحياة أو أحسن عليك بالأقاليم .

ويلبس الباشكاتب مع بعض الكتاب الملابس الرسمية لحضور صلاة الجمعة المسماة (بالسلاملك) فيقف مع الواقفين حتى يشرف جلالة السلطان بموكبه الحافل (*) .

(*) توجد فى المقال الأصلى بعد كلمات « بموكبه الحافل » الجمل الآتية : وعلى ذكر صلاة الجمعة نقول إن سبعة آلاف من العساكر يقفون حول الجامع الحميدى والصلاة قائمة وهم لا يصلون ولو صلى أحدهم لعاقبه القانون العسكرى ولو كان القرآن مفتوحا على يده . وتحت الجامع الحميدى فى بشكطاش يدور حسن باشا المحافظ فى الأزقة على الحوانيت فيسوق الناس بعصا فى يده إلى الجامع للصلاة ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾.

المقالة الرابعة

دائرة المابينجية فى الما بين(*)

يحار الكاتب إذا هم بوصف هؤلاء النفر وكان فى عزمه أن يصف حضرات المشايخ أساطين القصر السلطانى بعدهم فإنه لا يجد لهم فى الوصف إلاَّ ألفاظًا مكررة تضطره أن يقول أن الشيخ هو المابينجى وإن المابينجى هو الشيخ إلا أن الشيخ فى بعض الأمور يزيد .

ما سار رمى به الليل وحيداً فى غابة التفت أشجارها وتكاثفت ظلماؤها وتجاوبت رياحها وعزفت جنانها وزأرت أسودها وترامت على أقدامه أفاعيها وسودها لا يهتدى لطريق يسلكه ولا يجد موتًا وحيًا يهلكه بأخوف ممن يطأ هذه الدائرة لشرهم المطلق فى الناس وخيرهم المقيد لأنفسهم بوقوفهم على باب فيه النعم والنقم والعز والذل والحرية والاستعباد والشورى والاستبداد والسعادة والشقاء والحياة والفناء لدى خليفة عظيم وسلطان كبير

له لحظات فى حفافى سريره إذا كرَّها فيها عقاب ونائل

ولانتظارهم حيث يضعون كلمة السوء موضعها لمكانهم من وجه جلالة السلطان فى إصابة الغرض لوقته بخلاف من يروم قضاء حاجته بالكتابة والعرض ولو كان الصدر الأعظم أو شيخ الإسلام فإنه لا يعلم فى أى شأن يكون جلالة السلطان حين يقرأ معروضه . وهذا هو السبب القوى فى إخفاق الناس فى حاجاتهم ونجاح هؤلاء

(*) المقطم ١٩١٧ ، ١٥ يوليو ١٨٩٥ .

فى أغراضهم . وهم القابضون على الأزواج والأموال والأعراض فى ما بقى للدولة فى الآفاق من يلدز إلى العراق المتصرفون فيها بما أرادوا فلا يسكن لصدر خفقان إلاً إذا اتصل بسبب من خدمة لهم يخدمها وطاعة لأوامراهم يظهرها ومظلمة لاجلهم يحتملها وخيانة لمولاه فى هواهم يرتكبها لا يفوتهم علم بشىء مما يجنه الضمير الأعلى لذكائهم المفرط ولطول ممارستهم لخدمة الحضرة السنية فكل شىء مكشوف لهم . وهم ستة وسابعهم رئيسهم الحاج على بك وهم من ذوى الرتب العالية ويقدر العارفون ثروة أحدهم راغب بك بثمانمائة ألف جنيه وكان فقيراً لا يملك نقيراً أيام كانت يؤويه بيت منيف باشا قبل أن يوصله إلى الخدمة السلطانية . وهو يونانى الأصل وله وظيفة أخرى غير المابينجية وهى استنطاق المأمورين كما أن من وظائف الشيخ أبى الهدى استنطاق العلماء وهما يتعاوران ملاءة الفخر فى الوقوف على الأسرار السلطانية إلا أن الشيخ أبا الهدى ترفع عن كسب المال لطلب المجد المؤثل كما قال رصيفه امرؤ القيس :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة

كفانى ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل

وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وراغب بك قد سبق الجميع فى شهرة الاستنطاق على ثور « فالاريس »(١) كما أن الشيخ أبا الهدى وضع الجميع فى تنور ابن الزيات(٢) بمهارته وتدقيقه .

وكانت العادة القديمة أن المابينجية لا يذهبون إلى بيوتهم إلا نادراً أما الآن فهم يتناوبون فى الخدمة فيجلس من عليه النوبة على باب الحجرة المشرفة بالجلوس السلطانى للطلب فيبلغ الإرادات السنية كما ذكرنا آنفا. وللحاج على بك الباشمابينجى حجرة واسعة يجلس فيها وحده فيرد عليه الوافدون إلى السراى من جميع الأجناس فيصرفهم على ما تقتضيه مقاماتهم ومنازلهم بعد ما يبلغ عنهم

الحضرة السنية ويبلغهم عنها ما يقتضى تبليغه . وله أطوار متعددة ومظاهر متغيرة متجددة بين جاسوس متقنع وناسك متصنع وطامع متمنع وإذا خاطبته فى ما خرج عن أشغال السراى وجدته عامياً عريقًا فى العامية أميا وإن كان يخط بعض الحروف فهى لا تؤدى معنى وربما اجتمع على سطر يكتبه ثلاثة أو أربعة من الكتاب فلا يكشفون قصده إلا بالحدس والتخمين لكنه فى أشغال السراى ابن بجدتها وسادن سدتها . وله معمل صناعة كما كان لسلفه مطبعة عثمانية وطريقته كيلانية ولا ينفك يتكلم عن الطرق وتفضيل بعضها على بعض حتى أضاع على جلالة السلطان أوقاتًا غالية القيمة فى التنازع والتشاجر مع الشيخ أبى الهدى فى الطريقة الرفاعية والطريقة الكيلانية حتى أصبح بيت السلطنة ومرجع السياسة الأوروبية كاحدى التكايا المنشقة بالخلاف بين الفقراء .

وهو غرس يمين السيد أسعد وكيل الفراشة النبوية أوصله إلى جلالة السلطان بالمدح فيه والثناء عليه حتى صار ثاني مابينجى فى باشمابينجيّة عثمان بك ، وقد اتفق ذات يوم مع السيد أسعد على إسقاط عثمان بك فدخل السيد على جلالة السلطان فى اليوم الثانى من صدارة أحمد وفيق باشا مضطربًا يقول : يا أفندينا أن عثمان بك مع الصدر وبعض الوكلاء يكتبون ورقة فى السر فى حجرة عثمان بك بخلع جلالتك بناء على فتوى من عريانى زاده شيخ الإسلام . فأمر جلالة السلطان فى الحال بإحضار عثمان بك تحت حراب البنادق ولما حضر على هذه الصورة أمام جلالته أمر بتفتيشه لإ خراج الورقة ففتشوه فلم يجدوا معه شيئًا والسيد أسعد يقول له (چيقار) أى (أخرج) - كبخيل موليير الذى تهم خادمه باخفاء شئ سرقه وبعد أن أمعن فى تفتيشه ولم يجد معه شيئًا قال له أخرج ما معك - وقد ارتاب جلالة السلطان فى عثمان بك وإن لم يظهر عليه شيء وعزلت الوزارة بعد يوم وليلة من تأليفها . وسنأتى على ذكر هذه الفتوى وعلى تلفيقها فى موضعه .

المقالة الخامسة

دائرة الباش أغا أو قزلر أغاسى فى المابين(*)

يجب على كل مصرى ذى مروءة يتنعم على فراش الحرية الوثير أن يتوجع وهو فى سعة غنائه ودعة هنائه ومجتمع أمنه وأمانه ومبتسم دهره وزمانه على أخيه العثمانى المتململ على سيال البلوى وقتاد الضراء بين ظفر الظلم ونابه ، فيطلب من الله أن يخلص أخاه مما هو فيه ، وأن يخفف عنه ما أطال يومه وأطار نومه وأن يعيد على دولة آل عثمان رونقها الأسنى ، ويقيم لها منارها الأعلى ويبعد عنها قومًا يظهرون لحكامها ما لا يضمرون ، ويمدحونهم فى الملاء وفى نجواهم يقدحون . قد والله فدح الخطب واشتدت الأزمة وضاق الخناق وتقابلت حلقات الوثاق وتعدى على عرين الدولة ضباع من جيرانها وتحكم عليها قوم كانوا من عبدانها ، فهى تعاملهم لطفًا ويعاملونها عنفًا . ياحسرتاه على قوم وضعتهم بسالتهم وسيوفهم فى حدقة أوروبا فأصبحوا اليوم :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته	سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهم قومًا إذا ركبوا	شنوا الإغارة فرسانًا وركبانا

أين القادة الذين فتحوا الممالك بمفاتيح السيوف ووضعوا على أعدائهم أقفال الصغار والهوان ، وأين الساسة الذين ضبطوا تلك المماليك بحكمتهم ودهائهم.

(*) المقطم ١٩٢٧ ، ٢٦ يوليو ١٨٩٥ .

تقاسمهم الموت والنفى ، وخلف من بعدهم خلف أضاعوا ما أورثهم آباؤهم من الشهامة والبسالة ، فأصبح العسكرى الذى سلم روحه للدولة لتحفظها عندها لوقت الحاجة إليها فتصرفها فى غير ما يعلم سببه وموجبه يرى أن الموت الأحمر الذى ينتظره فى خدمتها والشظف الذى يقاسيه فى حبها والأخطار التى يعانيها فى ولائها لا تبلغ به فى نيل ما يسليه عن روحه المودوعة عند الدولة ما تبلغه قبلة فى رجل خصى من أنواع الترقى والشرف والسعادة والترف .

دخل زكى باشا ، الذى تقول الجرائد الأوروبية اليوم عنه أن المسألة الأرمنية من صنع يده ، على المرحوم بهرام آغا فى مجلس حافل بالوزراء والكبراء حين أرادت الدولة أن تبعثه قائداً على عساكرها فى طرابلس الغرب فوقف بين يدى الأغا وقال : يا مولاى إن الدولة عينت عبدكم قائداً على عساكرها فى طرابلس الغرب ولى أمنية ألتمس من عنايتكم تحقيقها لتكون لى حرزاً من ريب الدهر وهى تقبيل يدكم الشريفة . فقهقه الأغا وقال له : متى وصل قدركم أن يتعدى رجلى إلى يدى .

لا يظن عاقل أن هذه الكلمة فى هذا المحفل لهذا المشير من هذا الخصى يندمل جرحها فإنه يبعد على مثله من أصحاب السيف أن لا يحس بوخزها كلما رأى شيئًا أسود .

لو قام من القبر راشد باشا الصدر الأعظم وصاحباه عالى باشا وفؤاد باشا وسألوا رجلاً فى طريقهم عما جرى على الدولة بعدهم وقال لهم : قد انفصلت رومانيا واستقل الصرب وزال الجبل الأسود وذهب الروم ايلى الشرقى وانفصمت البلغار وضاعت قبرص وبانت تونس وانسلخت بوسنه وهرسك وانقطعت باطوم وخرجت قارص واردهان وانحلت تساليا ووقعت زيلع وطاحت مصوع وترك السودان وهذه مصر فى أيدى الانكليز - هذا قسم ضاع وانتهى فيه النزاع - وسورية ترصدها فرنسا وطرابلس الغرب ترمقها إيطاليا ومقدونية تشير إليها البلغار وقوصوه ترقبها السرب ويانيا وكريد ومنستر وساموس تكاد تخطفها اليونان وولايات أرمينية تطلب الاستقلال أو الإصلاح - وهذا القسم فى النزع - والبصرة وبغداد تشيع أهلهما بسعى حكومة إيران واليمن فى العصيان والمسلمون فى خوف على الحجاز ولم يبق إلا حلب وادرنه وأزمير وبورسه خالصة لجلالة السلطان . وسفن الدولة قد أكلها

الصدأ فى قرن الذهب بعناية حسن باشا وأسراره العميقة وسفن الإنكليز على شواطئ البلاد العثمانية والناس يشتكون من اغتصاب المأمورين لأراضيهم وإدخالها فى الأراضى السنية والجفالك السلطانية ولا ميزانية للمالية ولا نظام فى العدلية ولا شغل فى الباب العالى يحسن السكوت عليه وصار مجلس الوكلاء بعدكم تتلاكم فيه الوزراء والعساكر فى الولايات قد عجز القلم عن وصفهم ووصف أسمالهم وأطمارهم البالية وسلم القلم الأمر فى وصفهم إلى الفوتوغرافيا .

وأصبح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهّالهم سادوا

وقالوا له بعد أن اغرورقت عيونهم بالدمع هذه كفة الخسران فهل فى كفه الربح شيء يذكر . فإذا قال لهم بناء سبعين تكية وتصليح عشرين مسجداً وزيارة إمبراطور ألمانيا للأستانة وإحياء اسم الخلافة بعد أن كانت مهملة لا يتلقب بها سلاطين آل عثمان وزيادة الألقاب المقدسة ومضاعفة عدد النياشين لقالوا سلمنا بأن هذه محسنات لا تنكر ولكن لا يوزن الجندل بالخردل . ولعادوا مهرولين إلى قبورهم ينشدون :

يا ويلنا أفما لنا من صارخ إلاً بثغر ضاع أو دين عفا
فمدينة من بعد أخرى تستبى وطريقة فى إثر أخرى تعتفى
ها مصر قد أودت واودى أهلها إلا قليلاً والحجار على شفا

كيف يسمع هذه الحقائق مسلم ويبيت طاوى الكشح على سترها وسترها هو الذى جر إلى هذا الدمار . ولو كان مأمورو الدولة تركوا كاشفيها ومنتقديها على حالهم ما وصل الأمر إلى هذا ولكنهم وضعوا العيون والأرصاد على كل ذى لسان وقلم فجذبوه إليهم واحتالوا على إسكاته بالطرق الظاهرة والباطنة لكيلا تصل مساوئهم إلى الخليفة الذى يسأله الله والقرآن ومحمد وأمته عن حفظ بيضة الإسلام الذى يطلب من الخليفة أن يحفظها بنفسه لا أن يجعل الإسلام والمسلمين وقاية له كما يبغيه الخائنون بأعمالهم وأقوالهم .

إن الإنسان يساعد بنفسه المتملق على غشه . وأعجب العجب أن المنتقد يساعد على غش نفسه بنفسه لو وجد له مادحًا ومقرظًا على كلامه وينسيه حب ذاته إنه يثبت ما وقع فيه فينتشر على ديباجة وجهه طبقة من البشر . فما قولك في جاهل لا يسمو قائمًا أو قاعدًا أو راقدًا إلا الثناء عليه وعلى أعماله والتبجيل له ولجميع ما يصدر عنه فتنتفخ أوداجه كبرًا وجبروتًا ويرى غيره منه ما لا يرى . فمن ذلك أن امبراطور ألمانيا أرسل لجلالة السلطان نشان النسر الأسود مع برنس ألماني فأنزله جلالته ضيفًا في السراي وقيل لبهرام آغا أن اللائق أن تذهب لزيارته فقال كيف أزوره وأنا ألتس وهو ألتس (Altesse) فليضحك الضاحكون على صاحب المتنبي الذي قال فيه .

ويذكرني تخييط كعبك شقهُ ومشيك في ثوب من الزيت عاريا

إنما وصلنا إلى تهديد اليونان ودلال البلغار بهذا وأمثاله. ومما يذكر من نوادر الأغا أنه خرج إلى ظاهرالسراي في الوقت الذي وصل الروس فيه إلى سان استفانوس وهو الوقت الذي كان فيه الفزع الأكبر وجلالة السلطان مهتم لما يؤول إليه التخت العثماني الذي أودعه إياه أجداده وآباؤه العظام فدخل الأغا على جلالته وقال له لا يهتم مولانا الأعظم فقد خرجت إلى ظاهر السراي ونظرت يمينًا وشمالاً فوجدت جميع ما انتهى إليه بصري هو ملك جلالتك فلا تزعل فإنه يكفينا . تعس العبد كأنه يظن أن المقصود من الخلافة والسطنة هو ما يقوم بمعيشة جلالة السلطان ومعيشته .

أتريد أيها القارئ أن تعلم كيف ذهبت تونس من الدولة . أرادت الدولة أن تقبض على مدحت باشا وهو والٍ على أزمير فهرب إلى قنصل فرنسا فطلبته الدولة فتوقفت فرنسا في تسليمه .

وانتهت المسألة بين الدولتين بعد المخابرات على أن فرنسا تسلمه بالشمال وتستلم تونس باليمين وتم الأمر واشترت الدولة رجلاً واحدًا بمملكة . فما أغلى قيمة الرجال عندها . ولما قرب الفرنسيون من تونس صاح الباي وبعث بالرسائل والرسل

يستنجد الدولة فما أصغى إليه مصغ . ويعث مصطفى بن اسماعيل وزير تونس وهو الآن في الآستانة إلى المرحوم بهرام آغا عن لسان الصادق باي والي تونس بالاستنجاد والاستغاثة وبعث بالهدايا فقبل الآغا الهدايا ولم يجب بكلمة نافعة في المقصود .

فسد الأمر كله فاتركوا الإعراب أن الفصاحة اليوم لحن

بئست الأم أمنا هذه الدنيا وبئس البنون لـ لأمّ نحن

(*) وما زال بهرام له النظر الأعلى في طوالع النفوس والحكم المبرم عليها بالسعود والنحوس يحكم ولا معقب لحكمه ويأمر ولا راد لامره ويشمخ بأنفه على الفحول أصحاب السيف والعلَم والكتاب والقلم ويكبر على عترة الرسول وأولاد البتول فيمد رجلهُ في وجوهٍ كرَّمها الله لتقبيلها ولا يردعهُ رادع الإيمان ولا يزعهُ وازع القرآن أن يقف عند حده مع أهل بيت نزل الكتاب عليهم وفيهم . قال الله تعالى ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ وقال سبحانه ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ولا يخجل أن يفعل هذا المنكر في بيت الخليفة على مرأى من الأدنى والأعلى ومسمع من قوم يشك في صدقهم المسلم إذا ادعوا بعدها حب المصطفى صلى الله عليه وسلم واحترام آل بيته . وما زال يلعب لعب الوليد في عظائم الأمور ويعبث عبث الجاهل في شئون الجمهور ومصر من بينها في فصوص لعبه وكعوب ددهِ مع الشيوخ يأخذها مرة ويرميها أخرى فتكون له طوراً وطوراً تكون من نصيب ملاعبه حتَّى سقطت من بين أيديهم ومضى الآغا لسبيله وتركهم يفتشون عليها من بعدهِ . وهو المشير بأن لا ترسل الدولة إلى مصر الجنود الشاهانيَّة حين طلب الانجليز من الدولة إرسالها إليها بدعوى أن ذلك ربما استدعى تقليل العساكر الذين يحافظون على سراي يلدز ولم يعلم الآغا أن الدولة العثمانيَّة

---

* المقطم ١٩٣٣ ، ٢ أغسطس ١٨٩٥ .

لا ينقصها عسكر وجنود والذى حملهُ على هذا القول الذى لا يصدر عن طفل هو إظهار التفانى فى المحافظة على جلالة السلطان ليزيد به نفوذاً .

ولما مات تولى وظيفته شرف الدين آغا فأراد أن يقف فى موقفه ويمده يده فى الأمور إلى حيث مدها سلفه فزلت به قدمه بما حصل فى السراى من بعض الاضطرابات الداخلية التى انكشفت غياهبها عن عزله ونفيه إلى الحرم الشريف .

يستغيث القلم أن يكتب هذا الفصل وهو أن العادة جرت من زمن قريب أن المجرمين والقاتلين والمتهمين ينفون إلى الحرمين الشريفين فيبعث بهم ثُباً ثُباً وفرادى فرادى مغضوباً عليهم من بيت السلطان إلى بيت الرحمن .

ولم يبال المشيرون على جلالة السلطان بهذا انهم يأتون أمراً يكرهه الله والنبى والمسلمون وأنهم يبعثون بقوم لا يخلو الحال أن يكون فيهم مظلوم إلى بقعة هى أقرب البقاع إلى إجابة الدعاء . قال الله تعالى ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أيعطف المنفيون على هؤلاء ؟ رحماك اللهم أن جعل هذا البقاع الطاهرة المباركة مكاناً للنفى على المغضوب عليهم مماً لا يطاق حمله .

ثم تولى هذه الوظيفة بعد شرف الدين أغا ياور أغا الموجود الآن وهو يجاوز التسعين من العمر وليس له تداخل فى الأمور السياسية وإنما يميل بطبعه إلى الطرب والمضحكات فيأتى إلى حجرته من يتقرب إليه بإضحاكه من موظفى المابين وخدمه فيرى فيهم أحيانا راغب بك المشهور بالثروة والغنى يتزلف إليه بالسخرية ولم يبق له من الإدراك ما يطمع به أن يتداخل فى تدبير الشئون وهو يتخوف على نفسه من الدسائس أن تلحقه بالحرم النبوى فهو يستغيث لكل من دخل عنده وأراد توسطه فى شيء بانه على أهبة السفر إذا وشى واشٍ به ولا يطمع فى شيء من مال الدولة عند الرحيل خلاف ما على جسده من اللباس وما فى أصبعه من الخواتيم وما فى يده من السبح التى يقدرها المقدرون بثلاثين ألف ليرة .

ومن جماعة الخصيان طائفة المصاحبين وهم كالمابينجية يبلغون الإرادات السنية ولفظة مصاحب تماثل لفظة قرناء التى يطلقونها على المابينجى وفى اللغة التركية

يستعملون أحيانًا الجمع العربى للمفرد فإذا أرادوا جمعه أضافوا عليه علامة الجمع التركية وفى الما بين السلطانى يعادل المابينجى المصاحب فى جنس الخدمة ويختلفان فى بابها وقد يعطى لقب مصاحب لغير الخصيان كما أعطى إلى لطفى أغا التتنجى الثانى للحضرة السلطانية . وكان خادمًا لمحمود نديم باشا تربى فى حجره وشرب من شرعة خبثه ومكره وللمصاحبين رئيس هو باش مصاحب واسمه جوهر أغا والمصاحب الثانى هو مظفر أغا والثالث عبد الغنى أغا وهلم جرا ولكل خصى من هؤلاء الخصيان طريقة من الطرق كالشاذلية والرفاعية والقادرية وينقادون لمشايخها أكثر من انقيادهم لأئمة المذاهب .

أما جوهر أغا باش مصاحب فوظيفته أهم وظيفة فى السراى وهى مراقبة سراى چراغان .

هنا يقف القلم برهة ليجد منفذاً يدخل منه هذه السراى التى هى إحدى المعميات التى لا يكشف معماها حدس ولا تخمين لا يبلغ مكنونها فكر وليس فى وسعنا إلا أن نذكر اختلاف أقوال الناس من العثمانيين والأجانب فيها . فطائفة من الأوروبيين ينكرون وجود السلطان مراد فيها ويقولون أنه قد قضى نحبه بعد خلعه بزمن قليل ويعتبرون ما يجرى من شديد المراقبة وإمعان التحرز والمحافظة على السراى ايهاماً بوجوده . وطائفة من العثمانيين يعتقدون وجوده فيها وربما نقل صديق منهم لصديقه بعض الأشياء عنه كقولهم أن السلطان المخلوع كثير الإطراق من الفكر على حال السلطنة دائم القبض على لحيته حتى خف شعرها . وطائفة من العثمانيين والأجانب واقفون موقف الشك والحيرة يترددون فى الأمر فيستبعدون تارة أن يعيش مريض بالجنون عشرين سنة فيميلون بعض الميل إلى التصديق بوفاته وينسبون كتمانها إلى التفادى من اشتغال الناس بأعضاء الإرث العثمانى ويجنحون تارة إلى القول بوجوده فى صحة تامة . وقصارى الأمر أن الحقيقة مجهولة للناس ووظيفة الباش مصاحب المشهورة هى المراقبة الدقيقة على جميع ما يصدر عن السلطان مراد من الأقوال والأفعال والحركات فلا يغادر الأغا كبيرة ولا صغيرة إلاَّ أحصاها بعيونه وأرصاده من الخدم والحرم فى تقرير يقدمه صباح كل يوم لجلالة السلطان .

أما وظيفة حسن باشا محافظ بشكطاش فهى المراقبة على السراى من الخارج وعلى من بها من العساكر والضباط والخدام . وسراى چراغان هذه من أكبر سرايات السطنة وهى على البوسفور بين اسكلة بشكطاش واسكلة اورته كوى وعلى الجادة . وقد أفرط المفرطون فى المراقبة والمحافظة عليها بحيث أن وابورات الشركة الخيرية التى تمر فى البوغاز إذا حاذتها رسمت فى سيرها قوساً على السراى للبعد عنها ولو كان فى هذا خطر عليها باشتداد الريح واضطراب البحر . وقد يبلغ التملق والنفاق ببعض ركابها أن يحولوا نظرهم إلى الشاطئ الثانى إذا مروا عليها . وكذلك الصنادل والسفن إذا قربت منها تخط ذلك القوس تباعداً عنها وإذا قسرها البحر إلى القرب قليلا منها صاح العساكر على من فيها أن يبعدوا فإن لم يفعلوا بعد التنبيه الثانى هددوهم بإطلاق الرصاص عليهم فهى محمية من جهات البحر بشوك الحراب ونار البنادق أما من جهة البر فلا يمكن لعابر الطريق أن يصعد نظره إلى نوافذها أو يقف أمام جدرانها وأبوابها فإن فعل هذا أحد أخذه المراقبون أخذ الجبارين إلى مالك التصرف وهو الحاج حسن باشا الفريق محافظ بشكطاش حامل النشان العثمانى المرصع فيستنزف تامور قلبه بالاستنطاق وهذا ديدنه وهذا دأبه ليلاً ونهاراً .

ومن عجيب ما يتناقله الناس فى خلواتهم ان إحدى المركبات وقفت عن السير أمام السراى لتعب مسَّ خيولها أو حرن أدركها فضبطت الواقعة ودام التحقيق مع سائقها وراكبيها أياماً حسوماً عرف المحققون فيها وظائف راكبيها ومساكنهم وجيرانهم وأقاربهم حتى إذا لم يبق ظل شبهة لديهم أطلقوهم بعد الكشف عن الخيل بطبيب بيطرى . وهذه الأشياء التى يتعجب منها الناس ويستبعدون وقوعها ولا يكادون يصدقونها هى أهم ما يشتغل به الخاصة المقربون الذين يسمون أنفسهم (بنده كان أو فداكار) وبنده كان هذه كلمة فارسية معناها عبيد ولكنها اختصت بمن تشرف بالمحسوبية لذات السلطان . وفداكار من يفدى السلطان بروحه وهاتان الكلمتان مفتاحان يفتح بهما المتملقون كنوز مصالحهم وسران عظيمان يبيحان لحاملهما أن يفعل ما يشاء غير آثم ولا مذنب لأنه وهب روحه لحب ذات السلطان .

قد خرجنا من سراى چراغان كما دخلنا لا نعلم شيئًا وهذه القصة تشبه ببعض وجوهها حكاية ذى القناع الحديدى الذى كان محبوسًا عند لويس الرابع عشر ملك فرنسا وبقى أمره فى ظلمات الخفاء لا يعلمه أحد لليوم وكل ما يقال عنه حدس وتخمين لا يغنيان من الحق شيئًا . وهذا آخر ما نقوله فى دائرة الباش أغا .

المقالة السادسة

دائرة الياوران فى المابين(*)

هذه الدائرة تحتوى على فحول القواد وقُرُوم الأبطال ورجال الحروب وفيها منهم :

أبطال مملكة أسود خلافةٍ ظل الهدى غابٌ لهم وعرينُ

إلاّ أن التجارة الرائجة فى السراى استنأت بهمم بعضهم وشجاعتهم فكسروا جفونهم للمطامع وناموا عن شأن الإسلام الذى قام عزهُ على سيوف آبائهم وأجدادهم . وأصبحوا يتلون وصايا الانكماش والانقباض بعد أن كانت تتلى وصايا المعالى بين أظهرهم وصاروا يتحينون فرص العطاءِ كأنهم من الشعراء .

وهم ثلاثة أقسام : ياور ، وياور أكرم ، وياور فخرى ، وسرياور (أى رئيس الياوران) ، وهو محمد باشا صاحب رتبة الفريق وصهر جلالة السلطان . فالياوران الأكارم ينيفون على عشرين كلهم من أعاظم المشيرين . والياوران مائة وعشرون ، والياوران الفخريون فوق مائة وثلاثين ورتبهم مختلفة من رتبة الملازم إلى رتبة المشير ، ولم يجتمع على باب سلطان من السلاطين ولا ملك من الملوك المتقدمين والمتأخرين ما اجتمع اليوم منهم على الباب الرفيع والسدة السنيَّة . كما أنهُ لم يبلغ بعظمة دولة وقوة سلطنة وجلال إمبراطوريَّة وسعة مملكة فى عهدنا أن يكون فى قوادها عشرة من

(*) المقطم ١٩٣٩ ، ٩ أغسطس ١٨٩٥

المشيرين وللدولة العثمانيّة المجد الأثيل بأن لها فى قوادها ستين مشيراً . والمشير هنا هو المارشال مثل مولتك فى ألمانيا ، ومكماهون فى فرنسا ، وولسلى فى إنكلترا .

قلنا : إن عدد المشيرين حول السدة السلطانيّة ستون مشيراً ، أما الدولة البريطانيّة فليس فى وسعها ولا فى سعتها إلاّ تعيين ستة مشيرين أحدهم ولى عهد الملكة والآخر عمها ، والأربعة الباقون اشتهروا فى حروبها كاللورد ولسلى فى مصر ، واللورد روبرتس فى الهند ، والدولة الفرنسويّة كان عندها أربعة مشيرين أيام حربها مع ألمانيا ولم يخلفهم أحد بعد وفاتهم ويضرب الأوربيون المثل فى بطر بونابرت الفاتح الكبير مع أن مشيريه لم يبلغوا العشرين ، ولكن أين هم منا وعدد مشيرينا لا يقل عن الستين . والدولة الروسيّة ليس فيها اليوم إلاّ مشير واحد هو جوركو الشهير والإمبراطوريّة ألمانيا لم يبقَ بها مشير بعد مولتك ومونتفل . وإيطاليا لا مشير لها . وأسبانيا فيها مشير واحد هو كمبوس الذى أيد ملك العائلة الحاضرة وقهر أحزاب الدون كارلوس .

أما المشير بمعنى ذى الشورى فقد تعالت عنهُ الدولة العليّة علوًا كبيرًا .

ولم يسمع أن الياور الذى وضع عند الأوربيين ليعاون القائد فى ساحة القتال يكون فى رتبة المارشال . ولكن للدولة الأمر المطلق فتهب ما تشاءُ من الألقاب لمن تشاءُ من الرجال .

ورتبة الياور الأكرم فى المابين فوق كل المراتب قدراً . وكان جواد باشا الصدر الأعظم السابق يوقع على أوامر الدولة متأسفًا هكذا « صدر أعظم وياور أكرم » ، ولى ما لم لهُ لقدَّم للثانى على الأول لأنهُ يرى أن فى الياور الأكرم معنى الخدمة الخصوصيَّة لذات جلالة السلطان ، فهو يفضلها على الوكالة العامة المطلقة عن الخلافة والسلطنة . ومن هذا وغيره يظهر أن هؤلاء الأفاضل اعتبروا أن السلطنة والدولة والخلافة والأمة والإسلام والمسلمين أشياءً خلفها البارى عزَّ وجلَّ لخدمة الذات السلطانيَّة لا أن جلالة السلطان الذى رفعهُ اللّـه إلى مقام الخلافة هو المسئول المكلّف أن يحفظها بنفسه . ونحن ننزه إيمان جلالة السلطان أن يصغى إلى زخرفهم ، فإن الأمر فى القيام بشأن الخلافة عند اللّـه عظيم .

ومن الياوران الأكارم الغازى عثمان باشا أسد بليفنا ونعامة يلدز وهو مشير المابين ولهُ المراقبة والسيطرة على العساكر المحافظين على القصر السلطانى داخلاً وخارجًا حتى لا يقع بين أفرادهم شغب أو إهمال فى الخدمة فلا يكاد يغيب عن السراى ، فإن دعت الضرورة أن يفارقها بعض الدقائق أرسلوا إليه فى الحال فيحضر سريعًا ، ويباشر المباشرة المستمرَّة الَّتى لا يؤْمن عليها غيرهُ ، وقد كان جلالة السلطان أَمَر مرَّة بتعيينه سر عسكر ، فلم يبقَ إلاَّ أيامًا قلائل فى هذه الوظيفة ، ثم رأى جلالة السلطان أن لا غناء عنهُ فى السراى ، وقد قيل للمرحوم توفيق باشا الخديو السابق : أن يبعث لهُ بتهنئة ، فقال المغفور لهُ : أخشى أن يُعزل قبل أن تصل التهنئة وهكذا صار ولهذا بلغ شرفهُ فى السلطنة ما لم يبلغهُ أحد ، فإن جلالة السلطان زوَّج بنتيه منْ ابنيه . ولهُ دائرة خاصة فى المابين من أعظم دوائره ، ويزار فيها ويقصدهُ القاصدون ذوو الحاجات من العساكر وغيرهم فيقضى من حوائجهم . ولهذا فالعسكرى فى المابين بما يقدم لهُ من أنواع الإكرام والاعتناءُ بشئونه فيما زاد عن الحوائج الضرورية فوق الضابط فى الخارج الذى يقف حيران عاجزًا وسط احتياجات حياته . وكل من فى المابين يحترم هذا الغازى لوقاره وسنه وحُسن بلائه فى خدمة الدولة وبينهُ وبين السيد أبى الهدى ما يكون بين المتناظرين من المجافاة والمعاداة . فمن ذلك أن جلالة السلطان شكا يومًا إلى الغازى فتورًا يجدهُ فى جسمه الشريف ، فقال لهُ : لو استراح جلالة ولىّ النعم عن الاشتغال ثلاثة أيام أو أربعة لزال ذلك الفتور الذى يجدهُ مولانا . فمال جلالتهُ إلى رأيه وشكرهُ عليه . ثم حكى جلالة السلطان للسيد أبى الهدى عن فتوره وعما قالهُ الغازى عثمان باشا لهُ ، فقال السيد : سبحان اللّه ، إن هذا يخالف الصداقة الَّتى كنت أعلمها من عثمان باشا لجلالتكم ، فإن تأْخير جلالتكم عن مباشرة الأشغال يومًا واحدًا موجب للقيل والقال والقلق والاضطراب ، وكيف خفى هذا على عثمان باشا . فتكدر جلالة السلطان وبعث الحاج على بك الباشمبنجى إلى الغازى يعتب عليه فيما أشار به على جلالته ، وكثيرًا ما يمرُّ الغازى عثمان باشا والسيد أبو الهدى جالس ، فإذا حاذاهُ مدَّ السيد رجلهُ تهاونًا به بما لهُ منْ عظيم المنزلة لدى جلالة السلطان .

ومنهم الغازى مختار باشا وهو من أعظم القواد فضيلة وأعزهم نفسًا وأجلهم قدرًا ، وهو وكيل الرئاسة السنيَّة على مجلس التفتيش العسكرى فى السراى

السلطانيَّة . وننقل هنا حكاية وقعت تدل علي غيرة نفسه وشرف أخلاقه ومحافظته على الاسم العسكرى وذلك أن جلالة امبراطور ألمانيا بعث إلى جلالة السلطان نشان النسر الأسود مع برنس ألمانى من ذوى الوجاهة والشأن إجلالاً للمقام السلطانى ، ولما حضر البرنس احتفل جلالة السلطان به احتفالاً عظيماً ، وبعد الوليمة السلطانيَّة الّتى أُعدت لهُ أمر جلالتهُ أن كبراءَ السلطنة يتناوبون فى دعوته لوليمة يدعوهُ إليها كل واحد منهم .

وأمر جلالتهُ عثمان بك كيلارجى باشى أن يذهب إلى كل من جاءَت عليه النوبة فيسألهُ عما ينقصهُ من لوازم الوليمة فيتممهُ لهُ من السراى السلطانيَّة ، فكان بعضهم يرفع الستائر والكراسى من بيته إلى جهة أخرى ليفرش بيتهُ فى كرامة الوليمة ؛ ولما جاء عثمان بك إلى الغازى مختار باشا وسألهُ عما ينقصهُ ليكملهُ لهُ ، قال لهُ : إنى بنعمة ولىّ النعم مولانا السلطان لا ينقضى شىءٌ . ولما سافر البرنس ورد مكتوب منْ جلالة إمبراطور ألمانيا لجلالة السلطان يثنى على الغازى مختار باشا ويمدحهُ بناءً على ما سمعهُ من البرنس من أوصافه الكاملة وأخلاقه الكريمة وسعة اطلاعه وعلمه بالفنون العسكريَّة وغيرها ويهنئُ السلطنة بقائد مثله ، فأمر جلالة السلطان باستدعاء الغازى إلى السراى ، ولما حضر بعث جلالتهُ إليه من يبلغه الرضا العالى وحُسن التوجهات السلطانيَّة وأرسل لهُ من طعامه الخاص احتفاءً به ووعد أن يقابلهُ فى الصباح وفى الليل أعطى خمسة آلاف جنيه إلى عثمان بك وكان المابينجى الثانى ليوصلها إلى الغازى إحساناً من لدن مكارمه ، وكان فى نفس عثمان بك بعض الحزازات من الغازى فجاءَ إليه يقول بصوت عال : قد جئت لك بإحسان لم ترَهُ فى عمرك ولم يرهُ أبوك فى عمره ، وقدم ورقة المبلغ ، فقال لهُ مختار باشا : إن قبول الإحسان من جلالة مولانا السلطان قلَّ أو كثر من أجلّ ما يتشرف به الإنسان ولكنى لا أقبل عطيَّة غلافها كلامك هذا . ولم يأخذ الورقة ونزل من السراى ليلاً إل بيته وكتب مكتوباً إلى المرحوم رشيد بك الكاتب الخاص لجلالة السلطان يذكر لهُ الحكاية وما سمعهُ من الكلام الذى لا ينبغى أن يقترن بعطيَّة سلطانيَّة . وفى الصباح أمر جلالة السلطان بحضور الغازى إلى سدته فأخبرهُ عثمان بما شاءَ فغضب جلالة السلطان ، ثم دخل رشيد بك فعرض مكتوب الغازى فأحضر جلالة السلطان عثمان بك وكدرهُ تكديراً كثيراً وأمر أن يبعث فى الحال إلى الغازى بمركبة من السراى ليحضر فيها . ولما مثل بين يدى جلالته

أعطاهُ العطيَّة بيدهِ الشريفة ولاطفهُ غاية الملاطفة ورجع الغازى شاكرًا للإحسانات المتتابعة عليهِ فى آن واحد .

ومنهم نصرت باشا وهو رجل شهم القلب مقدام إلاَّ أن جسارتهُ طوحت بهِ إلى النفى فى بغداد وهو فيه للآن ولهُ دلال على جلاَلة السلطان وكلمات بهلوليَّة فأرسلهُ السلطان إلى شاه العجم بنشان وعند رجوعهِ إلى الحدود العثمانيَّة فاجأهُ التلغراف بأن يذهب إلى بغداد فذهب إليها وقد كان فى الحضرة السلطانيَّة مرة ، ولما أُمر بالجلوس سحب الكرسى من تحتهِ سجاده جى باشى فوقع فأوجب ذلك ضحكًا عليه ، ولما خرج دعا إلى حجرتهِ سجاده جى باشى وأغلق الباب وضربهُ ضربًا مبرحًا وقال لهُ : إياك والمزاح مع عسكرى مثلى . ولهُ أشياءُ فوق ذلك لم تتحملها عظمة التخت .

(*) ومنهم درويش باشا وابنهُ صهر جلالة السلطان وهو الذى بعثتهُ السلطنة إلى مصر مع السيد أحمد أسعد فى حكومة المغفور لهُ الخديو السابق لإخماد الفتنة العرابيَّة . والسيد أسعد هذا هو الذى بعثهُ جلالة السلطان إلى سفير الإنكليز فى الأستانة ليخابرهُ فى مسألة سياسيَّة فتخلص من الدخول فيما لا يحسنهُ بالتمارض واسترسال السعال . ولما قدم درويش باشا إلى مصر مع صاحبه ، أكرم المغفور له الخديو السابق ، مثواهما وأحسن نزلهما وبوأهما من مكارمهِ أعلى منزلة ، وظن أنهما يستأصلان الفتنة بشهامة أحدهما وحكمة الآخر فقفلا عن مصر بحسن حظهما غانمين سالمين وتركا مصر لسوءِ حظها أشد ارتباكًا وأعظم اضطرابًا ووضعا ذنب إخفاقهما على كواهل المصريين وطفقا يذمان مصر وتثنى عليها الحقائب . ولو كان لمصر من حسن الاتفاق طالع سعيد لجاءَ غيرهما وأخمدا الفتنة فى بدءِ اشتعالها ، ولكن ما الحيلة وهؤلاء رجال السلطنة والسلطان وحدهُ لا يقدر على كل شيءٍ . والياور الأكرم المشار إليه أرنؤودى من ذوى البيوتات العظيمة فى بلاد الأرنؤود . والسلطنة ترى فيهِ عونًا سديدًا وركنًا شديدًا على ضبط البلاد الأرنؤوديَّة وهو يرى بهذا أن بلادهُ صارت لهُ ملكًا يتصرف فيهِ تصرف المالكين . والمساكين سكان البلاد زادوا به طبقة ضاغطة فوق الطبقات الضاغطة فوق هواديهم وطوقًا على أطواقهم الَّتى فى أعناقهم .

(*) المقطم ١٩٤٣ ، ١٤ أغسطس ١٨٩٥

ومن الياوران الأكارم إسماعيل باشا الكردى الرئيس الثانى لمجلس التفتيش العسكرى ومنزلتهُ فى بلاد الأكراد منزلة درويش باشا فى بلاد الأرنؤود ولهذا لهُ المقام الاسمى فى السراى ، ولهُ به النفوذ الأقوى الذى تنطوى تحتهُ الفوائد الجمة من البلاد الكرديَّة ، وقد اتخذهُ جلالة السلطان صهراً . وعلى هذا كلما زاد القبول فى السراى زاد النفوذ فى البلاد ، وكلما زاد النفوذ فى البلاد زاد القبول في السراى إلى ما شاءَ اللّه من درجات السعادة لصاحبهما وإلى ما أراد سبحانهُ من درجات الشقاء للعباد والبلاد .

ومنهم شاكر باشا وكان سفيراً للدولة فى الروسيا ، وقد ترشح اسمهُ لمسند الصدارة مراراً لتقلبه فى السياسات العالية ، ولما هو مشهور عنهُ من سداد الرأى ، وقد جعلهُ جلالة السلطان سفيراً بينهُ وبين سفراء الدول فى الأستانة للمخابرات السياسيَّة ، ثم اختارهُ فى هذه الأيام مراقباً على الولايات الأرمنيَّة ، لأن لسفراء الدول به ثقة . ولما أرسل إلى كريد لتسكين ما كان فيها من الاضطرابات كان جواد باشا الياور الأكرم والصدر السابق فى معيته ، ثم عاد شاكر باشا إلى الأستانة وبقى جواد باشا وكيل الولاية فيها وأُحسن عليه برتبة المشيريَّة ، ثم عين صدراً أعظم واستقدم إلى الأستانة فسار شاكر باشا بأمر جلالة السلطان إلى الباخرة لاستقبال من كان فى معيته حتى يعلم أن الرفعة والضعة بيد السلطان وأن جلالتهُ يرفع من يرفعهُ ، ويضع من يضعهُ على ما تقتضيه حكمتهُ ، فأدى واجب تلك الطاعة على أحسن ما يصدر عن عبدٍ لمولاهُ وحمل هو والشيوخ من القواد أمثاله على رؤوسهم رئاسة الصدر جواد باشا الذى صعد إلى أعلى وظيفة فى الدولة وهو فى عنفوان الشباب ومقتبل العمر بقوة التقارير الَّتى كان يقدمها والأخبار الَّتى كان يرفعها وأخذ يرفرف على رؤوسهم فى جوّ الإقبال بتلك التقارير ويتقدمهم بها فى درجات الأبهة حتَّى جاءَ المفتش وأنزلهُ من الدرجة الَّتى كان دخلها بغير حق إلى الدرجة الَّتى يستحقها بتذكرته(١) ، ولا أظن أن

---

(١) ألَّف بعض الإنكليز رسالةً فى سيرة عشرين رجلاً ارتقوا على غير استحقاق ، فلم يلبثوا أن هبطوا بعد الارتقاء فشبههم فى ارتقائهم وهبوطهم برجال يركبون مركبات أعلى مما يحق لهم ركوبهُ فى القطار حتى يأتى المفتش ويرى تذاكرهم فينزلهم من مركبات الدرجة العليا إلى مركبات الدرجة الَّتى تستحقها تذاكرهم . فجرى هذا التشبيه عند الكتاب مجرى الأمثال السائرة .

أحداً من هؤلاء القواد الذين يبيتون على الحشايا الوثيرة . وفوق الأسرة المذهبة مستريح القلب إذا مرَّ على فكره تاريخ حياته وما لاقاهُ في الحروب وما قاساهُ من الخطوب وقابلهُ بتقدم من طار بأجنحة التقارير حَتَّى حط على رأسه إلاَّ أن ثلاثة منهم وهم شاكر باشا هذا ، وفؤاد باشا المصرى ، ودرويش باشا ، لما أخذهم المقيم المقعد من تيهه وكبره قدموا عريضة إلى جلالة السلطان يلتمسون فيها إحالتهم على المعاش ، فغضب جلالتهُ من إقدامهم وعتب عليهم ثم استرضاهم بحكمته وسياسته .

ومن الياوران الأكارم أيضاً فؤاد باشا المصرى وبه تفتخر مصر لعزة نفسه وثبات جاشه وقوة فؤاده وصداقته لجلالة السلطان إلاَّ أن فضائلهُ رمت به في مشاكل لا يسلم الواقع فيها في كل وقت وضيقت عليه حلقات الاستنطاق في أمور رمتهُ فيها سذاجة الصادق الأمين ومع هذا فإنهُ لا يخرج منها لحسن نيته إلاَّ بالعطايا الطائلة . بعثهُ جلالة السلطان إلى امبراطور النمسا بنيشان فاشترى من فينا سلاحًا أعجبهُ ليقدمهُ إلى الحضرة السلطانيَّة ، فأبلغوا جلالتهُ قبل تقديمه إلى سدته أن فؤاد باشا اشترى سلاحًا وميرة لقصد سيئ فأُخذ عند قدومه إلى الاستنطاق وفي هذه الأثناء نزل جلالة السلطان من يلديز إلى بشكطاش لصلاة الجمعة – قبل أن يحرم المسجد الحميدى مساجد الأستانة وأهلها من التمتع بركابه ورؤيته الَّتى بها انتعاش القلوب – وكان هو وراء الجواد الذى يركبهُ جلالة السلطان وبهرام آغا بجانبه والوزراءُ والمشيرون مشاة ، ولما ملأ بهرام آغا عينهُ من هذه العظمة الملوكيَّة وضع يدهُ على كفل الجواد وقال : بسم اللّه ما شاءَ اللّه . فجفل الجواد وضرب برجله فأصابت يد المشير فؤاد باشا ، وكادت تضرُّ بها ضرراً عظيماً فتقوَّل الذين يتحينون فرص التملق أقوالاً استوجبت استنطاق فؤاد باشا وبهرام آغا عند رجوع جلالة السلطان إلى السراى فخلص الآغا بكلمات قالها وقويت الشبهة على فؤاد باشا لمسألة السلاح الذى كان الاستنطاق جارياً عليه فيها ، فأقام في السراى ثلاثة أيام لا يأكل طعاماً حَتَّى كاد يأتى على نفسه . ولما سمع سعيد باشا الصدر الأعظم بهذا وكان حينئذ باشكاتب الحضرة السلطانيَّة عرض الأمر على جلالة السلطان فصدرت الإرادة السنيَّة بالعفو عنهُ ، هذه عيشة السراى الَّتى يتحاسد عليه المتحاسدون ويتنافس فيها المتنافسون . وقد اتهمهُ أعداؤُهُ بأكبر من هذا حَتَّى رمى بشرائط الكسوة العسكريَّة الَّتى كانت عليه أمام الحضرة السلطانيَّة لما بلغت

الروح التراقى من كيد الذين يستنفرون من ذى فضيلة بينهم ، ثم أحسن عليهِ جلالة السلطان بمعدن باعهُ بثمانين ألف ليرة . وفى العام الماضى أعيدت عليهِ الكرة فى فتنة أخرى . زعموا أنهُ أحضر من أوربا بعض مواد التهابيَّة كالديناميت وغيره فصدرت الإرادة بتفتيش بيتهِ فلم يجدوا إلاَّ ألعابًا ناريةً أحضرها لزينة يوم الجلوس السلطانى .

هـذا حال الأمين إذا وُجد بين الخائنين وهذا فعل الخائنين فى إضاعة الأوقات (الضروريَّة لإصلاح حال الدولة) على جلالة السلطان مع علمهم أنهُ قائم وحدهُ بإدارة الشئون كبيرها وصغيرها وأن أوقاته كلها لا تكفى لذلك . ما تداخلت الدول فى أمورنا من شىء قليل .

قد ذكرنا من ينبغى أن يذكر من الياوران على حدته ، أما الباقون فأكثرهم لا يذكرون إلاَّ فى المقالة التالية مقالة الجواسيس المعروفين بالخفيات .

* * *

المقالة السابعة

الجواسيس(*)

يهجر الإنسان لذَّاته ويرفض راحة حياته لطلب العلم ويضرب فى الأرض ويجمع من قوته لنوال الإثراء وينازل الأبطال ، ويُصارع الأهوال لبلوغ العلياء حتَّى إذا مضى العمر إلاَّ الأقلّ ، قيل لهُ : طالب علم أو غنى أو عظيم القدر . أما إنسان الأستانة فلهُ طريق إلى العلياء مختصر ينال الأثراءَ والعلياءَ وشهرة العلم فى يوم واحد وليس عليه فى الوصول إلى مطلبه إلاَّ أن يكتب تقريراً ملفقًا يتهم فيه الأبرياءَ الأمناءَ والصادقين الغافلين فتنثال عليه الدنانير ويطلع فى صدره قمر الوسام بازغًا وتخاطبهُ الدولة بالفضيلة والسعادة . ولا يلبث أهل بلد يرون فى هذا مورد ثروتهم وجاههم أن يزدحموا عليه وينسلوا من كل حدب إليه ، فإذا انتشر وباؤهُ فيهم أمات الفضائل وأحيا الرذائل وأضحك الأعداءَ وأبكى الأولياءَ وأفقر الصادقين وأغنى المنافقين وألقى العداوة والبغضاءَ بين الراعى ورعيته فانحاز الراعى إلى الاعتصام منهم والبعد عنهم وترك الرعيَّة فى البكاء من عمله ، فلا يستريح ولا يستريحون . وإذا أوجس الوالد خيفة من أولاده فالحياة مُرَّة والعاقبة أدهى وأمرّ . ولهذا أحرق دهاة الملوك أوراق السعايات والوشايات الواصلة إليهم قبل الاطلاع عليها فسلوا بحكمتهم وقوة نفوسهم الأضغان والأحقاد من القلوب وملؤوها بمحبتهم وبالأذعان لهم بعلو الهمم وسموّ المدارك وعاشوا بهذا مع رعاياهم تحت ظل الأمن والأمان والمحبة والإحسان ، وتفادوا به أرق الليل وقلق النهار . ومما يذكر من هذا القبيل أن محمد على باشا أرسل إلى الأستانة مملوكًا من مماليكه اسمهُ عبد اللطيف بمأموريَّة فاستهواهُ رجال الدولة كما هى عادتهم فى

(*) المقطم ١٩٤٧ ، ١٩ أغسطس ١٨٩٥

استجلاب من تقع أيديهم عليه من الحاشية المصريَّة واتفقوا مع عبد اللطيف هذا بعد الإحسان عليه برتبة سامية أنهُ عند رجوعه إلى مصر يجتهد فى تشكيل جمعيَّة تقاوم مُحمَّد على ، فلما جاءَ عبد اللطيف باشا إلى مصر فعل ما أمروهُ به ، فبلغ محمد بك لازاوغلى تشكيل تلك الجمعيَّة ، فاستحضر عبد اللطيف باشا المذكور وأمر بقتله ، فقال الرجل : أُريد أن أقول لك كلمات فى أذنك قبل قتلى ، فأبى وأمر بالإسراع فى قتله ، فاعترض عليه أحد أصحابه فى امتناعه عن سماع ما كان يريد أن يسرهُ لهُ ، فقال محمد بك : خشيت أن يرتاب من كان متفقًا معهُ فيقع الفشل بين الناس وأنا مكلّف براحتهم . أما إذا أكرم الملك على الوشاية وأحسن على السعاية وقدّم على الإفك وأخر على الصدق ، وتبسم فى وجه الدنىء وقطب فى وجه الشريف فلا تلبث القلوب أن تفسد والخطوب أن تتفاقم . والقلوب إذا ملأها الخوف والحقد لا يعالجها الإحسان والإنعام ولا يداويها التلطف والابتسام ، وربما زادها الإحسان مرضًا والابتسام مضضًا ، فيستعصى الداءُ وينتهى الأمر بانطواء مصالح الدولة العامة تحت مصلحة خاصة واحدة ، وهى محافظة الملك على نفسه فتنحل عرى السلطنة حينئذٍ وتمتد الأيدى الأجنبيَّة من الخارج إليها وتعاونها القلوب من الداخل للانتقام والخلاص منها ويصبح من بيده الأمر المطلق بين المتاعب والمخاوف تطالبهُ الرعيَّة برفع الأيدى الأجنبيَّة عن الملك وتأمرهُ نفسهُ بالمحافظة عليها خوف الفتنة وتكلفهُ الدول بإصلاح بلاده . ولما كان من المحال القيام بهذا العمل جميعه فى آن واحد انحصرت القوى كلها فى المحافظة على النفس .

وإذا أمعن المنتقد فيما كتبنا لا ينسبنا إلى المبالغة أن قلنا : إن الحال فى الأستانة قد وصل إلى هذه الحد وكاد يتخطاهُ .

قال يوسف رضا باشا لصديق لهُ : إن جلالة السلطان قد تعوَّد أن يسمع منْ جواسيسه كل يوم خبراً مقلقًا على نفسه ، فإذا مرَّ يوم ولم يأته فيه ما يقلق خاطرهُ على نفسه بقيام فتنة تشكيل جمعيَّة ظن أنهُ وقع ما يخشاهُ وما أتاهُ خبرهُ فيبقى متكدرًا حتَّى تكتب لهُ الجواسيس بشىء منْ هذا القبيل فيشتغل بتحقيقه ، فإذا ظهر لهُ كذبهُ كغيره من الأخبار السابقة سرّى عنهُ واستراح خاطرهُ . وإذا أخبر جلالتهُ أحدًا منْ خاصته بأنهُ بلغهُ أن جماعة ينوون لذاته شرًا ، فإن كذَّب الرجل لجلالته الخبر

بالبراهين ليذهب عنهُ الكدر ارتاب فيه وظن أنهُ يحاول كتم الأمر لدخوله فيه . وقال جلالتهُ يومًا لأحد المقربين لسدته السلطانيَّة شاكيًا من كثرة الأشغال لديه أنهُ وصل لمقامه الاسنى ثلاثة تقارير فى مسافة نقض وضوءه .

ماذا يبقى من الزمن بعد ذلك للدولة وتشييدها والشريعة وتأييدها والجنود وترتيبها ، والأحكام وتقويمها ، والماليَّة وتنظيمها ، والمعارف وتعميمها ، وعلائق الدول وتوثيقها ، والسياسة وتنسيقها ، والسفن وتعميرها ، والمنافع العامة وتكثيرها .

لا يبقى من الزمن إلاَّ ما يكفى لسماع تقارير السادة المشايخ ودسّ بعضهم على بعض ليأخذ زيد مكان عمرو وينال بكر منزلة خالد . ولو اشتغل الأساتذة الجهابذة فى إقامة الحجة على الأوربيين فى هذه الأيام بأن دين الإسلام ليس كما يزعمون بعيداً عن التمدن والإصلاح ، بل هو عدل وإنصاف وحكمة وهدًى لكان ذلك أولى بقوم تكتب ألقاب أحدهم فى ثلاثة أسطر فلا يصل القارئُ للاسم إلا بعد صفوف من الألقاب .

ولما علم الجواسيس أنهُ لا يؤخذ بيد العناية إلاَّ التقارير الَّتى تختص بذات السلطان السنيَّة وتحققوا أن لا عقاب على الكاذب للقول المشهور بين رجال المابين « إذا عاقبنا الجواسيس على كذبهم ضاع منا الصدق ، فعليهم أن يكذبوا وعلينا أن ننتقد » أكثر الجواسيس من إلقاءِ الريب بين الراعى والرعيَّة وتفننوا فى أفانين الفتن ونزلوا إلى طبقة دنيئة فى التجسس حَتَّى أنك لتجد مأموراً من ذوى الرتب واقفًا فى زاوية من زوايا الوزارة الَّتى هو مأمور فيها مع جارية سوداءَ من اللاتى يبعنَ الحلواءَ ، فإذا كشفت نجواهما علمت أن الجارية بإغرائه تدَّعى على رجل من العامة أنها سمعتهُ يحادث آخر على قصد جلالة السلطان بسوءٍ فيشتغل ناظم باشا ناظر الضبطيَّة الأيام والليالى لتحقيق هذا البهتان ويبعث بأوراق التحقيق متتابعة إلى السراى .

ولا يخطر بعاقل أن فى الأستانة رجلاً واحداً يحدث نفسهُ بهذه الخيانة لجلالته الَّتى يعدُّها فوق الكفر ، ولكن الجواسيس يعلمون الناس الفتنة ويجرُّونهم إلى الهلاك ويوقعونهم ولا ذنب لهم فى سخط جلالته وغضبهِ ولهذا قطع جلالتهُ عادة آبائهِ وأجداده فى تأدية صلاة الجمعة فى مساجد الأستانة . وكان لهُ عادة أن يصلى فى بعض الجمع فى تكيَّة بناها بقرب السراى للشيخ محمد ظافر فحسدهُ حاسد – ولا تستبعد وجود

الحاسد لمكان هذه النعمة العظيمة – فجاءَ البرق من أقصى بلاد البلغار يحمل خبراً فظيعًا وهو أنهُ قد وضع الديناميت فى أرض التكيَّة فقامت القيامة فى بشكطاش وحُفرت أرض التكيَّة ونقض بعض بنائها ولم يظهر شيءٌ من هذا . ولكن قرت الشبهة في النفس فترك جلالتهُ الصلاة فيها واختص المسجد الحميدى بهذه المزيَّة الجليلة دون سواهُ . كيف يستريح الملك مع حاشية هذا حالها وهذا كيدها ، فمها ابتسام وقلبها انتقام . وهم يشبهون بعضهم بعضًا بالمئذنة ظاهرها مستقيم وباطنها ملتف معوجٌ .

كان للجواسيس دائرة فى السراى يجلس فيها (سر خفيَّة) أى رئيس الجواسيس وهو أحمد باشا الجركسى فلم يسلم من شرهم لأنهم اتهموهُ بعزمهِ على تشكيل سلطنة جركسيَّة فجرى عليه حكم الاستنطاق بأبوابهِ وانتهى الأمر بنفيهِ إلى حلب مع براءَتهِ وصداقتهِ لولىِّ نعمتهِ . وقام مكانهُ في هذه الوظيفة قدرى بك كاتبهُ ، ولما عمَّ الأمر وصار كل فرد فى السراى (سر خفيَّة) أُلغيت الوظيفة الخاصة للوظيفة العامة . ولفظة خفيَّة بمعنى الجاسوس قد زالت عنها فى الأستانة وصمة العيب وصارت ممَّا يفتخر به . قالت إحدى السيدات الأميرات لأحد وكلاءِ الدولة : بلغنى أنك خفية يا باشا – منكرةً عليه – فقال : وماذا يعلق بى من هذا إلاَّ الشرف والافتخار فكلنا جواسيس لجلالة مولانا .

والجواسيس قسمان : قسم من أكابر الدولة يتلقى اللقب العالى للشرف والفخر ، وقسم بالمرتبات الشهريَّة . وممَّا يحكى من نوادرهم أن تركة شهر مبيعها فحضر فريق عسكرى ليشترى منها ما يعجبهُ فأعجبهُ جملة من الكراسى فأشترى منها خمسة وثلاثين كرسيًا . فكتب الجاسوس تقريراً فى الحال يقول فيه : إن فلانًا الفريق قد حضر إلى التركة الفلانيَّة واشترى منها خمسة وثلاثين كرسيًا . ولولا أنهُ على عزم أن يعقد جمعيَّة ما اشترى هذا العدد الكثير من الكراسى . فصدر الأمر بعزل الفريق .

(*) أَلَّف حسن فهمى باشا كتابًا فى حقوق الدول أعجب به العارفون واستحسنهُ الواقفون عليها وطبع الكتاب وانتشر في سائر الأقطار وقرأهُ المؤلف بنفسهِ مراراً على

(*) المقطم ١٩٥٢ ، ٢٤ اغسطس ١٨٩٥

طلبة مكتب الحقوق وقدَّم منهُ نسخة لجلالة السلطان لتوضع فى المكتبة السلطانيَّة وتكلمت الجرائد التركيَّة والأفرنجيَّة والعربية عنهُ ورسمت نظارة المعارف درسهُ فى مكتب الحقوق مع بقيَّة الكتب الَّتى اختارتها للدرس فيه فقام جاسوس من تلك النظارة يدعو بالويل على حسن فهمى باشا ويتهمهُ بالخيانة والغش لذات السلطان لوضعه جملة عظيمة الضرر غزيرة الشر سيئة العاقبة كبيرة الإثم فى كتابه « حقوق الدول » قصد بها قيام الحجة على السلطان بتداخل الأجانب فى داخليَّة الممالك محروسة المسالك . ومضمون تلك الجملة أنهُ إذا اختلت داخليَّة دولة من الدول فيكون للدولة المجاورة للخلل الحق فى طلب الإصلاح . وكتب الجاسوس تقريراً لجلالة السلطان بهذا فجاءهُ الطلب إلى السراى وقوبل بالإحسان والألطاف وصدرت الإرادة السنيَّة فى الحال بجمع الكتاب وإحراقه وأن لا يذكر فى مكتب الحقوق اسمهُ وأن يرسل كتاب توبيخ إلى حسن فهمى باشا على ما كتب وبالإحسان على الجاسوس بالرتبة الأولى من الصنف الأول وبمائة وخمسين ليرة . وقد قال الجاسوس بعد خروجه من المابين لصاحب : علىَّ بعدُ تقريران لرتبة الوزارة .

يا كساد العلم ورواج الجهل ويا شقاءَ الحق وسعادة الباطل ويا خيبة الصادق ونجح المنافق ويا بكاءَ الأمين وضحك الخائن . أصبحت دار السلطنة الَّتى كانت عريناً للأسود خلايا تطنّ فيها زنابير الجواسيس وأصبح العَالِم من شر الجهلاء يوبخ على قواعد العلم يكتبها فى تأليفه وأصبح الجاسوس بظلم العلماء يمشى مرحاً ويختال تكبراً . كيف يستريح القلب فى بلد يتناقل الجواسيس فيه خبر هذا الإحسان الذى يمحو من الجمهور كل فضيلة ويعديهم جميعاً بداء التجسس . ولهذا لا تلتفت ماشياً أو قاعداً أو راكباً إلاَّ وترى جاسوساً يكتب أو يطوى كتابهُ أو يركب مركبة إلى المابين . وقد تعوَّد صبيان القهاوى أن يقدموا للداخل المجمرة والمحبرة فيحرق الجاسوس بالأولى الدخان ، وبالثانية الإنسان .

ويرسل الجواسيس بتقاريرهم إلى المابين ، فمنهم من يرسل تقريرهُ مختوم الظرف بخاتمه ولا عنوان عليه لأحد الحجاب فيصل فى الحال إلى جلالة السلطان .

وهذا قاصر على الكبراءِ من رجال الدولة أو الجواسيس المحلّفين . وباقى الجواسيس يعطون تقاريرهم مفتوحة لأصحابهم من رجال المابين وهم يضعونها فى الظروف ويختمونها بأختامهم بلا عنوان ويسلمونها لبعض الحجاب لإيصالها إلى يد جلالة السلطان ، فإذا تأخر جاسوس عن تقديم شيءٍ لصاحبه فى المابين لامهُ على إهماله أو اتهمهُ بأنهُ اختار غيرهُ لتقديم تقاريره . فلأجل أن ينفى عن نفسه الأول ويتبرأ من الثانى يصبُّ البلاءَ على الأبرياءِ . والويل ثم الويل لمن يصادفهُ فى الطريق من أصحابه فإن اسمهُ يكون قافية بيته .

ومن الغرائب ما حكاهُ رجل كان يذهب لزيارة ناظر الضبطيّة ناظم باشا فى بيته فدخل جاسوس عليهِ وأخبرهُ بأن فلانًا - وسمى رجلاً - عندهُ وليمة نكاح فى هذه الليلة - كأن الولائم من الجرائم - فما أتم الجاسوس كلامهُ حَتَّى دخل شابان عليهما إشارة الكمال فقابلهما الناظر بالبشاشة . وبعد تناول القهوة قال أحدهما : العاقبة عند أفندينا الناظر فى أفراح أولاده . فقال : ستة . (والرجل الزائر غير ملتفت لنادرة لم يسمعها أول مرة على كرة الأرض غيرهُ ولم يحضرها سواهُ كأنهُ يرى أنهما يطلبان عددًا من البوليس لإظهار الشأن والأبهة) . فقال أحدهما : لا يكفى يا أفندينا هذا العدد . قال الناظر : ثمانية . فقام الثانى ووقف أمامهُ اذلّ منْ مؤلّف يطلب من المعارف اذنًا بطبع كتابهِ - فقال : يا ولىّ النعم إن أهلنا أكثر من هذا العدد . (فلما سمع الرجل الزائر الجملة الأخيرة تنبه للنادرة وصارت أعضاؤُهُ كلها آذانًا) . قال الناظر : عشرة . ثم قال : يا بوليس اذهب معهما ولا يدخل الوليمة إلاّ هذا العدد المقرر . فخرجا والمأتم أولى بحالهما من الفرح . ثم التفت الرجل الزائر إلى الناظر يكلمهُ بعينه وسنهِ فضحك الناظر وقال : ما قصدت واللّه إلاّ خيرهم . أنا الذى وضعت هذه القاعدة والآن يجرى العمل عليها فى الأستانة جميعها لا يولم أحدٌ وليمة إلاّ بعد التماس الإذن من الضبطيّة بعدد المجتمعين فيها وما أردت بهذا إلاّ التخفيف علىَّ وعليهم والتضييق على الجواسيس أن يجدوا مجالاً واسعًا لاختراع الأباطيل وتلفيق الأكاذيب فاحفظ وقتى لما فوق رأسى من الأشغال ويستريح الناس من العذاب والاستنطاق والحبس والإطلاق . وشرع يشكو ما يقاسيهِ فى هذه المأموريّة من المتاعب والمشاق الّتى لا

تطاق . وقال : إنهُ يوقظ في الساعات القليلة الّتي يختلسها لنومهِ سبع مرات أو ثماني في كل ليلة لتلقي الإرادات السنيَّة في أشغال جلالة السلطان الخصوصيَّة الّتي يقلق بها الجواسيس خاطرهُ الشريف . وقد نظر الشهاب الخفاجي إليهم من وراءِ ستر الغيب فقال : « إن الأستانة طبق من الفضة مملوءٌ من العقارب والأفاعي » .

ومن غرائب النوادر أن رجلاً من أهل سلانيك اسمهُ عبد اللّه أفندي كان جالسًا على قهوة وكان يمدح رجلاً من العلماء ويصفهُ بالتقى والعلم ، ولما أراد الخروج من القهوة وجد رجال البوليس ينتظرونهُ فأخذوهُ إلى يلديز ، ولما دخل وجد مأمور الاستنطاق ينتظرهُ فأخذ يسألهُ عن معرفتهِ بهذا الرجل الذي كان يمدحهُ ولِمَ مدحهُ ؟ فأخبرهُ إنه كان جارًا لهم ولوالدهِ بهِ معرفة قديمة . ولما كان في حجرات الاستنطاق مواضع يشرف فيها جلالة السلطان أحيانًا ليباشر بنفسهِ سير التحقيق حيث يرى منها ولا يُرى ، كان مأمور الاستنطاق يخرج من الحجرة ويغيب هنيهةً ، ثم يعود فيسألهُ أسئلة فوق قدرهِ كأن يقول لهُ : هل تعرف علاقة خفيَّة بين الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ؟ فيجيب الرجل بالسلب وقد بقي حائرًا في أمره لا يجد جوابًا فيما يسأل عنهُ من هذا القبيل ، ثم أدخلوهُ مطمورةً مظلمة كان للمسكين فيها شهيق وزفير وعذاب مستطير ويوم قمطرير . وبعد ثمانية أيام بعثوهُ إلى الضبطيَّة فأدخلوه إلى مجلس فيها وهذا المجلس ينظر في الأمور الخاصة الّتي تتعلق بالسراي فأجلسوهُ وبعد سؤالهِ عن اسمهِ صدر هذا القرار العجيب بهذه الصورة وهذا النص « من حيث أن عبد اللّه أفندي السلانيكلي ارتكب جناية مِنْ أعظم الجنايات ، فقد تقرر باتحادالآراء سجنهُ من غير تحديد مدة مع عدم الاختلاط بأحد » .

ثم أمضى الأعضاءُ والرئيس وأمروا بهِ إلى الحبس . فدخل سجّينًا لا سجنًا ورتبوا له شيئًا من الخبز والماءِ يقدمهُ لهُ السجان في أوقات غير منتظمة . فأراد أن يشتري يومًا نوعًا من الطعام لم يكن موجودًاعند البقال في السجن. فقال لهُ السجان : لا يمكن أن يدخل إلى السجن شيءٌ من الخارج ، لأن البقال اشترى من الضبطيَّة هذه الدكان بمائتين وثمانين ليرة في السنة فهو يحتكر البيع هنا . وبعد أربعة أشهر أمر

الضابط بإطلاقه من السجن ، فخرج المسكين أشعث أغبر كإنسان الغابة لا يعرفهُ من يراهُ . وبعد مدة علم أن للرجل الذى كان يمدحهُ قرابة بإمام ولىّ العهد رشاد الدين أفندى . فما يدريك ماذا كتب الجاسوس ، وماذا رتب على هذا ؟

وقد أحرج الجواسيس طائفة الأرمن فى الأستانة وأخرجوهم إلى ما نرى ونسمع وأفرطوا فى التضييق والمراقبة عليهم بما لا يدخل تحت تعريف . فإن وجد جاسوس على غلاف أوراق السجارة أو على علب الكبريت رسمًا يشبهُ شراعًا أو مجدافًا أو دفة أو شيئًا من أجزاءِ السفينة أخذ الرسم وكتب تقريرًا معهُ يتهم فيهِ الأرمن بطلب الاستقلال ، لأن الأرمن هم الذين يشتغلون فى هذه التجارة ، وأن هذا الرسم يشير إلى السفينة الّتى هى علامة الملك عندهم . فيجمع فى الحال ما وجد الرسم عليه إلى الحريق ويأخذ ناظر الضبطيّة فى التحقيق والاستنطاق والبحث على الجمعيّة الّتى تشكلت لطلب الاستقلال . وتنتشر الجواسيس لاستكشاف أعضائها فيحبس الضابط وينفى منهم على موجب ما ترد لهُ به الإرادات السنيّة . وقد ضيقت الحكومة على الأرمن فى السفر تضييقًا سدعليهم منافذ الهرب فلا تقوم سفينة من الأستانة إلاّ ويراقبها لدقيقة قيامها عشرة من الجواسيس .

والحكومة إذا غلب عليها الجبن وأحاط بها الخوف وتولى الأدنياءُ أمورها وساس الأغبياءُ جمهورها وانتشر فى جسمها ميكروب الجواسيس فبشر حكامها بالخراب القريب والدمار الوشيك .

(*) ومن مخزيات الزمان ومسوّدات وجه العصر ما أصاب الأمن العام فى قاعدة السلطنة وعاصمة الدولة ومقرّ الإمامة من إطلاق ذئاب الجواسيس الطلس على حملان الرعيّة النائمة فى حظيرة الخلافة الإسلاميّة . فإن الجاسوس يسرق ويسلب ويختلس وينهب ويزوّر ويهتك الأعراض ، ويشهر السلاح ويطلق الرصاص على العاجزين الضعفاءِ من رعيّة السلطان ، ثم تحكم المحاكم بدرجاتها عليه حتى إذا لم يبقَ إلاّ تنفيذ

(*) المقطم ١٩٥٥ ، ٢٨ أغسطس ١٨٩٥

الحكم جاءَهُ العفو باسماً فيجعل مضبطة الحكم تحت قدمه ويأمن عاقبة العقاب فى جميع ما يفعل كما وقع لجاسوس حسن فهمى باشا المتقدم ذكرهُ ، فإنه أطلق الرصاص فى بيته على صهره وتقدمت الدعوى إلى المحاكم على حسب العادة ، وكتبت الجرائد تفصيل تلك الواقعة الشنيعة ، وحكمت المجالس عليه بالعقاب المقرر لجنايته فأدركهُ العفو قبل التنفيذ . فسكر بنشوته ورجع يحمل على الناس بعربدته . فليبك على العدل الباكون وليضحك علينا معشر العثمانيين الضاحكون .

وكما حصل لجاسوس آخر من المحلفين اسمهُ محمد مهرى من أعضاء شهر امانت (المجلس البلدى) فإنهُ كان مديونًا لرجل استخدمهُ كاتبًا فى دكانه قبل أن ترفعهُ الحظوة إلى مقام التجسس ، ولما مات الرجل ادعى بصك زوّرهُ عليه بألف ليرة وطلب المبلغ من تركته ، فتقدمت الدعوى إلى المحاكم وظهر تزوير الصك بادئ بدء وأمرت المحكمة بحبسه احتياطًا فحبس أشهراً ، ثم حكمت جميع المحاكم عليه مع محكمة التمييز بدفع ما عليه للورثة الأيتام وبحبسه ثلاث سنوات على ارتكاب التزوير . وبينا الضبطيَّة تطلبُه لتنفيذ الحكم عليه جاءَ العفو لهُ طائرًا بجناح النجح . فما أطول استهزاءَهُ بعد ذلك بالمحاكم والقوانين وما أسرع بطشهُ بالضعفاءِ والمساكين .

قل لى أيها القارئُ : أى حامل فى هذا البلد الأمين لا تتعب الكرام الكاتبين دعاءً وابتهالاً ليلاً ونهارًا عشاءً وأبكارًا أن تلد جاسوسًا . وأىّ أب لا يتمنى أن ينجب لهُ ابن فى هذه الصناعة لو أمنَ أن يسلم من شرِّه فيها ؛ لأن كثيرًا من الأبناءِ فى دار السعادة يسعون بآبائهم . ولولا خوف التطويل وملل القارئ لذكرناهم بأسمائهم .

وهكذا يسمع كل يوم بجناية يمحوها العفو وتهمة باطلة يعقبها العقاب . ولقد تقدمت على جاسوس دعوى إلى محكمة الاستئناف فارتفعت أصوات الأعضاء بالخلاف فى توقيع مدة الجزاءِ ، فقال لهم الرئيس : خفضوا على أنفسكم لا تضيعوا الوقت بالخلف فى دعوى مصيرها إلى العفو .

ومن الغريب أن بعض الدهاة من المشايخ وغيرهم ممن وقفوا على الحقائق وخفايا الأمور اللدنيَّة يستكتبون الجواسيس بالوسائط الغامضة والمكر الأخرس تقارير على ذواتهم مشحونة بالتهم الفظيعة والمفاسد الشنيعة والجرائم القتالة ، فإذا وصلت إلى

جلالة السلطان وأمر باستنطاقهم خرجوا من منافذ التخلص الّتى فتحوها لأنفسهم فى تلك التقارير المصنعة خروج السهم من الرميَّة فينالون الزلفى والنعمى ببراعتهم ويتركون أثرًا فى نفس جلالة السلطان بتكرار تلك التقارير المتتابعة يدل على قدرتهم على الشرور والمفاسد وإيقاظ الفتن العظيمة بنفوذهم وعصبيَّاتهم . وبهذا بلغ بعضهم ما ليس بعدهُ درجة فى الترقى والقرب وبنوا بيوت مجدهم على هذا الأساس وأمنوا على أنفسهم بهذه الأوهام وزادوا فخوّفوا بها وتربعوا فى دسوتهم غير مبالين بتقرير يكتب أو رسالة تطبع ، فإن عُرض على جلالة السلطان حقيقة من حقائقهم صاحوا واعولوا واستدلوا على براءتهم بالتقارير المواضى الّتى بيَّن التحقيق فسادها . ومنْ الغرائب أن بعضهم يعرض سيئات نفسه وذنوب ذاته فى قالب يغفل عنهُ الشيطان ويعجز عنهُ الإنسان فيستخرج من الشر خيرًا ، ومن الشرى شهدًا بقوة دهائه وشديد محاله ، وربما أصاب برمية أغراضًا عديدة . فمن ذلك أن يوسف رضا باشا كان يشرب ليلة مع رجل من الجواسيس يبغضهُ لحزازات عليه فى صدره فأراد الانتقام منهُ فانتقد الباشا على جلالة السلطان بعض الأمور ، واستوثق من الرجل بدهائه ومكره أن لا يحكى شيئًا . وفى الصباح ذهب الباشا إلى السراى يستغفر جلالة السلطان نادمًا على ما وقع منهُ فى حالة الذهول وغيبوبة الحس بمحضر فلان وذكر اسم الرجل الذى انتقد أمامهُ . فنال العفو وحُسن الرضا بإخلاصه واعترافه على نفسه بالذنب من غير واشٍ وبلغ من عدوه الجاسوس إربهُ بغضب جلالة السلطان عليه لسكوته عن تبليغ ما سمع . ونال إدخال السرور على ذات السلطان بأن جلالتهُ قد ضبط الأمور بالحكمة والحزم وملك الألسنة وأخاف القلوب وأقام منها عليها رقباء حَتّى صار المخطئُ أو المذنب يسبق بالاعتراف على نفسه قبل الوشاة لتخفيف العقاب عليه .

اللهم ليس فى قدرة الرعيَّة إلاَّ أن تمد أيديها للاستغاثة برحمتك أن تبعد عن جلالة السلطان الذى بيده خيرها وشرها هؤُلاء الأشرار الذين لو اجتمع منهم عشرة على أنظم سلطنة فى العالم لخربوها فى بضعة أيام .

ومن الجواسيس طائفة وظيفتها أن تلازم من تؤمر بملازمته لمراقبته ملازمة الظل فعلى شيخ الإسلام أربعة منهم لا يفارقونهُ حَتّى يدخل الحرم ، فإذا دخل الحرم راقبهُ المكلفات به من جواسيس النساء . فلهذا تراهُ على صغر سنه وشرخ شبابه أصفر

اللون ضئيل الجسم لا يكاد يقاوم النسيم لضعفه ؛ وكذلك الصدر الأعظم لا يتحرك حركة ولا ينطق بكلمة إلاَّ أحصاها كتاب رقبائه .

ومن هؤلاءِ الجواسيس من يلازم مركبات أعضاءِ السلطنة (الشاه زادات) فيركب الواحد منهم حصانًا وراءَ المركبة على مسافة خمسين خطوة ، وقد كانوا يلتصقون بالمركبات ويزاحمون الخدم الراكبين وراءها قبل أن يضرب أحد الشاه زادات واحداً منهم على تهجمهِ وإقدامه . فأُمروا أن يبعدوا هذه المسافة . وهناك فريق عسكرى اسمهُ إسماعيل باشا وظيفتهُ الَّتى نال بها هذه الرتب العسكريَّة فى أقرب زمان هى أن ينزوى وراء الأشجار ويختفى خلف الجدران فى الطريق الَّتى يمرّ فيها ولىّ العهد رشاد الدين أفندى فيكتب كل ليلة تقريراً ويقدمهُ إلى الحاج محمود أفندى مدير التشريفات الهمايونيَّة يذكر فيه أن ولى العهد كان فى المنتزه هذا اليوم مقطب الوجه عابسًا ، ولما جاءَ إلى الموضع الفلانى التفت وأطال الالتفات ، ولما مرَّ من المكان الفلانى أخرج رأسهُ من نافذة المركبة وكان فى الطريق رجلان شاهدهما مرتين فى أيام متقاربة فى مكان واحد من الطريق . فتقوم القيامة للبحث عنهما ، فكم من مظلوم يؤخذ وكم من برئ يتهم عند البحث عن الشخصين الموهومين ، فإذا وصفهما الفريق مثلاً بأن أحدهما كان أسمر اللون والآخر مقرون الحاجبين أو ضيق العينين أو أحمر الوجه وقع البلاءُ على من يمشى فى تلك الطريق بهذه الصفات . ولما كان الاستنطاق يتخللهُ اختلاف فى القول لما يلحق البرئ المتهم من الخوف والاندهاش ، ولما يحسب حسابهُ المستنطق من تعلق الشبهة أو التهمة بهِ أو نسبة العجز إليهِ وسلب المهارة عنهُ إن لم يثبت شيئًا ذهب كثير من الناس فى طريق القارظين .

تقابل الشيخ محمد ظافر فى يوم من أيام الموسم فى مضيق من الطريق بمركبة ولىّ عهد السلطنة فسلّم الأمير عليهِ فجمد دم الشيخ وتعطلت إرادتهُ . ولما أفاق ذهب إلى جلالة السلطان ليقص عليه القصة ، فوجد الجاسوس قد سبقهُ إليه ووجدهُ عالمًا بالخبر . وعندما وقعت التهمة على حسن آغا المعين من المابين رئيسًا على الخدمة فى تكيَّة الشيخ ظافر بأن لهُ اتصالاً بولىّ العهد لم يسلم الشيخ من الشبهة بذلك السلام الذى بينهُ وبين هذه الحادثة سنون وأعوام .

فإذا كان وليّ عهد الخلافة والسلطنة بهذه الحالة من التشديد والتضييق عليه والاشتباه فيه والخوف منهُ وإبعاد الناس عنهُ ، ونفى الواصلين إليه كيف يكون حالهُ مع الأمة ، وكيف يكون حال الأمة معهُ إذا صار فى ساعة واحدة سلطانًا عليها . لا ترى منهُ الأمة إلاَّ قلبًا نفورًا ملأتهُ الحفيظة ببغض الناس . ولهُ العذر فى هذا ممَّا قاساهُ من التضييق والهوان .

وهذا الأمر هو أعظم مصائب الأمة ، ومن العجيب أن الناس لا ينتبهون للتفكر في هذا الخطب الفادح ولا يقفون عندهُ وقفة المتدبر وشقاؤُهم وسعادتهم متوقفان فى المستقبل عليه ، لأن الخلود محال . ولو نظر العثمانى إلى ملوك أوربا وما يعاملون به ولاة عهودهم من الإطلاق والحريَّة وممارسة الأمور والسياحة فى البلاد ومخالطة أرباب السياسة لبكى على حالهِ ولعلم أن للسلطة فى بلادهِ معنًى غير الذى يعلمهُ الناس فى البلاد الأخرى وهو أن السلطنة إرث ورثهُ السلطان ليقضى به حياتهُ فى لذة ونعيم وتقضى الأمة مدتها معهُ فى شقاءٍ وجحيم .

يا ملوك البلاد فزتم بنسءِ الـ ـعمر والجور شأنكم فى النَّساء [1]

غرض القوم متعة [2] لا يرقـ ـون لدمع الشمَّاءِ والخنساء

* * *

---

(١) النسءُ والنَّساءُ التأخير فى الأجل وطول العمر .

(٢) والمتعة : التمتع .

المقالة الثامنة

عيد الجلوس السلطاني (*)

فى مثل هذا اليوم من سنة ١٨٧٦ جلس على سرير السلطنة وعرش الخلافة جلالة السلطان الغازى عبد الحميد خان الثانى بإرثه الشرعى عن آبائه وأجداده غياث الأمم وغيوث الديم أعاد اللّه يوم هذا العيد الجليل على الأمة العثمانيَّة وعليه بالسعادة والإقبال والعزّ والإجلال . وهذا اليوم يوم الزينة فى دار السعادة وعاصمة السلطنة ومقر الخلافة ، فيصير دجى ليلها بياضًا مما يظهره سكانها من علائم السرور والابتهاج أمام الحكومة السنيَّة . وفيه تنشر الجرائد العثمانيَّة ما يخترعه ويدخره أصحابها طول السنة من المعانى الشعريَّة وغرائب الإغراق وبدائع الغلوّ فى حسن الأحوال ورغد عيش السكان ليسحروا به عقول الرعيَّة ويدخلوا به السرور على جلالة السلطان كأن يقولوا : إن فى هذه الليلة المقدسة مائتين وخمسين مليونًا من المسلمين فوق كرة الأرض يمدون أيديهم بالدعاء إلى السماء ليعيش جلالة السلطان على أريكة الملك إلى آخر الزمان . ولو اتصلت أيدى هؤلاء العبيد بعضها فوق بعض لقطعت ألوف الفراسخ وأمسكت بالهلال وحينئذٍ تصير راية الهلال حقيقيَّة للسلطنة السنيَّة .

أما نحن فقد عزمنا أن نذكر الحقائق الخالصة من شوائب المبالغة والغلوّ عن السلطنة العثمانيَّة من ذاك اليوم إلى هذا اليوم ليعلم الراعى أنهُ فقد نصف سلطنته ومعظم شأنها أمام أعين الأوربيين بخيانة الخائنين وغش الغاشين ليتدارك أيدهُ اللّه الأمر فى النصف الباقى الذى ابتدىء فيه من مبادىء الاضمحلال ما كان ابتدأ فى

(*) المقطم ١٩٥٥ ، ٣١ أغسطس ١٨٩٥

ضياع النصف الأول ، ولتعلم الرعيَّة أن ما ملكتهُ الدولة بدماءِ آبائها وأجدادها ذهب رخيصًا بهوى شيخ أو جهل خصى فتقف مع جلالة السلطان بقلوب صادقة العزمات لتخليص الدولة من ورطتها ناسية ما مضى من الخطاء برجاء الخير فيما هو آتٍ .

كانت الدولة العثمانيَّة يوم جلوس جلالة السلطان على تختها من أجلّ الدول قدرًا وأعزها شأنًا وأبعدها صيتًا وأرفعها صوتًا ، وكانت قوة أساطيلها - الَّتى يسكت عنها الآن حياءً وخجلاً - بعد الدولة الفرنسويَّة فى ترتيب قوى الدول البحريَّة ، وكان سكانها بإحصاء الجريدة العسكريَّة العثمانيَّة اثنين وأربعين مليونًا . فكان لها فى أوربا عشرة ملايين ، وفى آسيا أربعة عشر مليونًا ونصف . وفى أفريقيا أحد عشر مليونًا ونصف . وكان لها رومانيا والصرب بستة ملايين . فضاع من أوربا البلغار وبوسنة وهرسك ، والجبل الأسود وتساليا بأربعة ملايين . وضاعت رومانيا والصرب بستة ملايين . وضاعت تونس من أفريقيا ، وهذه مصر بملحقاتها بعشرة ملايين ونصف ولم يبق لها فيها إلاَّ طرابلس الغرب بمليون واحد . وضاع من آسيا قبرص وقرص وباطوم واردهان بمليون واحد . فالنصف الضائع أكثر من النصف الباقى .

كان أول ما فتح القضاءُ عليها من صحيفة البؤس فتنة البلغار وما أحدثتهُ من المذابح كما وقع الآن ببلاد الأرمن ، فقامت الدول تطالب الدولة بإجراء الإصلاح كما تطلبهُ اليوم لبلاد الأرمن ، وحددت لها الإصلاح فى فصول كما تحددهُ لها فى المسألة الأرمنيَّة . فدفعت الدولة طلب الدول كما تدفعهُ اليوم بعزمها على نشر الإصلاح عمومًا فى جميع ولايات السلطنة . وعليه بادر جلالة السلطان بإصدار الفرمان العالى بتشكيل مجلس المبعوثان ونشر القانون الأساسى إلاَّ أنهُ وجد أيدهُ اللَّه من حاشيتهِ من يثبطهُ عن تنفيذهِ فجمع مدحت باشا جمعيَّة فى الباب العالى من أعيان الأستانة واستشارهم فى الجواب القطعى الذى يجب أن تعطيهُ الدولة للدول . فاتفقت تلك الجمعيَّة بأجمعها أن يرفض طلبهنَّ بالمبادرة إلى إجراء الإصلاح العام بنشر القانون الأساسى وتشكيل مجلس المبعوثان الصادر بهما الفرمان العالى . وأراد مدحت باشا بهذا رفع التردد فى تنفيذ الفرمان وإغلاق الباب فى وجوه المثبطين . فاشمأزَّ جلالة السلطان منهُ لتعضده بالأمة واعتمادهِ على الدول فى تنفيذ أغراضهِ فأمر بنفيهِ إلى أوربا قبل اجتماع المجلس

ونشر القانون لعدم إمكان ذلك بعدهما . ومن هذا علمت الدول أن الأمور جارية على غير ظواهرها وأثبت لها نفي الرجل الساعي في الإصلاح ما تظنهُ من التلاعب بها فشددت في طلب الإصلاح للبلغار ، واشتدَّ الاضطراب في الأستانة وهاجت الأفكار وكثر القيل والقال . فرأى جلالة السلطان أن قبول الإعلان بالحرب منْ روسيا يصرف أفكار الأمة عن الاشتغال به في الداخل . وبعد قبول الإعلان بالحرب علمت الدولة أنها غير مستعدة تمام الاستعداد لهذه الحرب الهائلة ، فأمر جلالتهُ بجمع مجلس المبعوثان لتلقي الدولة مسئولية الحرب على عاتقه ، وبالفعل أقر المجلس على قبول الإعلان بالحرب . ولما استحصلت الدولة منهُ على غرضها هذا أمرت بفضه في الحال . ثم أرادت الدولة أن تقلد دولة ألمانيا في حربها مع فرنسا ، حيث وضعت ألمانيا جميع التدابير الحربيَّة والحركات العسكريَّة في يد المارشال مولتك ، فصارت جميع الأوامر تصدر من يلديز بالحركات العسكريَّة في ميادين الوغى لقواد الجيش العثماني بمشاركة محمود باشا الداماد : وفات السراى أن الخريطات الَّتى كانت أمام مولتك لأراضي فرنسا كانت أضبط من خريطات الجيش الفرنسوى نفسه ، وأن خريطات الدولة كانت تشترى من الأسواق ، وأن محمود الداماد غير المارشال مولتك ، فكم من حركة أمرت فيها السراى بالتقدم وكان الخذلان الوحيّ فيه . وكم أمرت بالتأخر وكان في غير ما أمرت السداد والصواب . وقد سئل الغازى عثمان باشا بعد عودته من روسيا في مجلس الوكلاء عن سبب انحصاره في بليفنا وعدم خروجه منها مع إمكان الخروج قبل التضييق عليه فأخرج من جيبه تلغرافات تأمرهُ بعدم الخروج . وقد تجاسر بعض الوكلاء ولامهُ على فعله وقال لهُ : كان يجب عليك أن تقول : يرى الشاهد ما لا يرى الغائب . فأجابهُ بأن العسكرى يجب عليه الطاعة المطلقة للرئيس الأعلى . ويقال : إن كثيراً من هذه الحركات كان مبنياً على التنجيم وضرب الرمل والأحلام حتَّى أن بعض المشايخ كان يبشر جلالة السلطان بأسر إمبراطور روسيا . وقد نصح بعض الصادقين جلالة السلطان أن يخرج بنفسه إلى أدرنة كما كان يفعل آباؤهُ وأجدادهُ في الحروب ، وكما يفعل الروس فأبى الخروج وبعث محمود باشا الداماد مكانهُ ، ولو كان خرج جلالتهُ لبعث في الجنود العثمانيَّة روح الغيرة وحب التفاني في نصر الدولة ولكن للقضاء حكمًا لا تغلبهُ النصائح والعزائم .

وقد قاست الجنود العثمانيَّة ما يفتت الأكباد ويذيب القلوب لعدم الاستعدادات الحربيَّة في مأكلها وملبسها وعلاج جروحها ودفن قتلاها . وكانت قد تشكلت جمعيَّة الهلال الأحمر لجمع المساعدات من أهل الخير فذهب من تونس الجنرال حسين باشا إلى مواقع الحرب بما قدمهُ من ماله،وقدمهُ أهل تونس بترغيبه . ولما رجع إلى الأستانة وذهب إلى السراى أمر جلالة السلطان سعيد باشا الصدر الأعظم الحالى ، وكان باشكاتب الحضرة السلطانيَّة أن يدعوهُ إلى مأدبة سلطانيَّة . فجلس عليها مع سعيد باشا وشرع يحكى على ما رآه وشاهدهُ من الضنك المحدق بالعساكر العثمانيَّة وعريها في الثلوج وجوعها وجروحها والدموع تسابق كلماته على المائدة ، فقد كان الرجل متفانيًا في حب الدولة . ولما قام ليغسل يديه وجد الطست الذى قدموهُ لهُ من الذهب الإبريز وجميع الآنية منهُ فأبى أن يغسل يده فيه ، وقال بعد ما شاهدت ما عليه : العساكر المسلمون الذين يدافعون عن الإسلام والدولة فى مواقع الحرب لا أغسل يدى فى بيت الخليفة فى هذا الطست . فأمر جلالة السلطان لما سمع بكلامه أن يخرج فى الحال من الأستانه ، فخرج وما قدر أن يعود إليها بقيَّة عمره لأنهُ قال الحق .

ولما ضاق الأمر على الدولة وظهرت علامات الانكسار أرادت السراى أن تحمل أيضًا على عاتق المجلس المسئوليَّة فى طلب الصلح ، فأمرت بجمع المجلس . ولما اجتمع الأعضاءُ لم يتساهلوا فى المرة الأولى ، بل أرادوا البحث والتدقيق عن الأسباب الَّتى نشأ عنها الانكسار وطلبوا حضور السر عسكر ليسألوهُ . ولما علم من حول جلالة السلطان بهذا الطلب قالوا لجلالته : هذه أول خطوة من المجلس فى محو سلطتكم المقدسة ، فإذا تمَّ لأعضائه ما أرادوا طلبوا الصدر الأعظم غدًا ولا يبعد عليهم أن يتجاسروا بعدها على طلب ذاتكم المقدسة فأمر جلالة السلطان فى الحال بطرد أعضاء المجلس ونفى المشاهير من رجاله .

ولما عظم الخطب وفدح الأمر وقدم الروس منْ دار السلطنة طلبت الدولة من الدول التوسط لصدهم ، فلم يجبنَ إلاَّ إنكلترا فإنها لبت الدعوة وأرسلت أسطولها فى الحال إلى الدردنيل .

وفى هذه الأثناء كان الغراندوق الروسى وصل إلى سنستفانو . ولما علم بأن إنكلترا أرسلت أسطولها سلَّم فى عقد الصلح وتمت معاهدة سنستفانو ، وكانت شديدة

الوطأة على الدولة . ولما بلغ الإنكليز ما تضمنتهُ من الشروط المضرة بالدولة ألزمت الدول بعقد مؤتمر . فقبلت الدول إلاَّ فرنسا ، فإنها اشترطت أن لا يصير الكلام فيه على مصر وسوريا وبيت المقدس . وهذا الذى نبَّه الإنكليز أن يسبقوا إلى مصر .

ولما عقد المؤتمر فى برلين بعثت الدول بصدورها ووزراء خارجياتها وأرسلت الدولة نائبًا عنها إسكندر قره تيودورى باشا والى كريت الآن وهو يونانى الأصل مع مشير عسكرى . فكانت منزلتهُ فى المؤتمر دون منازل بقيَّة الأعضاء وصوتهُ أضعف الأصوات فيه ، لأنهُ لم يكن صدراً ولا وكيلاً من وكلاءِ الدولة . وقد أخطأت الدولة ، حيث لم ترسل أكبر رجل فيها لمؤتمر عَقد لأجلها كما فعلت حين أرسلت فى مؤتمر باريس عالى باشا نائبًا عنها . وما أدراك ما عالى باشا .

ومن غريب ما وقع فى المؤتمر أنهُ أعطى لدولة اليونان تساليا وأيبير وما كان لها عضو فيه ولا يد فى الحرب . وقد قال فى هذا بعض رجال الدولة : « نحن أرسلنا قره تيودورى باشا نائبًا عنا وعن اليونان فأدَّى وظيفتهُ لنا ولليونان . ثم أعطى المؤتمر للجبل الأسود ميناء اسمها دولشينو . فتوقفت الدولة فى تسليمها لهُ بعد انفضاض المؤتمر فاضطرت الدول أن تبعث أسطولاً لتسليم تلك الميناء للجبل الأسود . فسلمتها الدولة ، ولكن بعد حضور الأسطول . ومن هذا وأشباهه لم يبقَ لكلام الدولة وقع فى نفوس الدول ولا لتعهداتها اعتبار .

وكان لدولة الإنكليز اليد البيضاءُ والهمة العلياءُ فى صدّ الروس عن الدخول فى دار السلطنة ومقر الخلافة وفى تأييد التخت العثمانى فيها بعد أن عزم جلالة السلطان على مغادرة الأستانة والرجوع إلى بورسه مقر تخت آل عثمان القديم ونقل خزائنهُ إلى الباخرة بالفعل . وكان لها الفضل فى فسخ معاهدة سنستفانو الَّتى كانت الضربة القاضية على الدولة لو بقيت . وفى عقد المؤتمر الذى تكفل بحفظ أملاك الدولة . ولا ينكر هذا إلاَّ من سفه نفسهُ .

وانتهى المؤتمر على استقلال الممالك الَّتى كانت تحت الدولة وانفصال بلادها عنها وكفالة الدول لها . وقد كان البرنس مترنيخ وزير النمسا المشهور بالسياسة نصح الدولة قبل مؤتمر باريس أن تجتهد فى إصلاح أمورها حَتَّى لا تحتاج إلى كفالة من

الدول ، فإن للكفيل حق التداخل وهذا يضرُّ بها يومًا من الأيام وهو ما تقاسيه اليوم فصدق قولهُ بعد نصف قرن .

ثم انفض المؤتمر بعد خراب البلاد وهلاك الرجال وضياع الأموال ووصل الروس إلى أسوار العاصمة ، واستغاثة الدولة بالدول وتحملها منَّة الإنكليز بإجابتها دونهنَّ ، ورجوع نائب السلطنة منهُ بنصف الدولة . كل هذا تسبب عن المحاولة فى إجراء الإصلاح فى ولاية من ولايات الدولة كما هو حاصل الآن فترتب على ذلك استقلالها واستقلال غيرها . ولابدَّ للدولة الآن أن تقيس الحاضر على الماضى ، وأن تسرع بإجراء الإصلاح قبل أن يصير فى نصفها الثانى ما صار فى نصفها الأول وأن تنجو من عقد مؤتمر آخر يأتى عليها .

ثم أن جلالة السلطان بعد انفضاض المؤتمر وبعد أن أصاب الدولة ما أصابها توجس خيفةً من كل عثمانيّ يصير صدراً لانكشاف ما أعقبتهُ سياسة الدولة من الغلطات الظاهرة . فاختار أن يأتى بصدر للدولة من الخارج فوقع اختيارهُ على خير الدين باشا فاستدعاهُ منْ تونس وكان الباى قد عزلهُ وغضب عليه ومنعهُ الاختلاط بالناس . فحضر إلى الأستانة . وتقلد منصب الصدارة العظمى واستحلفهُ جلالة السلطان على المصحف والبخارى أن لا يدخل فى مؤَامرة على ذات السلطان وحلف لهُ جلالتهُ أنهُ لا يعزلهُ . فكان أول آماله الانتقام من الصادق باى والى تونس ، فساعد على عزل إسماعيل باشا خديو مصر الأسبق وبعث لسيده الباى يهددهُ أن تكون لهُ تلك العاقبة قريبًا . فأسرع الصادق باى بالالتجاءِ إلى الحكومةَ الفرنسويَّة ليأمن على نفسه من شرِّ مملوكهِ الذى صار مالكًا ووجدت فرنسا فرصة لإسكات الدولة عن تونس بتسليم مدحت باشا لها حين التجأ إلى قنصلها فى أزمير . واشتغلت الدولة بمحاكمة مدحت وأصحابهِ واشتغلت فرنسا بإدخال تونس تحت حمايتها ، فنجح الفريقان فيما اشتغلا فيه ووضعت فرنسا الحماية على تونس وحصل جلالة السلطان على غرضه بنفى مدحت باشا ، ونورى باشا ، ورشدى باشا ، وشيخ الإسلام خير اللّه أفندى ، ومحمود باشا الداماد إلى الطائف .

ومحمود الداماد هذا هو الذى حسد السيد أبا الهدى على قربهِ من جلالة السلطان حَتَّى قال لجلالتهِ : إنهُ لا يليق بعظمة السلطنة أن تدخل فى أمورها السياسيَّة

العظيمة (هذا العرب) . فكافأهُ اللّـه على تحقير أمة منها سيد المرسلين أن نفاهُ السلطان إلى بلاد العرب ، فذلّ بينهم وهلك فيهم . وهذه اللفظة طالما استعملها كبراءُ الأستانة فى الشتم والسب وهم يعنون بالعرب الزنجيّ أو الكلب الأسود . فمن ذلك أن طبيبًا من أطبّاءِ الحضرة السلطانيّة فى رتبة الفريق كان اسمهُ عارف باشا كان فى مجلس حافل وكان يخاصم شخصًا وينازعهُ حتى وصل إلى تهديده ، فقال وهو محتدّ مغتاظ : « إن لم أفعل بك كيت وكيت أكن (عرب) » . ما كان ينبغى أن يلفظ بهذا أحدٌ فى مقر خلافة الرسول العربيّ ، ولكن هذا يضاف إلى أمثالهِ من سوءِ الأحوال الّتى نحن فى ذكرها .

ثم حدث بعد ضياع تونس الفتنة العرابيّة فى مصر فأوصلتها سياسة الطمع إلى هذا الحال ؛ لأن الدولة ظنت أنها وجدت فرصة يمكنها فيها بالدهاء السياسى أن تردّ على الدولة ما ميز السلطان محمود بهِ مصر فاتصلت المخابرة بين المشايخ وعرابى . وكان السيد أسعد قد جاءَ إلى مصر قادمًا من الحجاز فتقابل مع عرابى ، ولما ذهب إلى الأستانة مدحهُ لجلالة السلطان بأنهُ الرجل الذى يرجى منهُ الخير للدولة فى مصر ، وعلى هذا رفضت الدولة أن ترسل عساكرها إلى مصر لأن المشايخ عرضوا على جلالة السلطان بأن إرسال العساكر المسلمين لقتال إخوانهم المسلمين يضرٌّ بمقام الخلافة سيما أمام مسلمى الهند الذين تتهيأ الدولة بواسطة المشايخ على استجلابهم لها فى مستقبل الزمان . فبعث جلالة السلطان درويش باشا للمغفور لهُ الخديو السابق ، والسيد أسعد لعرابى ، وكان لكل واحد منهما مخابرة مخصوصة مع جلالة السلطان بتلغرافات الأرقام . إلاّ أن السيد أسعد لم يجد من عرابى فى المرة الثانية ما وجدهُ فى المرة الأولى من الإكرام لاعتمادهِ على الشيخ ظافر . ولهذا كتب فى البياننامة الّتى تقدمت من الصدارة إلى المابين بطلب فرمان العصيان إن من جملة ما صدر من سيئات عرابى أنهُ يحقر آل البيت ولا يعتنى بهم .

والخلاصة أن المسألة المصريّة وقعت فى أيدى المشايخ ويد بهرام آغا وكان الباب العالى لا يعلم منها إلاّ المخابرات الرسميّة على حسب العادة الجارية . فلما أمر جلالة السلطان أن يعقد مجلس من رجال الدولة فى المابين تحت رئاسة الصدر الأعظم سعيد باشا للنظر فى المسألة المصريّة قال أحد رجال الدولة للصدر : كيف نتكلم فى مسألة

لا نعلم منها شيئًا ، لأن الدولة أمرت أن الجرائد لا تكتب عنها حرفًا واحدًا ومنعت دخول كل جريدة أجنبيَّة فيها ذكر مصر . قال لهُ الصدر : ما المسئول بأعلم بها من السائل .

فهل تترك إنكلترا مصر بعد أن سمعت أن فرنسا اشترطت عدم ذكرها في المؤتمر . هل تفوتها بعد أن علمت أن فرنسا استحصلت على سكوت الدولةُ عن تونس بتسليم مدحت باشا إليها ؟ هل تأمن على مصر بعد أن رأت أنها وقعت تحت أيدي المشايخ ؟ هل تقتنع بتركها بعد أن خلصت الدولة من مخالب روسيا ؟

ثم ابتدأ في هذه الأيام في النصف الثاني من السلطنة ما ابتدأ في النصف الأول منها طبق الأصل كما تراهُ في الأحوال الحاضرة ، وكما يظهر لك من مقالاتنا السابقة فلا نطيل عليك الكلام بإعادتهِ ولا ندري ما تأتي بهِ الأيام :

أعرضوا عن مدائح وتهانٍ فالمراثي أولى بنا والتعازي

نسأل اللّه أن يوفق جلالة السلطان إلى خير الأمة والدولة ويبعد عنهُ الخائنين الغاشين بفضلهِ وكرمهِ آمين .

* * *

المقالة التاسعة

الجواسيس(*)

من نوادر الوقائع أن رجلاً من طرابلس الشام اسمهُ عبد الحميد حضر إلى الأستانة ليحصل على وظيفة من وظائف العدليَّة فى بلاد الدولة ، وكان لمنيف باشا معرفة به فجاءَ إليهِ لعرض العبوديَّة (على اصطلاح أهل الأستانة) ، فقال لهُ الباشا : متى جئت وفى أى مكان نزلت ؟ قال الرجل : جئت اليوم ونزلت فى يلديز ، قال لهُ الباشا : كيف ذلك – وقد ظن أنهُ نزل فى السراى السلطانيَّة – قال فى نزل بقرب السركجى اسمهُ يلديز (النجم) . فوقف منيف باشا على رجله وقال لهُ : قم ولا تجلس هنا حَتَّى تنتقل منْ هذا النزل إلى آخر . فوقف الرجل مبهوتًا لا يدرى سبب هذا الأمر الحتم . فقال لهُ الباشا : أنسيت أن اسمك عبد الحميد ، واسم هذا النزل يلديز ، فأىّ قارعة من قوارع الدهر ، وأى بائقة من بوائق الزمان تريد أن تصبَّ على رأسك ورأسنا فكاد الرجل يصعق من هذا الاتفاق الذى لم يرزق التحرز منهُ ، وخرج يشتم أباهُ وأمهُ . ولما وصل إلى النزل وجد نفراً من البوليس ينتظرونهُ – ولو كان هذا الإرصاد والإسراع فى مصالح الجمهور لسبقنا غيرنا بمراحل – فأخذوهُ إلى الاستنطاق وما خلص من ضيق الخناق حَتَّى خفَّ عقلهُ وجيبهُ معًا وبقى فى الأستانة مدة ببركة هذا الاتفاق لا ينال وظيفة ولا يجد مساعداً .

لا يعجب القارئُ إذا رأى أن منيف باشا ناظر المعارف الفاضل الحكيم بذل فى تلك الحادثة من العناية والاهتمام فوق ما تستحق ؛ لأنه أُصيب من لفظة « يلديز »

(*) المقطم ١٩٦٤ . ٧ سبتمبر ١٨٩٥

بشـهـاب ثاقب كـاد يقـضـى عليـه . وذلك أنهُ ألف كـتـابًا واتفـق أن ورد فى الكتـاب ذكر الحباحب وهـو حـشرة يضىءُ ذنبـهـا فى الليل كالنجـم ، فـعبّر عنهُ منيف باشـا بـحيـوان يلديز (ومـعنى يلديز : النجـم) ، فطار الجـواسـيس إلى السـراى السلطانيّـة وقـدمـوا التقـاريـر السـريّة بأن منيـف باشـا يعرض بـجلالة السـلطـان فى قـولـه عن الحبـاحب « حيوان يلديز » على سبيل التورية ، فعزل البـاشـا فى الحـال وبقى فى نحـوسة نجـمـه خمس سنوات مـغضـوبًا عليه لهذه الكلمة الّتى مـا خطر ببالهِ غير معنـاهـا الحقيقى . ولكن الجـواسيس أقدموا على حـجب السلطنة يهتكونهـا بنقل هذه المفتريات ولو كـان أمـامـهم عقـاب لخـافـوا من الهجوم على عـرش الخـلافـة وسـرير السلطنة يقـرعـونهُ بهـذه التأويلات الّتى يرجع العقاب فيها على المؤوِّل والمبلغ .

ومن العجـائب قدرة بعضـهم على قلب الحقـائق فيجـعل المجرم بريئًا والبرئ مـجرمًا بالكرامـة والاسـتـدراج أو بقـوة السـحـر أو بـالتنويم أو بمـا لا نـدرى . فـمـن ذلك أن جـاسـوسًا كـتب إلى نـاظر الضـبطيّـة أن مـصطفى رشـدى أفندى منْ أعـضـاء مـجلس المعـارف عندهُ أوراق مضـرّة بالسلطنة والسلطـان . فـهجم نـاظر الضـبطيّة بالبـوليس على بيتهِ وأخرج منهُ أحمالاً من الكتب والأوراق وأحضـروا ترجمـان البـاب العـالى لترجمتـهـا فى الحال فوجـدها حمّالة الجرائم والذنوب . فـأمر بحبس مـصطفى رشـدى فاستـشـاط السيد أسـعد غضـبًا ، لأنهُ من شيـعتـهِ والمحسـوبين عليه واشـتكى لجلالة السلطان من ناظر الضبطيّة ورماهُ بالطيش والعجلة . وكـان نـاظر الضـبطيّة فى تلك الأثنـاء يبعث إلى جـلالة السـلطان مـا يترجمـهُ المترجم من تلك الأوراق سـاعـة بعـد سـاعة والسـيد أسـعد لا يعلم بما فيهـا . وقد تضمنت من الطعن على مقام الخلافة وعلى جلالة السلطان مـا لا يبلغـهُ شيـعىّ من الطعن والقدح فى الوليد بن يزيد الأموى . وتضـمنت أسـرارًا وفظائـع عن الحـجاز وأفعـال الشريف يتألم لها الإنسـان مسلمًا كـان أو غير مسـلم . هـذا وناظر الضـبطيّة يضـيق عليه الحبس كلما اطلع على ترجمة ورقة من أوراقه . فلمـا علمَ السيد أسـعـد بمضـمـون تلك الأوراق ضـاق ذرعًـا وسـقط فـى يده لمدافـعتـهِ عن المجـرم أمـام الحضرة السلطانيّة . فأدركه ليث الكتيبة فى المزدحم السيد أبو الهدى وقد سـألهُ أحد أصحابهِ عن المخلص من هذا المشكل ، فقال لهُ : هوّن عليك نحملهُ كلهُ على كاهل كامل باشا الصدر فما أقدرهُ على الافتراء وما أصبرهُ على النار ، فلم يشعر ناظر الضبطيّة

إلاَّ والإرادة السنيَّة صادرة بإطلاق مصطفى رشدى والإحسان عليه بخمسين ليرة وإرجاعه إلى وظيفته . فتعجب الناس وحق لهم العجب والاستغراب ، ومن الغريب أن ناظر الضبطيَّة أخذ الإرادة بيدٍ وكان فى اليد الأخرى ترجمة البيتين المشهورين فى ذم موسى الهادى خليفة يزنى بقمامة ... إلخ . وكم من أبيات كتبها رشدى من هذا القبيل للاستشهاد بها على الأحوال الحاضرة ؟ وكم من كلام لهُ على الإرادات وسقوط قيمتها لكثرتها . فمن ذلك قوله : « إن الإرادة أصبحت كرجل الجرادة » ، وكثير من هذا الهذيان الذى لو قالهُ غيرهُ ممن ليس لهُ ظهر لحلت بهِ العبر . ورشدى هذا من الآلات الَّتى قلعوا بها كامل باشا من الوزارة ، فإن السيِّدين استحصلا على إرادة من جلالة السلطان لمنيف باشا ناظر المعارف بتوظيف مصطفى رشدى فى المعارف وهما يعلمان أن منيف باشا لا يقبل الرجل لما يعلمهُ من خفة عقلهِ وتهورهِ . فردَّ الإرادة بأن ليس فى المعارف محل خالٍ لتوظيفهِ ، فتقدم فى الحال تقرير بأن منيف باشا قال لرشدى حين قابلهُ قد جاءت وريقتكم (بالتصغير) يعنى الإرادة وليس لكم محل هنا . فجاء ذلك مصدقًا لما كانا يشتغلان فيه من نسبة كامل باشا والذين معهُ من الوزراءِ للاستهانة بالإرادات السلطانيَّة وبهذا وغيرهِ عزل الوزارة الَّتى حفظت شأن السلطنة ست سنوات :

يا محب الإصلاح فى زمن أقـ   ـبح فيهِ الإصلاح وهو بغيضُ

كيف النجاة بما بقى للدولة والخلاص به من جواسيس هريتة الإشداق لالتهام الرُّشا جهنمية البطون لهضم السحت مبسوطة الأيدى لحصاد الإثم . باسمة الثغور لفوادح الظلم . مقبوضة النفوس عن فعل الخير . كُمهِ العيون عن رؤية الحق . مزوَّرة الجوانب عن قيل الصدق . محصورة المساعى فى أفانين الشر . مشرئبة الأعناق لهتك العرض . سابقة الأقدام لمورد الإفك . طائرة الصيت فى عداوة العدل . مطويَّة الجوانح على مخزيات الغش :

لو عاين الدجَّال بعض فعالهم   لانهلَّ دمع الأعور الدجَّال

ماذا أقول ، ويقول القائلون ، وماذا أكتب ويكتب الكاتبون فى قوم عزلٍ من كل مقاومة ومنازلة ومكافحة ومساجلة إلاَّ من سلاح الإيمان باللـه تارة وبالطلاق أخرى :

وأكـــــذب مـــا يـكون أبـــو المـثنَّـــى   إذا آلـــــــى يمـينًـــا بـالطـــــلاق

ومـاذا أقـول فى قـوم لو وقـع فى أيديهم صـداق البتـول عليهـا السـلام لاشتـروا به معـاول لهدم الكعبـة إن لزم هدمهـا لإحكام مكيدة من مكايدهم أو تصنيع دسيسـة من دسائسهم فى غرض واحد من أغراضهم . قد اتخـذوا اسم الخلافة أحبولة لدفع المنفعة وجلب المضرة على الدولة فنجحوا بتمالئهم وشد بعضهم إزر بعض .

ناموا فى حلم جـلالة السلطان وغطوا فيه غطيطًا وظنوا أن القضـاءَ نام مـعـهم ، وما هى إلاَّ لفتة من لفتـات الخليـفة أو عزمـة من عزمـاتهِ تـأتى عليهم فـيبطل السـحر والساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى .

قـال بعض الفضـلاءِ من وكلاءِ الدولة : إن السلطنة قد فقدت جلال شـأنها بيمين زيد ، وسبحة عمرو ، ومسواك بكر . فقال لهُ رجل : ويصلح أمرها شىءٌ واحد تصدر به إرادة واحدة وهو حريَّة المطبوعات . وقد حصل وللَّـه الحمد ، فإن فاتت حريَّة المطبوعات العثمانيين فى الأستانة فما فاتتهم فى مصـر وصـاحب الميزان يقول فى ميزانه اليـوم ما يقول .

وها نحن نقول وننصيح ونكتب وننشر ونبعث إلى كل وجهة بكل وسـيلة حتى نبلغ جـلالة السلطان مـا ألمَّ بدولة آل عـثـمـان بكيـد الكائدين ، ومكر الماكرين ، وشـعـوذة المشعوذين ، وغش الغاشين . ولا يعجزنا أن نبعث بآلة حفظ الصوت إلى البيت الحرام وإلى الروضـة الشريفة ، فننقل بها كلام المظلومين الذين ملأوا حـجورهم من الدمع فى تلك البقـاع الطـاهرة ليسـمعـهُ جـلالتهُ فيرحم جيران بيت اللَّـه من قوم جعلوا الحـجاز مقاطعة لهم ، واستحلوا دم الحجاج فى الحرَم . ولا يبعد عن العقل أن جلالة السلطان يكذبهم فى أيمانهم مرة واحدة فيقف على زُورهم وبُهتانهم ودسائسهم ومكرهم ، ويرفع الدولة بيدهِ الطاهرة من وهدة السـقـوط ، ويحـفظ الأمـة من عـاقـبـة القنوط ، ويرحم المظلومين :

من شكاوى قد ضجَّ من طول ما استُعـ
ـمـــل فيهـا المخفـــوض والمـــرفـــوع

وقد تمادى هؤلاءِ الجواسيس فى غيهم لما لم يردعهم قرآن ، ولم يزعهم سلطان ، فخرقوا سياج الأدب ، ومزقوا حجب العظمة وسرادقات الجلال ، فنقلوا عن جلالة السلطان إلى أفراد الرعيَّة ما زالوا به هيبة السلطنة عنهم ، ونقلوا إلى جلالة السلطان عن الرعيَّة عبارات لا ينطق بها عثمانى يحب وطنهُ وسلطانهُ ؛ وإنك لتجد الداخل إلى الأستانة مملوءَ الصدر بحسن الآمال فرحًا مسروراً داعيًا لجلالة السلطان بالنصر والظفر مكذبًا لجرائد الأحرار إن كان من مصر معتقداً فيها الزُّور والبُهتان ، فإذا أقام فيها عشرين يومًا تغير حالهُ وصدَّق ما كذَّب آنفًا واشتغل لسانهُ بالاستعاذة والحوقلة . أما إذا اجتمع بواحد ممن ذكرنا يومًا واحدًا فإنهُ يخرج من الأستانة يائسًا من كل خير ، ومن كل إصلاح محتقراً ما استعظم ، مستصغراً ما استكبر ، مسترخصًا ما استغلى ، كارهًا ما أحبَّ ، فلا حول ولا قوة إلاَّ باللّه .

* * *

المقالة العاشرة

جلال الخلافة وجمال السلطنة(*)

إن الممالك تختلف فى تشييد عظمتها اختلافًا كبيرًا ، فمنها ما تختار لهُ الحديد الذى قال اللّه تعالى فيه : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، فتبنى المملكة عليهِ صرح مجدها وتصنع منهُ : الأساطيل ، والأسلحة ، والمدافع ، والمعاقل ، والحصون ، والآلات البخاريَّة ، والطرق الحديديَّة ، وتصنع منهُ ما تصنع من أنواع القوى فيهابُها أعداؤُها فى الخارج . فإن قالت فقولها حتم وإن أشارت فإشارتها حكم . ولا تزال بتلك القوى تتجه جميع أجزائها لقصدٍ واحد هو إقناع الأجنبى بعظمتها وتسليمهُ بمنعتها ، فأميرها ووزيرها ونائبها وتاجرها وعالمها وجاهلها وصانعها وزارعها يعملون لهذه الغاية كل على مقدوره وطاقته ولا يأنف الأمير أن يعمل لها كما يعمل الأجير . وهذا عمر – رضى اللّه عنهُ – قد أنزل نفسهُ فى كثير من الأحوال منزلة واحد من أفراد الأمة للسعى وراء ذاك الغرض ، فقد كان يخرج بنفسه لما جاءهُ الخبر بنزول رستم إلى القادسيَّة فيستخبر الركبان كل يوم عن أهل القادسيَّة منذ حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله ، فلما جاء البشير بالفتح لقيهُ كما يلقى الركبان من قبلُ ، فسألهُ فأخبرهُ فجعل يقول : يا عبد اللّه حدثنى ، فيقول له : هزم اللّه العدو . وعمر يحث معهُ ويسألهُ وهو راجل والبشير يسير على ناقته ، فلما دخل المدينة إذا الناس يسلمون عليه باسمهِ بأمرة المؤمنين ويهنئونهُ . فنزل الرجل

(*) المقطم ١٩٧٠ ، ١٤ سبتمبر ١٨٩٥

وقال : هلاَّ أخبرتني يا أمير المؤمنين رحمك اللّه . وجعل عمر يقول : لا عليك يا ابن أخي لا عليك يا ابن أخي .

ومن الممالك ما تختار الذهب وترى فيه طريقًا مختصرًا لبلوغ الغاية إلاَّ أن هذه يختلف مقصد بيت الملك فيها عن مقصد الأمة فيشتغل المسكون بزمام الأمور في إقناع الرعيَّة بعظمة الدولة والسلطنة ، ولا همَّ لهم إلاَّ التسليم بالأبهة والجلال من الداخل فيبهرون ألباب الرعيَّة بجعل ما تتغالى في تعظيمهِ وهو الذهب حقيرًا في استعمالهم ويظهرون لهم من أنواع الزخرف والزينة ما يذهلهم عند رؤيتهِ فيعتقدون في الدولة بلوغ الغاية من العظمة ، ويعتقدون في الأجنبيّ أنهُ يرى ما يرون فيها . ولهذا تجد كثيرًا من الناس يظهر على وجوههم البشر ويصغون كل الإصغاء إذا سمعوا رجلاً يحكي عن خزينة الأمتعة في الدولة وأن فيها تخت السلطان الغوري المرصع باللؤلؤ والياقوت وركابًا من الزمرد أهداهُ محمد علي إلى السلطان محمود ، وكذا وكذا من نفائس الجواهر ، وقد لا تجد منصتًا لمن يحكي عن ترسانة لندن مثلاً . واوضح من هذا أنك تجد بعض القارئين لهذه المقالة يشتغلون بالسؤال عن ذلك الركاب الزمرد ولا يلتفتون إلى قصة المغربي في آخرها .

ولما كانت السلطنة العثمانيَّة قد فاقت جميع الدول الأوربيَّة في الأبهة والفخار بأعظم مقتنيات الزينة رأينا أن نبين مظاهر الجلال ومواسم الاحتفال ومواكب الأبهة واحدًا واحدًا : فمنها موكب صلاة الجمعة الذي يقصدهُ القاصدون من أوربا لرؤيتهِ .

ما قيصرُ في موكب انتصارهِ ولا الإسكندر في يوم افتخارهِ استغفر اللّه ، بل ما سعد قادمًا من القادسيَّة ولا المعتصم قافلاً من عموريَّة أملأ للقلوب مهابةً ولا للعيون بهاءً من رؤية جلالة السلطان يوم الجمعة في موكبه(*) .

في يوم الجمعة قبل الظهر بساعتين ترد العساكر رجالاً وفرسانًا من أطراف الآستانة إلى بشكطاش عشرة آلاف أو يزيدون فينتظرون في طريق السراي السلطانيَّة

(*) توجد في المقال الأصلي بعد كلمات « في موكبه » الجملة الآتية : قرة عيون الأمة ومسرة قلوب الرعية وزينة السلطنة وحلية الدولة لا زوال فلك يلديز مطلعه وقلوب الرعية مغربه عصورًا وأجيالاً وعمرًا طويلاً .

صدور الإرادة السنيَّة بتعيين المسجد . وهى عادة جارية إلى اليوم ، وإن كان المسجد الحميدى قد اختص بصلاة جلالته دون سواهُ . فإذا صدرت الإرادة اجتمعت العساكر فى ساحة المسجد أمام باب السراى . واصطفت صفوفًا مضاعفة بعضها وراء بعض . وفى هذه الأثناء تتسابق مركبات المشيرين والوزراء والمشايخ والأجانب من السفراء وغيرهم ، فيجلس السفراءُ ومن كان معهم من عليَّة قومهم الوافدين على الآستانة فى قاعة الجيب الهمايونى المطلة على تلك الساحة الَّتى لا يسمع السامع فيها قيلاً ولا صهيلاً إلاَّ صليل الأسياف وترديد الأنفاس هيبةً وإجلالاً واستقبالاً لإشراق نور الحضرة السلطانيَّة . فإذا حان وقت الصلاة أشرقت المركبة السلطانيَّة المذهبة كالشمس ضياءً من مطلع السراى تحمل الإمام نائب الرسول ﷺ ويجلس أمامهُ الغازى عثمان باشا . والمشيرون وكبار رجال المابين حافون من حول المركبة مشاةً خشَّع الأبصار ترهقهم ذلةٌ من جلال تلك العظمة الإماميَّة . وهم فى غير هذه الساعة أكاسرة الزمان وقياصرة الرومان كبرًا وجبروتًا وكلهم فى أمواج الملابس الذهبيَّة يسبحون وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الأبصار وتأخذ بالألباب . حتى أن الناظر ليكاد يوالى الحمد للّه تباعًا على ما منحهُ للدولة من عديد الرجال الصادقين في خدمة الأمة والملة بشهادة الكلمات الناطقة فوق النياشين لولا ما يعتريه من الاشتباه فيهم . والنشان عنوان كتبتهُ الدولة ووضعتهُ على صدر حامله شهادة منها للناس ببيان ما هو مكنون وراءَهُ من فضائل الغيرة والحميَّة ، فإذا اختلف المكتوب على الصدر عن المكنون فى القلب كانت كبائع يغش الناس بوضعهِ على زجاجة الخل عنوان ماءِ الورد .

ثم تسير المركبة بالعزّ والإجلال والسعادة والإقبال تحسدها الكواكب وتحفظها المواكب حتى تصل إلى السلم السلطانيَّة من المسجد فيدخل جلالتهُ على صف المشايخ وأولهم شيخ الإسلام ، فالسيد فضل باشا العلوى، فالسيد أسعد ، فالسيد أبو الهدى ، فالسيد جمال الدين الأفغانى ، فناظر الأوقاف فبعض الخاصة من الوزراء والمشيرين ، فيشير جلالتهُ إليهم بالسلام بيدهِ الكريمة وفى بعض الأحيان يكلم شيخ الإسلام كلمة أو كلمتين تشريفًا لقدره ، وربما ميز بعض الواقفين بابتسامة . ثم يصعد إلى المكان المخصص لصلاتهِ فيصلى فيه وحدهُ وصفوف العساكر العثمانيَّة واقفون فى تلك الساحة ينتظرون تشريف جلالتهِ للسراى بعد تأدية الصلاة .

أما المراقبة والمحافظة على المسجد من جهاته الستّ فلا يقدر على وصفها واصف ؛ وإنك لترى على كل نافذة من نوافذ المسجد حافظين غليظين يمنعان كل قاصد للنظر منها مهما بلغ من القدر والشأن . وعلى سطح المسجد عشرات من العيون والأرصاد . ولا يدخل المسجد مصلٍّ إلاَّ إذا فتشهُ المراقبون تفتيش اللص سرق فص خاتم ، فإذا دخل المسجد جلس عن يمينه جاسوس وعن شماله جاسوس ، ومن خلفه اثنان وكلهم مستوفزون للوثبة عليه . فإذا أراد المسكين أن يصيح بأنهُ مظلوم ضرب أولئك الأعوان على فمه قبل أن يلفظ الميم ورفعهُ الأربعة مطويًا كطيِّ السجل للكتاب وأوصلوهُ إلى سجن الاستنطاق . وهناك يسلّ المستنطق خيط نخاعه بعد أن جمع الأشقياءُ بين أضلاعه . ولهذا قل الواردون على الجامع للصلاة من الخارج . فخلا للجواسيس والأعوان ، وأن الخطيب ليتجنب في خطبته كل آية وكل حديث فيه ترغيب في العدل أو تنفير من الظلم أو إيماءُ إلى موعظة من نهى عن منكر أو أمر بمعروف . ولا يدور في تلك الخطبة من كل جمعة إلاَّ حديث واحد اختاروهُ لبعده عن كل تأويل وهو « إن اللّه جميل يحب الجمال » ، فإذا جاءَ عيد الأضحى استبدلوهُ بحديث آخر وهو قولهُ : « سمنوا ضحاياكم » ، وهكذا في مساجد الآستانة لا يخطب الخطباءُ إلاَّ بهذين الحديثين .

فإذا قضيت الصلاة خرج جلالة السلطان بالهيئة الَّتي دخل بها وصاح العساكر الواقفون في انتظار جلالته بالتهليل والتكبير والدعاءِ وانفض الجمع وذهب العساكر كما جاءوا إلى مواضعهم .

وهنا نذكر حكاية : مرّ على الآستانة من أقصى الغرب رجل من العلماء فيه خشونة البادية ، ولما رأى الموكب السلطاني ووقوف آلاف من العساكر المسلمين لا يصلون في وقت الصلاة سأل أحد مشايخ الحضرة السلطانيَّة بعجرفة لا تليق بأدب الخطاب مع قاضي عسكر روم ايلي بقوله : يا شيخ الآستانة أيجوز في الشريعة أن يقف عشرة آلاف من المسلمين حول المسجد الجامع وقد سمعوا أذان الجمعة وشهدوا الناس يصلونها ولا يجسر أحد منهم أن يصليها للحكم القاهر عليهم . سبحان اللّه ، يا شيخ الآستانة قد أصبح حكم العبد فوق حكم الرب ، قال

اللّـه تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلىٰ ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (٩) فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ ، وقال الضابط للعساكر : قفوا هنا ولا تصلوا ، فأطاع العبدُ العبدَ ، وعصى العبدان الرب . أتريدون نصراً من اللّـه بعد هذا واللّـه يقول : ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ ، وإن خذلاننا لدليل عصياننا . إن اللّـه لم يبح للمسلمين ترك الصلاة فى حال من الأحوال ، وقد عرفنا اللّـه كيف نصلى صلاة الخوف ، فقال يخاطب الرسول ﷺ : ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً (١٠١) وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرىٰ لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضىٰ أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً (١٠٢) فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ ، وأن الأئمة نوابُ رسول اللّـه ﷺ فى كل عصر قوّام بما كان يقوم به ، فكان الخطاب لهُ متناولاً لكل إمام يكون حاضر الجماعة فى حال الخوف فعليه أن يؤمهم كما أمّ رسول اللّـه ﷺ الجماعات الّتى كان يحضرها ، يا شيخ الآستانة إن اللّـه أمر النبى ﷺ أن يُقسّم المؤمنين طائفتين تصلى واحدة وتحرسها أُخرى فى ساعة الفزع الأكبر والدماءُ سائلة والقلوب طائرة ، والألباب طائشة والعدو بالمرصاد يرصد الغرة وينتهز الفرصة والرسول ﷺ واقف

لتشييد الدين ولا أرى ياشيخ الآستانة عندكم شيئًا من الخوف يستوجب تقسيم المسلمين طائفتين ، فكيف ساغ لكم أن تنهوا المسلمين جميعًا عن الصلاة عند إقامتها أمامهم ؟

قال لهُ شيخ الآستانة هذه سياسة فيها إرهاب العدوّ ، ألا ترى للأجانب قد احمرت وجوههم عند رؤية هذا الموكب السلطاني .

قال الشيخ المغربي : أنا أعلم شيئًا من الشريعة والشريعة فوق السياسة ، فإذا كان لديكم في هذا مخلص شرعي فانشروا به رسالة على المسلمين حتَّى يطمئنوا على دينهم الذي وضعوهُ في أيديكم وإن لم يكن عندكم مخلص شرعي فلا تكتموا السلطان حكم اللّه ، ولاتغيروا اعتقاد المسلمين في تقواهُ ؛ وإن سكتم عن الاثنين فالإثم عليكم لا على السلطان . فتغير وجه شيخ الآستانة ، وقال للفقيه المغربي : إن بقيت في الآستانة إلى الغد يا فضولي أكلتك الأسماك . فخرج الرجل وهو يقول : واللّه ما تساهلتم في هذا الأمر العظيم الذي يشق قلب الدين وأخفيتموهُ عن السلطان إلاَّ لتحفظوه للطعن عليه عند كفران نعمته وخروجكم عليه . فلما سمع شيخ الآستانة همهمة الرجل بهذا الكلام سعى سعيهُ فأحاطت بالرجل مكايد الجواسيس وحفت به دسائسهم فطلب النجاة من دار الخلافة وخرج مع البازي عليه سواد .

نصف رمضان (*)

في اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك من كل سنة تهبط العظمة الإماميَّة هبوط الجلال والرحمة من سماء يلديز إلى السراي القديمة الَّتي كانت مشرَّفة بسكن السلاطين من آل عثمان في قديم الزمان . وهذه السراي واقعة على البوغاز من جهة ومتصلة بجامع أيا صوفيا من جهة وبالباب العالي من جهة أُخرى وهي تحتوي على المخلفات النبويَّة مستودعات الخلافة والسلطنة الَّتي حفظها السلاطين حفظ الروح ووضعوها بجانبهم والقرب منهم مبالغة في حفظها وتكريمها أولاً وتبركًا بها ثانيًا. لا زالت لهم وفيهم ما مرَّت الغداة وكرّ العشيّ .

(*) المقطم ١٩٧٦ ، ٢١ سبتمبر ١٨٩٥

وقبل ذكر هذا الموكب الجليل والمحفل الشريف نذكر ما تتخذهُ السلطنة من أساليب الاحتياط لهُ وأفانين التيقظ لسلامته من شوائب ما يكدر الصفاء على زعمهم . واللّه يعلم أن الأمة العثمانيَّة أشد حبًا لسلطانها وأحرص على حياته منها على حياتها ولكن الجواسيس يجدون كل يوم نوعًا من الفتنة لإبعادها عن سلطانها وإبعاد سلطانها عنها .

قبل ميعاد الاحتفال بشهر أو أكثر تشتغل نظارة الضبطيَّة ، ونظارة الجمارك، ونظارة العسكريَّة ، ونظارة البلديَّة ، وسفارات الدولة فى أوربا ، والمشايخ فى الآستانة والجواسيس الخارجيَّة والداخليَّة لهذا اليوم المعلوم .

فوظيفة نظارة الضبطيَّة فيه أن ترتب الجواسيس من الرجال والنساء ليدخلوا البيوت المسكونة الواقعة على جانبى الطريق بأوهى المناسبات ليراقبوا حركات سكانها وزائريها فى هذا اليوم . ثم تأخذ مفاتيح البيوت الخالية الواقعة على ذلك الطريق لتأمن أن يكمن فيها كمين سوءٍ ، ثم تملأ السجون بعباد اللّه الذين يشتبهُ الجواسيس فيهم وأكثرهم من أصحاب الدعاوى والشكاوى فتلتقطهم بتعللات ملفقة لتأمن غوغاءهم فى ذلك اليوم على زعمها .

وتصرف نظارة الجمارك مجهودها وتبذل مقدورها فى إمعان البحث والتنقيب عن جميع الواردات إلى الآستانة خشية إن يفلت شيءٌ من الديناميت . وكثيراً ما تؤخر تسليم البضائع لأصحابها حتى ينقضى ذلك اليوم .

وتشتغل نظارة البلديَّة بفرش الطريق بالحصباء والرمل وهى تُسرُّ البحث فى الأرض تحت ظاهر هذا العمل عما تظن أن يخبأ من كرات الديناميت ، ظنٌّ باطل ورأى عاطل ولكن الجواسيس يعلمون الناس الخيانة وارتكاب المفاسد .

وتشتغل نظارة العسكريَّة بالمحافظة على الكوبرى فيبيت الضباط والعساكر فى الصنادل تحتهُ ليلة ذلك اليوم المعهود وتمتد فوقهُ الإدارة العرفيَّة تلك الليلة ، فلا يعبر عليه أحدٌ إلاَّ أُحيط بنظراتهِ ولفتاتهِ . وقد وقع مرةً من رجل عبر عليه شيءٌ فانحنى لتناولهِ فأكبَّ عليه الجواسيس والأعوان وأخذوهُ أخذ العزيز الذليل ولهذا ترك الناس المرور عليه فى تلك الليلة .

وتشتغل سفارات الدولة فى أوربا بالاستخبار عن الفوضويين إن كانت أفكارهم قد توجهت نحو الشرق أو سافر أحد منهم إليه .

ويشتغل المشايخ – ونعم ما يشتغلون لو اقتصروا عليه – بقراءَة الأحزاب والأوراد والدعاء والابتهال إلى اللّـه فى تلك الليلة المباركة أن يحفظ للإسلام خليفتهُ .

وتراقب الجواسيس جميع المراقبين لهذه الأعمال فلا يمر ذلك اليوم إلاَّ وجميع المشتغلين بهذه الأشغال نيام من المتاعب والمشاق الَّتى تحملوها . وما ظهر عنها إلى اليوم خيانة من الأمة الصادقة تدعوهم إلى تحملها دائمًا ولكن النياشين والرتب والأموال مسببة عن هذه الترهات ، فكيف يتركون السبب فيحرمونها .

وقد وجد بعض الدهاة من أصحاب الحاجات طريقًا قريبًا لقضاءِ أشغالهم فأخذوا يبعثون قبل يوم الخرقة بيوم أو يومين تلغرافات شديدة المآل من مكرى كوى فى ضواحى الأستانة إلى جلالة السلطان نفسه بعبارات تشف عن اليأس والضجر ، فلا يلبثون أن يدعوا إلى السراى للإفطار والإكرام وقضاءِ حوائجهم ببركة ذلك اليوم العظيم .

فإذا كان الضحى من يوم تلك الليلة اصطفت العساكر العثمانيَّة كالبنيان المرصوص من يلديز إلى السراى القديمة صفين على جانبى الطريق – والمسافة بين يلديز وبينها تزيد عن مسير ساعة – وخرج أهل الآستانة من الرجال والنساء والأولاد للتبرك برؤية الإمام حافظ أمانات الرسولﷺ فيقفون وراءَ صفوف العساكر، والجواسيس منبثون بين ظهرانيهم وفى طيَّات اجتماعهم . ولا يزال جميع الواقفين فى انتظار موكب السلطان حَتَّى يمر بهم وفى وسطه المركبة المذهبة تحمل جلالة السلطان ، وقد أحاط بها وازدحم حولها الياوران ازدحام العطاش الهيم على المورد العذب ، فلا يدعون فرجةً ولا خصاصًا للأمة المحرومة أن ترى سلطانها وإمامها . وما ترى الأمة إلاَّ لمعان الذهب وأشعة الجواهر وأشخاص الياوران تطير بها الجياد السبق حول المركبة :

وأجلُّ علم البرق فيها أنها ... مرَّت بجانحتيهِ وهى ظنونُ

فيرجع الناس والأسف ظاهر على وجوههم لعدم تمكنهم من رؤية الإمام ، وإذا سألت كثيراً من أهل الأستانة عن سيماء جلالة السلطان نكسوا رؤوسهم حياءً لعجزهم عن وصف ما لم يروا وقد حرمهم جلالتهُ أيضًا أن يروا صورتهُ بالفوتوغرافيًا . أما الصور الَّتى نراها فى أيدى الناس بدعوى أنها صورة جلالته فليست منها فى شىءٍ .

هذا ثمر ما غرسهُ الجواسيس ونتيجة ما قدموهُ . وقد قالت زوجة أحد سفراءِ النمسا فى الأستانة لجلالته أنى أرى أن الأمة العثمانية تحب جلالتكم وتتمنى رؤيتكم ، فلو أحسن عليهم جلالة السلطان بالخروج عليهم فى بعض الأحيان لكان ذلك عندهم أجلَّ إحسان من لدن جلالتكم . فشكرها جلالة السلطان على كلامها ، ولكن أقسم الجواسيس أنها تقول هذا لمآرب ومقاصد .

وعلى ذكر حب الأهالى الذى شهدت به هذه السيدة لهذا البيت الرفيع بيت الخلافة والسلطنة نذكر ما وقع للمرحوم السلطان عبد المجيد ، فإنهُ خرج يومًا لصلاة الجمعة فى أحد مساجد الآستانة فوجد فى انتظاره كثيراً من العساكر على خلاف العادة فسأل السر عسكر عن اجتماعهم ، فقال : إنهُ بلغنا أن بعض السفهاء يقصدون تكدير الصفاء بالاجتماع والغوغاء فى الطريق . فقال الخليفة : أرجعوا العساكر إلى مواضعهم حالاً ؛ ثم التفت إلى من حولهُ من الرجال وعيناهُ تنوبان عن لسانه فى الانتهار وقال : إذا كانت الأمة لا تريد أن أكون حاكمًا عليها أقبل أنا أن تكون محكومة لى . وبعد تأدية الصلاة أمر أن لا يتبعهُ إلاَّ ياور واحد وطاف بنفسهِ جميع شوارع الآستانة ، فكان الناس يقعون على مواطئ فرسهِ يقبلونها . وما رأى الراؤون يومًا فى الآستانة أملك لمجامع القلوب وأشرح للصدور من ذلك اليوم . هذا الكلام لا يصدر إلاَّ عن همة ملك فى سلسلة آبائه ثلاثون سلطانًا ملأوا الأرض بعظمتهم ورهبتهم . وكنا نسمع عن جلالة السلطان عبد الحميد كلامًا مثلهُ أو أعزَّ منهُ لو أراحهُ الجواسيس من كيدهم .

فإذا وصلت المركبة السلطانيَّة إلى سلم السراى صعد جلالة السلطان . والصدر الأعظم وشيخ الإسلام والوكلاءُ والوزراءُ والمشيرون وصدور العلماءُ واقفون وقوف

الخشوع بالملابس الرسميَّة والنياشين فيدخل جلالة السلطان قاعة الاستراحة فيستريح هنيهة ، ثم يدخلون إلى المكان الذى يفخر على كل مكان لشرف احتوائه على المخلفات النبويَّة فيفتح الحفظة أمام جلالته صندوقًا من الفضة ويخرجون منهُ تلك المخلفات فيقبلها جلالتهُ ، ثم يضعونها على مائدة . وهى البردة الَّتى أعطاها النبىﷺ كعب ابن زهير وسنٌّ من أسنان المصطفى ﷺ وشعرات من شعره الشريف ونعالهُ الشريفة وبقيَّة من البيرق الشريف ، وإناءَان من الحديد لسيدنا إبراهيم الخليل – عليه السلام – كان يشرب بهما الماء من زمزم ، وجبةُ الإمام أبى حنيفة رحمه اللَّه ، وذراع سيدنا يحيى – عليه السلام – . ويقف جلالة السلطان أمام تلك المخلفات ، ويقف الغازى عثمان باشا بجانبها ولديه مناديل بيض مكتوب عليها بالحرير الملوَّن بعض الجمل المباركة . ثم يدخل الزائرون فيعطى عثمان باشا لكل واحد منديلاً بعد أن يمسح به المخلفات فيقبلهُ آخذهُ وينصرف ويأتى غيرهُ حَتَّى تنتهى الزيارة .

وتنحصر زيارة المخلفات فى رجال الرتبة الأولى من الصنف الأول فما فوقها ، ومن رتبة الفريق فما فوقها ، ومن باية الحرمين ، وروم إيلى بكلربكى فما فوقهما وجلالة السلطان واقف . فإذا انتهت زيارة الرجال دخلت السيدات على مراتبهنَّ ، فإذا انتهت زيارتهنَّ أعادوا المخلفات إلى صندوقها وأغلقوهُ أمام جلالته . وفى خلال تلك الزيارة الشريفة لا يخلى الجواسيس جلالة السلطان من تقديم التقارير متتابعة فيقرأها فى وقتها . وقد كتب لهُ جاسوس فى إحدى الزيارات أن الكوبرى وُضع فيه ديناميت فاندكت أركان السراى لهذا الخبر الفظيع والنبأ الشنيع ، وماج الناس وبعث جلالة السلطان بأمنائه واحداً عقب واحدٍ لتفتيش الكوبرى ، فما وجدوا شيئًا وما عوقب الجاسوس الذى حلَّ نظام الزيارة بقذف الرعب فى القلوب – لاحتمال أن يصدق مرةً فى المستقبل – وقد عاش أولئك الجواسيس عشرين سنة يقدمون التقارير فينهبون بها نفائس أوقات السلطان وما سمعنا أنهم كشفوا لجلالته مؤامرةً ولا أظهروا عصبةً للفساد ، ولا بينوا جمعيَّة للشرور ، وإنما هو كذب فوق كذب ، وإفك فوق إفك يحلون به عرى الصداقة والولاء من القلوب الصادقة . ومن حظهم أن لا عقاب عليهم لاحتمال أن يصدقوا فى العمر مرة واحدة .

وفى أكثر السنين يفطر جلالة السلطان فى تلك السراى ، فيأتى الخدم من سراى يلدير بالأوانى الذهبية المرصعة والموائد الفضيَّة وما يتبعها من أنواع الزخارف والزينة

الَّتى لا توجد عند جميع ملوك الأرض لإفطار جلالته فيملأون بها سفينة كبيرة . وفى السنة الَّتى قبل الماضية أفطر جلالتهُ فى مستودع المخلفات النبويَّة الَّتى بقيت ثلاثة عشر قرنًا ملتثم شفاه الملوك والسلاطين وما هى بذهب ولا بحجر كريم ، وإنما هى صوف خشن من لباس خاتم المرسلين ﷺ . فتمد هنالك موائد العظمة المناسبة لأبهة السلطنة . ولكن لما كان الزمان قد أخذ على نفسه أن لا يتم سرورًا غرقت السفينة وهى عائدة مشحونة بالمواعين السلطانيَّة فى ليلتها وغرق خمسون خادمًا كانوا فى خدمة المائدة وأُمرت الجرائد أن لا تكتب فى ذلك حرفًا .

ثم يعود جلالتهُ أحيانًا من طريق غير الذى جاءَ منهُ ، فإذا دخل يلديز اطمأنت القلوب وسكنت الخواطر واستوت سفينة النجاة على الجودىّ :

وما الخوف إلاَّ ما تخوَّفهُ الفتى   ولا الأمن إلاَّ ما رآهُ الفتى أمنا

التفسير الشريف (*)

من أجلّ شعائر الخلافة وأفضل عوائد السلطنة قراءَة التفسير الشريف فى شهر رمضان المُعَظَّم فى السراى السلطانيَّة بحضور جلالة السلطان وهذه عادة ابتدأ أسلاف جلالته بها منذ مائة وخمسين سنة ، فبلغ الدرس الآن من التفسير إلى آخر سورة الأنفال . وعدد الدروس عشرة تقرأُ فى أثناءِ الشهر المبارك من كل سنة .

فتنتخب السراى عشرة من العلماء من المنسوبين إليها والمعروفين لديها بالأوصاف اللائقة لحضور هذا المحفل الجليل ، وتنتخب لكل واحد منهم عشرة من طلبة العلم الموصوفين بمحاسن الآداب يحضرون يوم حضور مدرسهم لقراءَة درسه ، فيسألونهُ

(*) المقطم ١٩٨٢ ، ٢٨ سبتمبر ١٨٩٥ .

بعض الأسئلة فى الذى يقرأهُ من التفسير وهوَ يجاوبهم وأسئلتهم وأجوبتهُ معلومة لجلالة السلطان قبل الدخول إلى الدرس حفظًا للهواجس وتقييداً للخطرات أن تنحدر على اللسان والبلاءُ موكل بالمنطق . وتعيين أيام الدروس فى أثناء الشهر موقوف على صدور الإرادة السنيَّة به فيحضر المدرس صاحب اليوم بأصحابهِ العشرة من طلبة العلم إلى المابين بعد صلاة الظهر فيدخلون إلى المكان المخصوص لقراءة الدرس ويدخل المشايخ ورجال المابين الذين يختارهم جلالتهُ لشرف الحضور لهذا الدرس ، فيجلسون الجميع جلسة الصلاة ما بقى الدرس على شكل هلال ونجم ذلك الهلال كرسى جلالة السلطان الذى يجلس عليه . ويبتدئُ المدرس فى القراءة والطلبة فى الأسئلة المعلومة حَتَّى ينتهى الدرس قبيل صلاة العصر وجلالة السلطان جالس يسمع تارة ويقرأُ تارةً من الأوراق ما لا يحتمل تأخيراً ، ولا يجيز الاعتناءُ بها إرجاءً ، فإذا انفض ذلك المحفل الدينى الشريف أخذ المدرس والطلبة عوائدهم من الإحسان السلطانى وانصرفوا بعد قراءة الفاتحة داعين شاكرين ، لا زالت هذه العادة الشريفة جارية فى هذا البيت الرفيع القدر ما هلَّ على المسلمين هلال الشهر .

ديش كراسي (أجرة الأسنان)

هذه عادة قديمة من عوائد بيت السلطنة فى شهر رمضان ، وهى أن يعطى لمن يفطر فيه بعد الإفطار من الصدر الأعظم وشيخ الإسلام إلى من يسعدهُ الحظ بالإفطار فيه من آحاد الناس صرّة من النقود تناسب قدر المفطر فيعطى من ألف ليرة إلى ربع ليرة ، ويقدَّر ما يصرف لهذه العادة فى الشهر المبارك من ستين ألف ليرة إلى سبعين ألفًا . وقد انحصر أكثرها هذه السنوات الأخيرة فى طائفة الجواسيس ، فهم يذهبون إلى السراى أفواجًا قبل الغروب فيدخلون إلى حجرات الذين يقدمون تقاريرهم بواسطتهم من رجال المابين ، وبعد الإفطار يكتب صاحب الحجرة أسماء الذين أفطروا عندهُ من الجواسيس ، ويبعث بها إلى جلالة السلطان وجلالتهُ يعرفهم بأشخاصهم أو يدخل بها عليه فيعطى جلالتهُ لكل واحد منهم على قدر ما تستحق خدمتهُ من عشرين ليرة إلى مائة ليرة ، وإذا أغفل جلالته واحداً منهم طلب عادتهُ بورقة يقدمها

إلى اليد الشريفة طلب الحق الواجب دلالاً من الجاسوس على تلك السدة السلطانيَّة . وقد صبَّ الجواسيس على صحائف أعمالهم الَّتى لم يبقَ منها سن إبرة لكتابة عمل سيئ فى هذا الشهر المبارك شهر الخيرات والحسنات درديّ ما بقى فى مخيلاتهم من عكر السعايات والوشايات فيكدرون صفاءَ عيش الناس فى صيامهم وصلاتهم وعبادتهم ليذكروا بحسن قيامهم بالخدمة فتسمن صررهم بعجافة ذممهم ويساعدهم على التوسع فى أساليب الفتنة ضرورة اجتماع الناس بعضهم ببعض فى هذا الشهر المُعَظَّم فى المساجد وأماكن العبادة كآيا صوفيا ، وجامع بايزيد وجامع الفاتح ، فإن الناس يذهبون إليها لصلاة العصر وسماع الوعظ – كلمة بقيت من كلمات العصر الأول – ولا يخلو يوم من أيام الشهر المبارك من سجب واعظ من كرسى الوعظ إلى مهواة الاستنطاق في هذه المساجد فيُنثر الجمع من حوله نثر السبحة أو العُقد خانهُ النظام بسطر يكتبهُ جاسوس لتأويل كلامه فى درسهِ إلى أمر بمعروف أو نهى عن منكر فيخرج الناس من المسجد عقب هذا المنظر وقد علا وجوههم اصفرار الخوف فوق فتور الصوم ، فإذا نظر أحدهم إلى وجهه فى مرآة أنكر نفسهُ .

وفى أواخر الشهر يفطر الضباط والعساكرُ فى السراى فيعطى للضابط أجرة أسنانهِ قيمة مرتبه الشهرى ويعطى للعسكرى كذلك .

والعساكر خارج الآستانة يصومون الدهر جوعًا ويُحرمون طول عمرهم من غير عرفة ، لأن الدولة لا تكسوهم ولا تُطعمهم ، وإنما تطلب منهم أن يموتوا فى حبها (*) .

وفى شهر رمضان يقوم سوق فى جامع بايزيد يسمونهُ السركي ، أى المعرض يحتوى على البضائع والتحف النفيسة وأنواع المأكولات وأصناف الحلواء فيقصدهُ الوكلاءُ والوزراءُ والكبراءُ فيجلسون على الحوانيت لتمضية الوقت من آخر النهار ، ولا يكلم بعضهم بعضًا إلاَّ كلام الزيارات الرسميَّة من وصف البرد والحر والثلج ، والمطر خوف التاجر والبائع والخادم والواقف والماشى ، لأن جُلَّ الداخلين إليه من

(*) النص من « والعساكر خارج الآستانة » إلى « يموتوا فى حبها » غير موجود فى المقال الأصلى .

الجواسيس . وهذا المعرض عند أهل الآستانة يفوق معرض باريس فى انتظاره وقدره فإن العظماءَ ينتظرونهُ طول السنة لتفريج الهمّ والغمّ ساعة من النهار ، فيدخلون فيه ويزاحمون العامة والباعة بأكتافهم دخول المطلق من السجن فى حديقة الأزبكيَّة فى ليلة مقمرة وساعة مطربة ، ولكنهم حرموا فيه تلك الحريَّة ، بل تلك الأم البرة والوالدة المشفقة الَّتى نشرت جناحها على تلك الجنة المصريَّة واللَّه يعلم أن كل ساكن فى الإستانة مهما بلغ من القدر لا يدرى أتدخل عليه الشمس صباحًا من نافذة البيت أو نافذة السجن ، ولا يدرى طارق بيته ألخير أم لشر . ولو دهم أهل الإستانة شر هؤلاءِ الجواسيس دفعة واحدة لم يحملوهُ ، ولكن للتدريج سرًا طبيعيًا فى احتمال الأذى .

ليلة القدر

هذه الليلة إحدى الليالى الخمس الَّتى يسمونها ليالى القنديل ، لأنهم يسرجون فيها القناديل على منارات الجوامع فى أرجاء الآستانة . وهى لية القدر . وليلة مولد النبى ﷺ . وليلة الجمعة الأولى من رجب واسمها (ليلة رغائب) ، وهى الليلة الَّتى حملت فيها أم النبى ﷺ به ،وليلة المعراج . وليلة النصف من شهر شعبان واسمها عندهم (ليلة برات) أى ليلة العتق ويحييها جلالة السلطان فى الجامع الحميدى ، وفى صباحها يفد كبراءُ الدولة على المابين لتهنئة الحضرة السلطانيَّة بها ويهنئُ الناس بعضهم بعضًا بتلك الليالى المباركة .

فيصعد الكبراءُ والأمراءُ والعظماءُ إلى الجامع الحميدى بعد العشاء فى الليلة السابعة والعشرين من شهر رمضان ، وهى ليلة القدر فيقفون فى انتظار بزوغ النور الإمامىّ من مطلع يلديز حتى يخرج جلالتهُ على هذه الجموع بين أنوار الشموع ، ونور الإمامة غالب على كل نور ، فإذا جلس جلالتهُ فى مكانه الخاص به قرئَ المولد النبوى ، وأقيمت الأذكار ، ورتل القرآن ، ورفعت الأصوات بالدعوات ، ثم يرجع جلالتهُ فى هذه الأبهة ، وهذا الجلال إلى مقر عرشه الحميدى .

عيــــد الفطـــــر

يخرج جلالة السلطان لصلاة العيد في موكبه المشهور بالحُسن والجمال والأبهة والجلال فيصل من يلديز إلى جامع بشكطاش ، وبعد تأدية الصلاة يركب جلالة السلطان جوادًا ويمشي تحت ركابه عثمان باشا الغازي والصدور والوكلاءُ والوزراءُ مشاة على مقربة من الجواد وعلى جلالة السلطان كسوة ملازم من ضباط الجيش والنشان العثماني فوقها ولا يزال الموكب سائرًا حَتَّى يصل إلى سراي (طوله بغجه) وهي من أشهر الأبنية في العالم حسنًا وجمالاً ، وقد صرف على بنائها في زمن المرحوم السلطان عبد المجيد أربعة ملايين ليرة ، وصرف على بابها المَرْمَر المصنع بالذهب ثمانون ألف ليرة ، ولا يوجد في أبنية الدنيا مثلهُ وهي خاليةٌ . وكان هذا أول دَيْن اقترضتهُ الدولة . أما بهوها فوحيد في بابه ، وفي وسطه تخت السلطان الغوري المرصّع وعليه يجلس جلالة السلطان يوم العيد ، وأول من يدخل على جلالته نقيب الأشراف ، فيقف بين يديه وجلالتهُ واقف ، ثم يدعو لهُ بطول العمر والتأييد ، وبعدهُ يدخل الصدر الأعظم فيقبّل ذيل ثوبه ، وكذلك شيخ الإسلام ، ثم يدخل الوكلاءُ فيقبلون رجله ، ثم يصطفون ويجلس جلالة السلطان فيدخل المأمورون من الرتبة الأولى من الصنف الثاني من القلميَّة ، ورتبة ميرميران من الملكيَّة ، ورتبة مير لواء من العسكريَّة ، ورتبة مكه بايه سي من العلميَّة فما فوقها فيقبلون هُدَّابًا اسمهُ السجق يمسكهُ عثمان باشا عن يمين التخت ، فإذا انتهت التشريفات عاد جلالة السلطان على مركبته السلطانيَّة إلى يلديز فيأتي تراجمة السفارات للتبريك بالعيد من طرف سفرائهم .

ثم تتوارد تلغرافات التهاني من الملوك والإمبراطورات ومن الحضرة الفخيمة الخديويَّة ، ثم من شريف مكة فيجاب عليها بإرادته السنيَّة ولا حاجة إلى ذكر الاحتياط والحذر والتحفظ والتحرز وما يؤخذ لهذا اليوم من قبل ، فقد تقدم الوصف .

عيـــــد الأضحى

لا يختلف عن عيد الفطر إلاَّ فى ذبح ثلاثين كبشًا يذبحها موظف مخصوص اسمهُ قربانجى باشى عن جلالة السلطان ، ويختلف أيضًا بتغيير حديث الخطبة فيوضع مكان : (إن اللّه جميلٌ يُحب الجمال) (سمنوا ضحاياكم) .

أول السنة الجـديدة

للسلطنة عادة فى هذا اليوم ، وهى أن يعطى للوافدين على السراى السلطانيَّة التهنئة بافتتاح السنة من أعضاء العائلة السلطانيَّة إلى صغار المأمورين نقود مضروبة بتاريخ السنة الجديدة ، فيعطى من ألف ليرة إلى الليرة الواحدة والكبراءُ الذين يأخذون من تلك النقود يعطون منها فى عودتهم لأولادهم ومنتسبيهم تفاؤلاً وتبركًا بها وكان الصدر الأعظم فى الماضى إذا رجع إلى الباب العالى أعطى لمأموريه من تلك النقود ، ولكن بطلت هذه العادة باتصال المأمورين بالحضرة السلطانيَّة بواسطة التقارير السريَّة ، فهم يأخذون من جلالته مباشرة كما يأخذ الصدر الأعظم وشيخ الإسلام .

ليلة المولد النبـــوى

هى من ليالى القنديل الخمس الَّتى ذكرناها والرسم فى إحيائها جميعها لا يختلف فتسرج منارات المساجد عمومًا ويحضر جلالة السلطان فى الجامع الحميدى لإحيائها بالقراءات والصلوات .

الميــلاد الســلطانى

هـذا الميـلاد يقـع فى اليـوم السـادس عشـر من شـهر شـعبان المُعَظَّم ووصـفهُ لا يختلف عن وصف عيد الجلوس الذى تقدم ذكرهُ .

المقالة الحادية عشرة

تقليد المناصب العثمانيّة(*)

كنت يومًا أحدث فاضلاً من العثمانيين قبل أن أدخل الآستانة وأعرف أحوالها ، فقال لى : إذا رأيت أو سمعت فى بلد من بلاد الدولة العثمانيّة بطاغية من طواغى الظلم وداهية من دواهى الغشم سلاّبًا نهابًا فتاكًا هتاكًا أفاكًا ، غليظ القلب شديد الوطأة على الرعيّة وديعة اللّه الضائعة ، طائش اليدين فى إهراق الأحمرين الذهب والدم ، مخضب اليمين بالدم واليسار بالذهب يُميت السُّنة ويُحيى البدعة ، ويُحرِّم الحلال ويُحل الحرام وينظر شزرًا وينأى كبرًا ويشمخ أنفًا ويلعن ألفًا ، فاعلم أنهُ ما خرج من الآستانة إلاَّ وهو عاقد العزيمة على ارتكاب هذه الكبائر لما قاساهُ وعاناهُ وما حملهُ على كاهلهِ من كبر القوم فى خروجه وما حطهُ عنهُ لهم من المال فى دخوله وما وقف عليه من الحقائق واطلع عليه من ضياع الأمور وفوضويّة الجمهور .

فحسبت محدثى يبالغ وظللت أعتقد ذلك حتى دخلت الآستانة وعرفت أحوالها ، فعلمت أن الرجل لم يقل غير ما يقولهُ كل من أقام فى ذلك البلد زمنًا .

يأتى المعزولون من المأمورين على اختلاف طبقاتهم زرافات ووحدانًا إلى دار السلطنة . هذا عزل لطول مدته فى وظيفته وذاك عزل لسقوط دعامتهِ وزوال حمايتهِ ، وهلمَّ جرًا فيدخلون وعيابهم مملوءَة بالمال ورؤوسهم بالآمال فيطوفون على بيوت الكبراء والوزراء والكُتَّاب والحجاب ، ويقدِّمون الهدايا والتحف للناظر والوكيل والكاتب

(*) المقطم ١٩٨٧ . ٤ أكتوبر ١٨٩٥ .

والحاجب والنديم والصاحب ، ويباشرون وظيفة الوقوف للسلام صباح مساء فيصطفون صفوف القائمين للصلاة على أبواب النظارات فيركعون لإشارة بالكف أو نظرة بالطرف ممن يمر عليهم من ولاة الأمور . ويقيمون على هذه الحال سنوات والكاتب يعدهم والحاجب يمنيهم وحبل الأمل مطوى على القلب لطوله طي البكرة ، كلما انفصل منهُ ثنيٌ بدا ثني . ولا ينفعهم ما يظهرون من علامات الفقر وإشارات الفاقة من الأسمال البالية والعيون الباكية ، لأن القوم أدهى من أن يخدعوا بهذا ، وكيف يخدعون وعندهم العيون والأرصاد عليهم ، فهم يعلمون بما لهم من الثروة والعقار فى بلادهم وما باعوا وما بقى ، فإذا استنزفوا ما يملكون وأخرجوهم من ما لهم خروج الحية من قميصها أعادوهم إلى الوظائف ليجمعوا لهم الأموال فى رجعة أخرى .

فيخرجون من الآستانة وقد وقفوا على القصد الحقيقى من السلطنة والدولة والخلافة والإمامة والجيوش والمعاقل والحصون والرتب والنياشين ، وهو حفظ ذات مولانا السلطان حفظهُ اللّه وأبقاهُ وجعل الأمة والدولة فداهُ ، فلا يرغبهم فى استبقاء وظائفهم عدل وإنصاف ، ولا يرهبهم خشية العزل ظلم واعتساف بعد إقامتهم فى تلك المدرسة أعوامًا وبعد دخولهم وراء الملعب ورؤْيتهم صور اللاعبين كما هى وبعد معرفتهم بخوف زيد وعجز عمرو وأكاذيب بكر وألاعيب خالد ، وبعد أن صارت القبة الّتى كانوا ينظرونها من بعدٍ حبةً من القرب . فلا ترى الرعيَّة منهم بعد ذلك إلاَّ نمورًا تمزق الأعضاء وأُسودًا تفرق الأشلاء ، وأفاعى ناهشات ، وعقارب قاتلات ، ولا يرون منها إلاَّ نقادًا وحملانًا ليس لها ما تدفع به .

وما رأيك فى قوم علموا أن الحكومة حظرت على المطبوعات أن تجمع فى جريدة بين حرفين لظلامة مظلوم أو شكاية شاكٍ ، وعرفوا أن لا عقاب على الرشوة ولا مؤَاخذة فى استعمال القسوة ولا جناح على الكاذب ولا عيب على الخائن ولا وصمة على المنافق .

قال رجل من الأتقياء الصلحاء لصاحب لهُ كان يعاشرهُ : « قد عزلونى ولا ذنب لى كما تعلم فجئت هنا وقد مضى علىَّ ثلاثة أعوام وأنا أبعثر الأموال وأقبل الأذيال حَتَّى لم يبقَ لى مال ولا لوجهى ماءٌ . أضحك إذا ضحكوا وأغضب إذا غضبوا وأحزن إذا حزنوا وألعن إذا لعنوا وأمدح إذا مدحوا ، وما نلت منهم إلاَّ وعدًا صار فى أذنى رعدًا مطرهُ من

دموعى الهتانة وبرقهُ من ثناياهم البسَّامة وقد مات أبى فى بلادى ، ومرض ابنى ووضعت زوجتى ، وبيع أثاث بيتى وصرت لطول المدة لا أقدر على الرجوع خائبًا ولا على الإقامة محتاجًا ، وقد عينونى فى وظيفة وقبل سفرى إليها حولوها إلى آخر لقوة المنسوب إليه وشدة نفوذه وهم يعدوننى الآن بوظيفة فى طرابلس الغرب وأنا أنتظرها انتظار المريض الشفاء وليس لى همّ إلاَّ أن أكون يومًا من الأيام فى عدد الذين يسلمونها إلى إيطاليا أو فرنسا » .

هذا حال المأمورين وهذه نياتهم وعزائمهم . أيصلح بهم بعد هذا أمر ويرأب بهم صدع ويرتق بهم فتق ويؤمن بهم على راحة وأمن . كلاَّ ثم كلاَّ .

أما الولاة فكثيراً ما يعزلون وينقلون من ولاياتهم بذنب أنهم محبوبون من الأهالى كما حصل لعثمان باشا والى الحجاز سابقًا ، فإنه عزل عن الحجاز بدعوى أن الأهالى يحبونهُ ويسألون اللّه فى الحرم أن يبقيهُ فيهم ، فجعلوا من هذا سببًا عظيمًا لعزله فعزل ، وإن كثيراً من الناس يوظفون فى الولايات لإبعادهم عن الآستانة فينفون على هذه الصورة ، فمنهم أحمد أفندى قدرى صاحب جريدة الاعتدال بقى فى الآستانة مدة طويلة بعد إلغاء جريدته يقاتل الاحتياج وأصحابهُ الذين ألغى كامل باشا جريدتهُ لأجلهم يجودون عليه بسد الرمقَ أحيانًا لإسكاته عن كشف ما يعلمهُ من مستور أمورهم ، ولما ضاق به الحال جاءَ إلى نظارة المعارف وقال على ملأ من الحاضرين : « إنى قدمت كثيراً من العرائض للباشكاتب ثريًا باشا لالتماس خدمة من جلالة السلطان ، فما أجابنى عنها بجواب وقد استعرت اليوم مسدسًا وملأتهُ بالرصاص وأنا عازم على قتل ثريًا باشا فى الجامع الحميدى عند حضور جلالة السلطان للصلاة » ، فطار الخبر إلى المابين فى الحال فصدرت الإرادة السنيَّة لناظر الضبطيَّة بأخذ المسدَّس منهُ أولاً وبتعيينه باشكاتب فى متصرفيَّة بلدته طرابلس الشام بألف وخمسمائة غرش وبأن يبقى فى الضبطيَّة حَتَّى تسافر الباخرة إلى تلك الجهة . وما أقدم قدرى أفندى مع ذكائه على هذا القول المستوجب للمحاكمة إلاَّ وهو على يقين أن يأتى بخيره ونجاحه ، لأنهُ كان من زمرة اللاعبين فى الملعب . فممن يخاف هذا المأمور بعد ذلك وممن يخشى ومن يقى عباد اللّه من بؤسه . وقس على هذا كلهم أو جلهم . قال نافع أفندى وهو من الولاة المعزولين ومن الطرز الأول لمنيف باشا وقد سمع بهذا وأشباهه قد طالت عطلتى وأنى أرتب الآن فى نفسى كلامًا يخشن مسهُ لا قولهُ أمام جاسوس عسى أن أُنفى لهُ بوظيفة فى الخارج .

ولقد صار الولاة والحكام والعلماءُ يراءُون بالرذائل والنقائص ليأمنوا على وظائفهم ويعيشوا في بلدتهم ومسقط رأسهم ونحن نذكر حكاية نموذجًا لهذا : تولى قاضٍ لإسلامبول من أهل التقى والصلاح وكان لهُ صديق حميم فتقدمت للمحكمة دعوى لصاحب من أصحاب ذلك الصديق فوجد من القاضى انحرافًا عن الحق . ولما خرج من عنده قال لهُ أحد الحجاب : كم تدفع لخلاص دعواك ؟ فلم يجبهُ ورجع إلى صاحبه وقصَّ عليه ما جرى ، فلم يصدق الخبر وذهب إلى القاضى ورجا منهُ أن ينصر الحق فى تلك الدعوى فوعدهُ . ولما عاد صاحب الدعوى إلى القاضى رأى منهُ ما رأى أولاً . وعند خروجه قال لهُ الحاجب ثانيًا : « لا تنتهى دعواك إلاَّ على ما بيَّنت لك » ، فذهب الرجل إلى صاحبه وحلف لهُ على صحة ما جرى ، فغضب الصديق ورجع إلى القاضى يعاتبهُ ويقبح مسلكهُ الذى اتخذهُ بعد توليته القضاءَ . وبعد جدال ونزاع طويل جرى بينهما قال لهُ القاضى : أتريد أن يشهر عنى خلاف ما عليه القوم فيحنقوا علىَّ ويسخطوا ويظنوا بى الظنون ويجعلونى غرضًا لهم . فخرج الرجل من عند القاضى وهو يلعن العذر والمعتذر ويقول : لن تفلح أمة يرائى قاضيها بالارتشاء .

أما نحن فنقول : إن كان القاضى صادقًا فى اعتذاره كان من فظائع البلاءُ أن يصبح الارتشاءُ بين قوم من الرياءِ ، وإن كاذبًا فمحمول على مسند القضاء فى الدولة ، كما قال أبو الحسن الجزار الشاعر وقد دعاهُ أصحابهُ يومًا ليخرج معهم للنزهة خارج المدينة فوقفوا فى طريقهم على جزار ليشتروا لحمًا وترجوهُ أن يقطعهُ لأنهُ أدرى بأطايبه ، فقطع لهم لحمًا رديئًا فلاموهُ ، فقال لهم : اعذرونى ولا تؤاخذونى لأنى لما وقفت وراءَ القرمة أدركنى لؤم الجزارين .

لا يشك خبير أن دار السلطنة أمّ العجائب فى تقليد الوظائف لغير أهلها وليس هذا قاصرًا على الوظائف الإداريَّة والقلميَّة والسياسيَّة ، بل تعداها إلى الرتب والمناصب العسكريَّة والبحرية . فمن أعجب العجائب أن رجلاً كان يمشى فوجد ضابطًا بحريًا بسيفه وملابسه الرسميَّة يقصدهُ فى طريقه ضاحكًا ، ولما دنا منهُ سلّم عليه والرجل ينكرهُ . فقال الضابط : أنا فلان . قال الرجل : ما هذا الذى أراهُ يا فلان وأنت لم توظف قط ولا دخلت زمانك العسكريَّة ؟ ارجع فاخلع ثيابك واعلم أن العقاب شديد على من يفعل ما فعلت ، ولا أرى إلاَّ رجال الشرطة يأخذونك إن لم ترجع فى الحال من طريق غير

مطروق ، فانجُ من مصيبة أوقعك فيها الشباب والجنون . قال الضابط : اصمت يا هذا فأنا لا أرضى أن أكون ضابطًا عسكريًا كما توهمت ، بل أني ضابط بحرى وأزيدك أيضًا أني عضو فى مجلس البحريَّة بموجب الإرادة السنيَّة . قال الرجل عوضنا اللّه فيك خيرًا ، فأنت رجل مختل الشعور ، ثم ودعهُ وانصرف مسرعًا يترقب إن كان قد رآهُ معهُ أحدٌ . وبعد يومين علم بصدق ما بالغ فى تكذيبه فخرج من الآستانة ولم يعد إليها .

ومن ذلك الفريقان الياوران محمد باشا ، ومحيى الدين باشا نجلا الأمير عبد القادر الجزائرى ، فإنهما كانا باديءَ الأمر برتبة الحرمين العلميَّة ، ثم انتقلا إلى رتبة روم ايلى بكريكى الملكيَّة فى دمشق الشام ، ولما قدما دار السعادة تقلدا رتبة الفريق بسيفها وشرائطها وهما لا يعرفان من تعليم الجندى حرفًا ، وقد أراد أحد الضباط لما سمع بهذا الخبر أن يكسر سيفهُ وقال : كلهُ يحتمل إلاَّ هذا .

(*) وكان الباب العالى مرجع الوزارات والولايات والسفارات والسياسات الدوليَّة ومصدر التوظيف والعزل والنقل وتوجيه الرتب والنياشين على مستحقيها وكان الصدر الأعظم مسئولاً أمام الحضرة السلطانيَّة عن جميع الشئون كبيرها وصغيرها فى أنحاء السلطنة ، ومع الدول فكان يتحرى جهدهُ مع زملائه فى مجلس الوكلاء فى ترتيب الأمور وسياسة الجمهور وتقليد الوظائف أربابها على أكمل ما يستطيع من حسن الترتيب . وما كان لأحد من الوكلاء والوزراء أن يخاطب جلالة السلطان فى شأن من الشئون ، ولا أن يذهب إلى المابين من غير إذن من الصدر الأعظم الذى هو الوكيل المطلق بنص فرمان الصدارة . فانحل ذلك النظام واختل ذلك الترتيب وصار الصدر الأعظم لا يعلم بتوظيف زيد وعزل عمرو إلاَّ بعد أيام من وقوعه وصار الباب العالى ديوانًا للقيد والتسجيل وانحصرت أمور الدولة فى رجال المابين فاختلطت الوظائف بعضها ببعض وتقلدها غير أربابها وأصبح الشيخ سفيرًا فى سياسة الدولة مع الإنكليز كالسيد أحمد أسعد ، وطابخ الشاى واليًا كعزت أفندى ، ولاعب التياترو مابينجيًا يبعث إلى السفراء كعارف بك وهلمَّ جرًا على هذا النمط حتَّى أمست الوظائف كخرزات مختلفة الألوان وضعها واضع

(*) المقطم ١٩٩٤ ، ١٢ أكتوبر ١٨٩٥ .

فى جعبة ، ثم جلجلها ما استطاع وفتحها فانكب عليها شبان المابين يفرقون ما وقع فى أيديهم على أصحابهم . فكانت نتيجة هذا ما تراهُ اليوم من حال الدولة فى نصفها الثانى بعد ضياع النصف الأول .

وآخر صدر حافظ على حقوق وظيفته خير الدين باشا ، فإنهُ استؤذن عليه يومًا لبهرام آغا وكان فى ذلك الوقت باشمصاحب ، ولما دخل عليه قدّم إليه جدولاً بأسماء أشخاص يوظفهم وآخرين يزيد فى رواتبهم . فقال لهُ الصدر : ما لك وهذا يا وصيف قف حيث أوقفتك وظيفتك على باب الحرم ولا تدخل فى شغل غيرك . ولما خرج بهرام آغا سأل عن معنى « وصيف » ، فقيل لهُ : معناهُ فى تونس الخويدم . فامتلأ إهاب الآغا على الصدر حقدًا . ودخل عقب هذا عليه السيد أحمد أسعد ومعهُ قائمة كالأولى ، فسألهُ عن وظيفته ، فقال : وكيل الفراشة الشريفة . قال : أيها الشيخ وظيفتك هى أن تدعو لجلالة السلطان ، فخرج من عنده يعض على نأجذيه لطلب الانتقام منهُ . ولما رأى خير الدين باشا أن لا قدرة لهُ على مقاومة أهل المابين استعفى من الصدارة . وقد أراد كامل باشا فى صدارته الّتى سبقت هذه أن يردّ إلى الصدارة بعض شأنها ، فقام عليه الشيخان أسعد وأبو الهدى واشترك معهما غيرهما فدسوا الدسائس ونصبوا المكايد ومدوا حبال السعايات حتّى أقنعوا جلالة السلطان أن كل صدر يحاول إرجاع الصدارة إلى شأنها الأول لا ينبغى إبقاؤهُ فى الصدارة يومًا واحدًا والشاهد مدحت باشا . فعزلهُ جلالة السلطان . وصار الباب العالى الذى كان موضع المناجاة السياسيَّة والمخابرات العالية بين الصدر وسفراء الدول ميدانًا للملاكمة والمشاتمة بين الصدر والوكلاء ، كما وقع أخيرًا بين جواد باشا الصدر الأسبق وحسين رضا باشا ناظر العدليَّة ، ولولا دفاع الوزراء ودعاءُ شيخ الإسلام لسال دم الوكلاء فى المجلس العالى قبل سيل دماءِ الأرمن على بابه .

ولا يزال الأمر فى أيدى أهل المابين يتصرفون فيه ، فإن سمعوا بفاضل أبعدوهُ أو سعوا فى إبعاد الناس عنهُ بنسبة نقيصة أو فضيحة إليه كما وقع لمنيف باشا وهو رجل مشهور بالفضل والحكمة حين قام صاحب جريدة الميزان وهو مأمور من دائرة وزارته يكتب فيه بكلام صريح ما يخالف عفة شيخ من الوزراء تحت إدارته مدارس البنات والوزير ساكت لا ينطق بحرف ولا يدافع عن نفسه بكلمة لعلمه أن قلم المطبوعات الذى يمحو من الجرائد لفظة : حريَّة . ملة . أمة . خطبة . سيف . قوة . سلاح . جمهوريَّة .

مجلس نواب . مجلس ملة . مجلس أمة . ولى عهد . جمعيَّة . تجمع . اجتماع وما يشتق منهُ – لا يجسر أن يقرأ قذف وزير من وكلاءِ الدولة ولا يمحوهُ ولا ينبه على كاتبه وطابعه ليعاقبا إلاّ بإيعاز من السراى الشاهانيَّة . ولمَا رأى أحد أصدقاء الوزير ما ألمَّ به من الغمّ والهمّ قال لهُ : تاللّه إن ذهبت اليوم إلى السراى بعد هذا الذى كتب فيك ترى من الالتفات والإقبال ما يسرك ، لأن ابتعاد الناس عنك بمحو فضائلك يقربك من جلالة السلطان . فذهب الوزير كما قال صديقهُ ، فنال من الالتفات والإكرام والإحسان ما لم يرهُ طول حياته .

السـفـراءُ

إن أهم الوظائف قدراً وظيفة السفير ، لأنهُ صورة الملك والأمة المبعوث منها إلى ملك آخر وأمة أخرى . فينبغى أن يكون همهُ تحسين تلك الصورة من جهة ومعرفة خفايا سياسة الدولة المبعوث إليها وسياسة دولته المبعوث منها من جهة أخرى . وعلى هذا يجب أن يكون من دهاة الرجال الصادقين المحنكين المتقلبين فى فنون السياسة . والأمر فى سفراء الدولة بالعكس ، فإن شذَّ فى الحنكة والدربة واحد منهم كان مثل المرحوم أسعد باشا سفير الدولة فى باريس . ومع وصفه بهذا الوصف ، فإن علمهُ أضرَّ بالدولة لاشتمال اليأس عليه واجتهاده فى إدخال غيره فى يأسه . فقد قال لأحد الفضلاء لما رآهُ دائبًا مجتهداً فى نصح الدولة وإيقاظها من نومها بكتاباته وخطبه : « أيها الفاضل إن اللّه أراد موت هذه الدولة ، فكيف تقدر على إحيائها أنت ؟ »

أيقول هذا سفير ؟ أظن أن جزاء هذا القول لا يوجد فى قانون . هؤُلاء هم الذين فى أيديهم روح الدولة فى أوربا وهؤُلاء هم صور الملك والأمة العثمانيَّة أمام الملوك والأمم فى أوربا . يا خيبة المسعى ويا ضياع الأمة ويا سقوط الدولة . ولكن ماذا ينقص السراى الهمايونيَّة إذا كان السفير يواظب ليلاً ونهاراً على إرسال التلغرافات بما تكتبهُ الجرائد فيما يمسُّ الجلالة الخاقانيَّة . ويقال : إن ما ينفق على هذه التلغرافات لا يبلغ ما ينفق على مصلحة الدولة السياسيَّة معشارهُ . ومن العجب أن سفراء الدولة يرون الملوك ويجتمعون بهم ويعاشرونهم ولا يرون الذات المقدَّسة الشاهانيَّة التى بعثتهم . ومما يتأسف

لهُ العثماني أن يرى دولتهُ قد استعملت من التملق للدول ما أضحك الأوربيين علينا ، فإن العادة كانت جارية أن تعطى الدولة لسفراء الدول الذين من الطبقة الأولى نشانها العثماني الأول ، وتعطي للذين من الطبقة الثانية نشانها المجيدي الأول ، وكانت الدول تقابل سفراء الدولة بالمثل فتعطي سفراءها نياشينها ، والآن تعطي دولتنا لسفراء الدول النشان العثماني المرصع ، وسفراءُ الدولة لدى الدول لا ينالون شيئًا فأي انحطاط . أقبح من هذا الانحطاط وأي هوان أفظع من هذا الهوان .

أما سفراءُ الدولة الذين لم يشذوا من كليَّة الجهالة وقاعدة الحمق والخرق فيضرون الدولة بغباوتهم كما يضرها الشاذّ بعلمه على ما ذكرنا آنفًا . ونذكر نموذجًا ليقاس عليه . كان للدولة سفير في رومية وهو الآن في الآستانة حضر يومًا إلى حانوت يخص إدارة جريدة « الإيطالي » لبيع جرائد المبادلة الَّتي ترد إليها من الممالك والأقطار ، وكان في هذا الحانوت أحد المصريين جالسًا . فقال السفير لأجير الحانوت : كيف حق لكم أن تضعوا رسم غردون باشا المقتول في الخرطوم بالملابس الرسميَّة والطربوش علي رأسه وهو إنكليزي ؟ قال الأجير : إن السفير أخطأ أولاً في إرسالك إلى هنا ، فإنهُ كان يلزمهُ أن يرسلك إلى وزارة الخارجيَّة ، وأخطأ ثانيًا ، لأنك تلقب الإنكليزي باشا وتنكر لبسهُ الطربوش العثماني . فاغتاظ السفير ، وشرع يتكلم بحدة فاحتد الأجير أيضًا وكاد الأمر يفضي إلى المشاتمة . ولما رأى المصري وصول الأمر إلى حدّ لا تليق معهُ الفرجة قام فأصلح بينهما وقال للأجير إن حضرتهُ هو السفير عينهُ . فضحك الأجير وعبس السفير وانتهى الإشكال السياسي . وفي هذا السفير يقول مسيو جليان قنصل الدولة في روميـة : إنهُ يكون معهُ في حلّ تلغراف سري بالأرقام وارد إليه من الخارجيَّة فينظر من النافذة فيرى امرأةً سائرة في الطريق فيخرج ليحادثها ويغازلها ويترك القنصل قائمًا والتلغراف في يده منشورًا إلى أن يعود فيعتذر بأبرد الأعذار .

ولا يصعب على الدولة الَّتي يكون هذا السفير في عاصمتها أن تستولي على مصوع وغيرها من أملاك دولته . وقد أقام هذا السفير الذي يشبههُ معظم سفراء الدولة في الفطانة سنين عديدة في رومية يحلُّ التلغرافات بحذاء النافذة .

نسأل اللّـه سبحانهُ لدولة هؤلاء صدورها ووزراؤها وسفراؤها وولاتها وقضاتها أن يخفف عنها ويرحمها ويحقق آمال رعيتها بها .

المقالة الثانية عشرة

الدعاوى فى الآستانة (*)

قدم على الوليد رجلٌ من عبس ضرير محطوم الوجه فسألهُ عن سبب ذلك ، فقال : بتُّ ليلة في بطن وادٍ ولا أعلم في الأرض عبسيًا يزيد مالهُ على مالي فطرقنا سيل فذهب بما كان لي من أهل ومال وولد إلاّ صبيًا وبعيراً ، فندّ البعير والصبي معي فوضعتهُ واتبعت البعير فما جاوزت ابني قليلاً إلاّ ورأس الذئب في بطنه يفترسهُ فتركتهُ واتبعت البعير فرمحني رمحة حطّم بها وجهي وأذهب عيني فأصبحت لا ذا مال ولا ولد ولا ذا بصر . فقال الوليد بن عبد الملك : اذهبوا به إلى عروة بن الزبير – وكان قد أصابهُ بلاءٌ متتابع – ليعلم أن في الناس من هو أعظم بلاءً منهُ .

وصاحب دعوى في الآستانة أعظم والله بلاء وأكبر مصيبة منهما . ولقد كان يجب على الآباء والأمهات أن يدخّلوا في جمل الدعاء لأبنائهم أن لا يحكم الله عليهم بدعوى من الآستانة ، فإن الدعوى فيها قصامة الظهور لإبطاء الحكم وإهمال الفصل فيها أو لمصيبة الحفظ لأوراقها ، وربما ورث الابن دعوى أبيه وجدّه .

دخل رجل على ناظر الضبطيّة وكان معهُ صاحب لهُ ، فقال الناظر لصاحبه : أتعرف هذا الرجل ؟ قال : لا . قال : هذا رجل من أهل الشام جاء إلى الآستانة في دعوى لهُ وأخذ تذكرة الباخرة ذهابًا وإيابًا وكان يظن أنهُ لا يقيم هنا إلاّ أيامًا ، والآن بعد سبع سنوات أقامها حتى وصلت حالهُ إلى ما ترى من أسماله البالية وما خلصت

(*) المقطم ١٩٩٧ ، ١٦ أكتوبر ١٨٩٥

دعواهُ ولا خلص من بلواهُ . وقد أصبح قولهم : « دعوى فى الآستانة » فى ولايات الدولة من أشد أنواع التهديد فيفصل الولاة والقضاة والمتصرفون (جمع متصرف ، وهو أليق وصف لحاكم تركى) معضلات الدعاوى إذ ذاك فيرضى المظلوم أن يظلم فى بلده ، ولا ينفى إلى دار السعادة فيجمع على نفسه بين ظلمهِ ونفيهِ وفقرهِ وموتهِ .

مرَّ المرحوم عبد اللّه باشا فكرى فى أسواق الآستانة فوجد رجلاً في حانوت يبيع أصنافًا من المناديل فوقف عليه ليشترى منها وفى أثناء حديثه مع الرجل رأى عليه مخائل طيب الأصل فسألهُ عن بلده ، فقال الرجل : من بغداد يا مولاى ، وكنت فى بلدى من عليَّة قومى فرماني القضاءُ والقدر فى هذا البلد لدعوى بينى وبين جماعة من أهل بغداد فجئت إلى دار الخلافة لأنال من عدل الحكومة إنصافى فبقيت ثلاثًا وعشرين سنة ودعواى واقفة لا يحكم لخصومى فأستريح باليأس ، ولا يحكم لى فأحصل على حقوقى ، وقد بعت جميع ما أملك وانتهى بى الاحتياج إلى ما ترى (لاقدر اللّه عليك بدعوى فى الآستانة) .

والبلاءُ كل البلاء أن يقال على الدعاوى كلمة « دورسون » يعنى : (ليحفظ) ، وما سمعنا بحكومة فى الإسلام تحكم بالقرآن جعلت إيقاف الحكم فى دعاوى العباد المتظلمين إليها شرعًا أنزلتهُ عليها من سماء سياستها . ولقد صار هذا الحفظ من النواميس الطبيعيَّة ، لأن لكل دعوى فى الآستانة قوتين : قوة جاذبة وقوة دافعة ، فإذا غلبت إحداهما على الأخرى لحقت الدعوى بالغالبة ، فإذا تساوتا وقفت وهذا هو المسمى فى عرفهم بالحفظ . اللهمَّ إن الضياع خير من الحفظ .

وتلحق مصائب أخرى بالدعاوى ، فمن النوادر أن رجلاً من أهل حلب جاءَ لدعوى فى وقف بتوكيل من المستحقين الذين يبلغون سبعين شخصًا من أرامل وأيتام ، فأقام ثلاث سنين يتردد على نظارة الأوقاف وعلى الصدارة حَتَّى أشرفت دعواهُ على الانتهاء ، وأخذ يستعد للسفر جذلان فرحًا لخلاص أشغاله فى تلك المدة الوجيزة ، ولم يبقَ عليه إلاَّ أن يذهب إلى مقام المشيخة الإسلاميَّة لتضع تصديقًا على أوراقه ، فذهب إليها وقدم أوراقهُ إلى أحد الكتَّاب فوعدهُ الكاتب بعرضها على المستشار ليأمر بهذا التصديق المطلوب ، ولما حضر المستشار وعرض الكاتب عليه تلك الأوراق استشاط

غضبًا وأخذ يشتم صاحب الدعوى ويسبهُ بأنواع من السبّ والشتم لا تخطر على بال أسفه السفهاء وأمر الكاتب بإحضار الرجل فى الحال . ولما دخل الرجل على المستشار مع الكاتب وهما لا يعلمان سببًا أوجب تلك الشتائم أعاد المستشار الكرة على الرجل بالشتم وقد همّ بضربه . ولما سكن عنهُ بعض الغضب قال للرجل : كيف تسمي نفسك بسلطان ؟ قال : يا سيدى أنا لم اسمٍّ نفسى ، وإنما سمانى أبى وهذا الاسم شائع يسمّى به أشخاص كثيرون ، وقد بقيت ثلاث سنوات وأنا أتردد على نظارة الأوقاف وعلى مقام الصدارة العظمى واسمى يكتب فى السجلات والأوراق ، وما سمعت هذا الاعتراض من أحد غيرك . قال المستشار : أتريد أن تقيم عليٌ الحُجّة وأشار إلى الكاتب بحفظ الأوراق وأمر بطرد الرجل من المشيخة والتنبيه بعدم دخوله إليها إن عاد . فخرج الرجل باكيًا على ضياع حقه وحقوق موكليه المساكين الذين لا ذنب لهم إلاّ أن وكيل دعواهم اسمهُ محمد سلطان . وكان الرجل يتردد على بيوت الأمراء ، فإذا رأوهُ لا يزيدون على التبسم لغرابة ما حصل لهُ ، وما وجد منهم رجلاً تأخذهُ الغيرة والحميّة لعرض أمرهِ على جلالة السلطان ، وكان الشيخ أبو الهدى إذا رآهُ توجع لحالهِ وربما حكى لمن حولهُ قصتهُ الغريبة بفصاحته المشهورة ، وما زادهُ شيئًا عن ذلك التبسم الآخذ بمجامع القلوب إلاّ قلب صاحب الدعوى ولايعرف قيمة الجوهر إلاّمقوّمهُ . والرجل كان كثير الشكوى منهُ لأنهُ من بلده ولهُ معرفة قديمة به :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم فى الموطن الخشنِ

هذا حال أرباب الدعاوى فى دار الخلافة ومقر السلطنة ومهبط العدل السماوى والإلهام الإلهى ومؤتلف الكتاب والسيف فى إيمان البيعة ، فإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا بالخسران والخذلان ، فبكوا وأبكوا وحزنوا وأحزنوا وماتوا كمدًا وأماتوا . ومماٌ يزيد حزن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يروا العدل باسمًا والظلم باكيًا بين رعايا الدول الأوربيّة ، وما يحبب مفارقة الحياة أن يسمع المسلمون أن الدول تأمر دولة الإسلام بإجراء العدل بين رعيتها وكان اللائق بمقام الإسلام أن تأمر دولتهُ

دولَ العالم بما يأمرنها به الآن من إجراء العدل بين رعاياها ؟. وهل كانت وظيفة الخلافة فى الإسلام غير رفع الظلم عن المظلومين فى أنحاء العالم ، وهل فتحت الممالك إلاَّ بهذا ولهذا ؟.

المقالة الثالثة عشرة

المشـــايخ (*)

هم حـملة عـرش الخـلافـة وعـددهم أربعـة وهم : الشـيخ السـيـد أبو الهـدى الخانشيخونى الحلبى ، والشيخ السيد أحمد أسعد القيصرلى المدنى ، والشيخ فضل باشا المليبارى المكى ، والشيخ محمد ظافر المدنى المغربى . وقد اختلف الناس اختلافًا عظيمًا وتعددت آراؤهم فى سبب قربهم من حضرة مولانا الخليفة والتصاقهم ببساطه وهم من الأمة العربيَّة وما وضع عربى مهما كان حسبهُ ونسبهُ جبهتهُ منذ تأسست السلطنة العثمانيَّة حيث تطأ الآن أقدامهم ، وما مدَّ عربى بصرهُ حيث يمدُّون أيديهم ، وما حدَّث عربى نفسهُ قبلهم أن يحدِّث جلالة الخليفة فى نجواهُ ويدخل معهُ فى شئون السلطنة فيعزل الصدور ويوليهم ويبعدهم ويدنيهم بنصحه .

فمن الناس من يقول : إن سبب هذا القرب وهذه لزلفى ميل جلالة السلطان إلى استطلاع المغيبات منهم ، لأن لهم مزاعم واسعة ودعاوى عريضة فى هذا الباب . ومنهم من يقول : إن سبب قربهم لهذا الحد من مقام الخلافة هو ما رتبوهُ فى فكر جلالة السلطان بمقدِّمات قدَّموها من أن سكون الأمة العربيَّة وحركتها فى أيديهم ، فإذا شاءُوا قامت وإذا شاءُوا سكنت .

ومن قدماء الأتراك جماعة يقولون : إن الدولة لما ذهب من ممالكها ما ذهب فى الحرب الروسيَّة وصارت الأمة العربيَّة أعظم قسم تحكم عليه من أجناس رعيتها جنحت

(*) المقطم ٢٠٠٢ ، ٢٢ أكتوبر ١٨٩٥

إلى استعاضة ما فقدتهُ من شأنها بتجديد اسم الخلافة الذى كان لا يذكر إلاَّ قليلاً حينًا بعد حين فى ألقاب السلاطين السالفين الذين كانوا فى غنى عن قيودها وشروطها بقوة السلطنة وبسطة السلطة وانتشار السطوة ، وكانت الأمة العربيَّة تحدث نفسها دائمًا بأن الخلافة فى قريشها بحكم النص وأنها مغلوبة عليه بحكم القوة ، فارتأت الدولة من الحكمة والسياسة أن تضع من شأن الأمة العربيَّة وتسلب عنها الاستعداد للقيام بأمر عظيم أمام الأمم ، فاختارت أولئك المشايخ رؤساء وسادات ، وفسحت لهم بطعن بعضهم على بعض ، فقالوا ونشروا وأعلنوا فى بعضهم البعض من أنواع السبّ والقذف ، ومن التفسيق والتكفير ما أسقط الجميع ، ولكن زادهم تثبيتًا وتمكينًا فى مراكزهم ومقاماتهم .

ولو قيل فى غيرهم معشار ما يقال فيهم لم يتحمل الملك قربهم ولم تطق السلطنة نسبتهم إليها . ومن قرأ ما يكتبهُ بعضهم فى بعض حكم بأنّ السلطنة لم تقبلهم معهُ إلاَّ لأمر فوق كشف المغيبات وفوق حفظ الأمة أن تثور لوجود من يقوم به سواهم . هذا قول قوم من قدماء الترك فيهم .

وقد عزمنا أن نذكر كيف اتصلوا فى ابتداء أمرهم بجلالة السلطان ونبدأُ بالشيخ السيد أبى الهدى ، ثم نذكر ما يقول بعضهم فى بعض و ما يقول خصومهم عليهم وما يقول أحباؤهم لهم وما ينسبونهُ إلى أنفسهم وآبائهم وأجدادهم من الكرامات وخوارق العادات .

وفد السيد أبو الهدى على الأستانة (وكان لا يلقب حينئذٍ بالشيخ) فى آخر حكم المرحوم السلطان عبد العزيز فى زى أهل الطريق فأخذ ينشد على الذكر فى إحدى التكايا ويضرب على الدف على رسم الطريقة الرفاعيَّة الَّتى هى طريقتهُ . وكان لهُ شعر مرسل كالرفاعيَّة . والشيخ حَسَن الصّوت ، فَصيح اللِّسان ، صبيح الوجه ذكى القلب ، فجذب إليه نفوس بعض الأمراء المتصوفين من أهل الأستانة وهو لا يأنف الآن من الإنشاد فى حلقة الذكر ولا يمتنع عن الحضور بنفسهِ إليه إلاَّ إذا كان مريضاً . ثم رجع من الأستانة إلى حلب بوظيفة نقابة الإشراف على حلب . ثم عاد إلى الأستانة بعد جلوس جلالة السلطان على تخت السلطنة بشهرين فتلقاهُ أصحابهُ بالإكرام وحسن النزل .

وفى ذلك الوقت رأى جلالة السلطان رؤيا فقصها على حالت باشا وكان من أصحاب الشيخ ، فقال لجلالة السلطان : إنى أعرف شيخًا واسع المعرفة لهُ جانب مع اللّه .

ولو أمر جلالة مولانا أن تقص عليه الرؤْيا لوجدنا عندهُ تفسيرًا لها مطابقًا للواقع . فأمر جلالة السلطان بإحضاره ولما قصَّ عليه المبلغ الرؤْيا فسّرها تفسيرًا أُعجب به جلالة السلطان فأحسن إليه . وبعد ذلك بأيام صعد الشيخ إلى المابين وقال : قد رأيت النبى ﷺ ليلة أمس في الرؤيا فأمرنى أن أبلغ عنهُ جلالة الخليفة كلامًا ، وأمرنى أن يكون ذلك منى إليه من غير واسطة . فاهتزت السراى السلطانيَّة لهذا الخبر واستعظموا الأمر واستبشروا بالفتح ، وكانت الدولة تستعد لقبول إعلان الحرب الروسية وزاد جلالة السلطان فى عيونهم قدرًا للاتصال بالحضرة النبويَّة . ووجد جلالتُهُ فى ذلك الوقت المفعم بالمشاكل والاضطرابات بهذا الخبر مفرجًا لكربه وحافظًا لنفسه ، ففرح وأمر الشيخ أبا الهدى أن يبلغهُ بالواسطة ما أمرهُ به النبى ﷺ فامتنع وقال : إنما أُمرت أن أبلغهُ ذلك مشافهةً ولا يكون أحد بيننا ، فقيل لهُ : إن جلالة مولانا السلطان لا يعرف اللغة العربيَّة وأنت لا تعرف اللغة التركيَّة ، فكيف يمكن أن تخاطبهُ بلا واسطة ؟ فأصرَّ على ذلك وذهب من السراى ، وقد اشتدت الرغبة فى معرفة ما قاله ﷺ . وفى الغد أرسلوا بطلبه ، ولما حضر قالوا : جلالة مولانا السلطان أمر أن يكون المترجم بهرام آغا ، فأبى وقال : لا أفعل إلاَّ ما أمرنى به النبى ﷺ وتركهم . فحاروا فى الأمر كثيرًا وبعد يومين صعد الشيخ ووجههُ يشرق بالبشر وقال : قد جئت لأبلغ جلالة مولانا الخليفة بنفسى من غير واسطة ، فأنا الآن أتكلم باللغة التركيَّة وشرع يكلمهم بها بلسان فصيح . فسألوه كيف ذلك ؟ فقال : إن النبى ﷺ جاءنى فى الرؤيا وتفل فى فمى ، فتكلمت باللغة التركيَّة كما ترون ، وقد انحلَّ المشكل ، فلما سمع جلالة السلطان بهذا أمر أن يبحثوا إن كان الشيخ يعرف التركيَّة من قبل ، فجاؤا بشهود منهم حافظ باشا من نظارة الضبطيَّة وغيره يشهدون أن الشيخ لم يكن يعرف كلمة تركيَّة قبل ذلك اليوم ، فدخل على جلالة السلطان وأبلغهُ الرسالة النبويَّة ولا يعلم أحد ما هى . ومن ذلك الوقت نال حظوة لدى جلالة مولانا السلطان لم ينلها أحد من قبله وصار الوزراءُ والكبراءُ ، ومنهم المرحوم جودت باشا صاحب التاريخ الذى مات معاديًا لهُ يقبلون يدهُ . واستمرَّ على هذه الحال من التعظيم والتبجيل إلى أن صدرت

الإرادة السنيَّة بنفيه إلى حلب ولا يعلم أحد سبب هذا النفى ، فقال عند خروجه : سأعود بعد بضعة أشهر مدعواً بإرادة مولانا السلطان من بلدى إلى هنا . فصحَّ ما قالهُ واستدعاهُ جلالة السلطان بالتلغراف وأحبابهُ يعدون هذا من كراماته وخصومهُ يقولون : إنهُ ترجى الشيخ أحمد أسعد والحاج على بك الباشمبنجى أن يطلبا لهُ العفو من جلالة السلطان ففعلا وعفا جلالتهُ عنهُ . ولما جاء إلى الأستانة ترك خطة الولاية وتبع خطة السياسة .

الشيخ السيد أحمد أسعد القيصرلى المدنى (*) :

هو تركىٌّ الأصل من أهل قيصريَّة ، وقد هاجر أحد أجداده منها إلى المدينة المنوَّرة فاستوطن بها وتعرب بيتهم فيها ، وكان من الذين يطوفون على الأمراء فى البلاد للنيابة عمن لهُ حصة منهم فى الفراشة النبويَّة فيقوم مقامهُ فى خدمة الروضة الشريفة . وهذه الخدمة يشترك فيها الكبراءُ والعظماءُ فى سائر الأقطار فيكون للواحد منهم جزءٌ من قيراط ويوكلون عنهم من يقوم بها فى الروضة كإيقاد القناديل وكنس البسط وما أشبه هذا من الخدمة الَّتى هى من أعظم المفاخر .

فوفد السيد أسعد على الأستانة مراراً وكان يتردد على الحضرة السلطانيَّة فى أيام السلطان عبد العزيز وتوكل عنها فى نصيبها من تلك الخدمة الشريفة ، وكان لهُ منزلة لدى جلالة السلطان لتعلق ولاة العهود بمن يعدهم بقرب ما يتمنون بإقامة الصلوات وترتيل الدعوات فى الأماكن الطاهرة المباركة . ولما جلس جلالة السلطان على تخت السلطنة نال السيد أسعد لديه حظوة الخادم الصادق وبقى فى الأستانة تحت ظل جلالته يرفهُ فى النعيم ويتنعم فى الرفاهة ويزداد قرباً بسكينته وسكونه حَتَّى صارت لهُ دائرة خاصة به فى المابين وهو من الذين يدخلون على جلالة السلطان بلا استئذان ، وإذا قيل فى السراى : « سيد أفندى » فإياهُ يعنون . ولجلالة السلطان به

(*) المقطم ٢٠٠٦ ، ٢٦ أكتوبر ١٨٩٥

ثقة ، فإذا مرضت فى السراى السلطانيَّة إحدى الجوارى فجلالتهُ يأمر بنقلها إلى بيته ، فإن أبلَّت من مرضها عادت إلى السراى وإن ماتت خرجت من بيته . ورجال المابين يحترمونهُ احتراماً عظيماً يليق بالانتساب إلى النبى ﷺ ويقربه من جلالة السلطان . وهو عاميٌّ لا اطلاع لهُ على شيء من المعارف والعلوم ، ولكنهُ يوقّرنفسهُ بالإطراق ومداومة الصمت ، ولو قلنا عنهُ : إنهُ أميٌّ لا يكتب ولا يقرأُ لكان أمدح لهُ من أن نصف كتابتهُ . فقد كتب مرة إلى صاحب لهُ ورقة ، فلم يفهم منها شيئًا وأعاد خادمهُ للاستفهام عما كتبهُ . وقد انتهى الجدال فى التماس العذر للسيد بين صاحبه وجلسائه بأنهُ فى أثناء كتابة ما كتب كان بجانبه صبى من أولاده يلعب فخط خطوطًا فى ورقة وغلط السيد فطوى ورقة الصبى فى الظرف مكان ورقته . وقد طعن أعداؤهُ فى انتسابه إلى النبى – عليه الصلاة والسلام – طعنًا حزبهُ جدًا ، فاحتار فى أمره ولم يقوَ على معارضتهم فتداركهُ السيدأبو الهدى وأخذ بيده فأخرجهُ من تلك الوهدة الَّتى أوقعهُ خصومهُ فيها بأن وهب لهُ نسبة رفاعيَّة وجعلهُ عمهُ فى النسب فمحت هذه الهمة الصياديَّة ما (*) كان بينهما من الموجدة القديمة . وعرف السيد أسعد لابن أخيه هذه المأثرة الَّتى حفظ بها شرفهُ بين رجال المابين ولدى جلالة السلطان فاتفقا واتحدا وشذَّا عن قاعدة التفريق فى السراى ، وتعضد السيد أبو الهدى بحضرة العم كما يعبر عنهُ ودفع باتحاده معهُ معانديه فى المابين . ومع هذا فالسيد أسعد يعترض اعتراض المشفق أحيانًا على السيد أبى الهدى لاندفاعه فى الأمور ، وربما أظهر الضجر من تعبه فى رتق الفتوق الَّتى يفتقها السيد أبو الهدى باندفاعه . والسيد أسعد يود من ابن أخيه أن يسلك مسلكهُ فى التؤدة والدهاء لينجحا فى ما أراداهُ ولا يخيبا فى شيء ابتغياهُ . وهما فى الحرب القائمة بين المشايخ صف يقابل صف السيد فضل باشا ، والسيخ ظافر . ورتبتهُ روم ايلى قاضى عسكر وعندهُ النشان العثمانى المرصع والمجيدى المرصع ، ورتب أولاده لم ينلها كثير من شيوخ العلماء ، فإنهم برتبة استامبول پايه سى الَّتى تقارب رتبة البالا أو تضاهى رتبة الفريق فى العسكريَّة .

(*) المقطم ١٩٩٤ ، ١٢ أكتوبر ١٨٩٥

ومرتبهُ الشهرى مع أولاده ينيف على خمسمائة ليرة . هذا غير ما يأخذهُ من الإحسان والإنعام المتكرر فى أثناء السنة .

وهو ردءٌ لشريف مكة وركن شديد لما بينهما من الصلة ، فاستند إليه الشريف ومدَّ رجلهُ فى عين الزمان غير مبالٍ بأحد وأخذ يفعل أفاعيلهُ فى تلك البقاع الطاهرة ولم يثنه وجوب احترام حرم اللّه عن ضرب الأشراف فيه حَتَّى هاجر من جوار بيت اللّه قوم لم يحتملوا الضيم والذل ، وأصبح الحجاز مجتمع الفتن ومستنقع الدماء وكادت تسقط بذلك فريضة الحج عن الناس وأصبحت عرائض شكوى المظلومين كالعهن يضربون بها سوراً ضربهُ الشريف دونهم من سبائك الفضة والذهب لا من القطر والحديد .

والسيد أسعد أقنع جلالة السلطان أن العرب جميعهم لا يعصون لهُ أمراً ولا يخالفون لهُ حكمًا ، وقد اضطرتهُ هذه الدعوى الَّتى كانت أقوى الأسباب لقربه وعلو منزلته أن لا يزور المدينة حين سافر إلى الحجاز مع راتب باشا منذ أشهر ليقابل به الشريف ويصلح ذات بينهما ، فإنهُ من البعيد أن سيداً من أولاد الرسول ﷺ يأتى إلى مكة ولا يذهب إلى زيارة جده لتأدية الواجب عليه وليدعو بأنفاسه الطاهرة لجلالة السلطان أن ينصرهُ اللّه ويؤيدهُ ويدفع عنهُ المكاره ، ويوفقهُ لحل معضلات هذه الأيام ليؤدى فى العمر وظيفة ما أُحيل عليه من الفراشة فى الروضة الشريفة ليظهر لأهل المدينة الَّتى غاب عنها سنين عديدة نعم اللّه السابغة عليه ليسر المحب ويسوء العدوّ . فإن الإنسان مهما بلغ من الرفعة والجلال فى غير وطنه لا يروق فى عينه كما يروق لهُ بين لداته وأترابهِ فى بلده ؛ ولهذا قال عبد اللّه بن طاهر لما دخل مصر واليًا ورأى عظمة موكبه : « ليت عجائز بوشنج يشاهدننى اليوم » . وليرى السيد أهلهُ وأقاربهُ وأملاكهُ فى المدينة ، ولكن منعهُ عن هذا علمهُ أن العرب ينتظرونهُ فى طريق المدينة ، فلا يكاد يصل إليها أو لا يكاد يرجع منها والسيد لا ينسى أن العرب نهبوهُ مرة وهو ذاهب إلى المدينة . وقد بالغ فى دعوى نفوذ كلمته فى جزيرة العرب حتى قال : إنهُ لابدَّ أن يضم نجداً إلى حكم الدولة ، فهو يرسل الهدايا إلى ابن الرشيد من لدن الحضرة السلطانيَّة ويجعل بها مواصلة مستمرة ووفوداً ذاهبة آيبة ليعلق الآمال بعمله دائمًا .

وجلالة السلطان شديد العناية به وكثير الإكرام لهُ ، فإنهُ يشرب النارجيلة فى الحضرة السلطانيَّة .

(*)وهو الذى أرسلهُ جلالة السلطان إلى سفير إنكلترا فى مأموريَّة سياسيَّة ، ولما قابل السفير خاف على نفسه أن يدخل فى أمر لا يستطيع أن يخطو فيه خطوة ، فأخذ يسعل سعالاً مسترسلاً للتخلص حَتَّى أشفق عليه السفير وردهُ باللطف والاحتفاء والتأسف على ما فاجأهُ من المرض . وربما تعجب السامع من إرسال جلالة السلطان المشهور بالحزم والحكمة شيخًا من المشايخ الذى لا يجول فكرهم إلاَّ فى دائرة ضيقة من المعلومات إلى سفير الإنكليز فى أمر سياسى مهم ، وما أدراك ما سفير الإنكليز في الأستانة ؟ فنقول : إن لجلالة السلطان عذراً واضحًا ، لأن هؤلاء المشايخ ظهروا أمام جلالتهِ فى أرقى مظاهر السياسة وذلك أن لكل واحد منهم صاحبًا من المابينجيَّة يوحى إليه جميع ما يصير ولو كان إشارة بالطرف فى مقابلة مساعدة الشيخ لهُ عند الحاجة . فإذا سمع الشيخ من صاحبه أمراً مهمًا من الأمور السريَّة فى السياسة كتب تقريراً إلى جلالة السلطان عقب علمه وأشار إلى ذلك الأمر السرى بما يوافق غرض السلطان فيه والشيءُ إذا صادف هوى فى الفؤاد وقع فى النفس وقعًا عظيمًا فيعتقد جلالة السلطان أن الشيخ قتل السياسة علمًا . وربما زاد الشيخ فوضع الخبر فى رؤية صالحة رآها فيقصها على جلالته أناس من بسطاء الأغوات وغيرهم جذبوهم إليهم بالعهود والأوراد ، فينقلون لهم أخبار جلالة السلطان وعليها يبنون ما يبنون ، ويلفقون ما يلفقون . وبهذه الشعوذة دخلوا فى أهم الأمور السياسيَّة وغلبوا الصدور والوزراء وسفهوا آراءهم وعكسوا عليهم تدابيرهم ، ونذكر بالجملة قصة من القصص نموذجًا يستدل به القارئ على ما نقول : عقدت الدولة (بهمة الرجل السياسى كامل باشا) الشروط المعلومة مع السر در مندولف على جلاء الإنكليز عن مصر بعد مدة محدودة تقررت فى تلك الشروط ، وتم الأمر فيها وأمضت عليها جلالة ملكة الإنكليز ، ولم يبقَ إلاَّ إمضاء جلالة السلطان ، ثم سمع أحد هؤلاء المشايخ بواسطة إرصاده

(*) نشرت هذه القطعة من « ما هنالك » فى جريدة المقطم ١٩١٧ ، ٥ يوليو ١٨٩٥

. " الموضوعين على جلالة السلطان ؛ إن جلالتهُ يتأفف من هذه الشروط فصبحهُ الشيخ بتقرير بنى على هذه الشروط خراب الدولة وقيام المسلمين جميعًا ونقض أيديهم من البيعة وغضب النبى ﷺ . فلما أُضيف هذا التهويل إلى تأفف جلالته من تلك الشروط قويت عزيمتهُ على الامتناع من الإمضاء بعد أن أمضت الملكة ولم يلتفت جلالتهُ إلى سخط الحكومة الإنكليزيَّة والإنكليز عمومًا من امتهان ذلك الإمضاء ، وذهبت الليالى الَّتى سهرها كامل باشا فى إحكام هذه الشروط سدًى ، ولو تمت لما بقى اليوم أحد من العساكر الإنكليزيَّة فى مصر . والسير على هذا الأسلوب فى المسائل السياسيَّة مستمر إلى هذا اليوم ويستمر إلى ما شاءَ اللَّه والصدور يبيتون فى حيرة من أمرهم ، وما دبروهُ يذهب سدًى ، والشيخ يرمى فيصيب برمية واحدة ثلاثة أغراض : الأول ظهورهُ أمام جلالة السلطان بمظهر حاذق سياسى يرجع إليه فى عويص السياسة ، والثانى : كيدهُ للصدر بنقض ما أبرم ، والثالث : تجليه أمام الناس بقدرته على ردّ جلالة السلطان عن رأيه ، لأن الناس لا يعلمون الحقيقة بأن جلالتهُ كاره لما دبرهُ الصدر ، وإنما الشيخ بكهانته استرق السمع فبنى على ما سمع ما بنى . فماذا يصنع جلالة السلطان وقد أحاط به هؤُلاء المحتالون واتفق بعضهم مع بعض عليه ولم يتركوا لهُ وقتًا يكفى للتنقيب عن أحوالهم والتدبير للخلاص منهم ، فإنهم كلما لحظوا أن الأشغال نقصت لديه لفقوا فى الحال على ذاته الشريفة ما يقلق خاطرهُ وهذا دأبهم ولا يزال ، لأن العلاج غير ممكن . وكيف يمكن العلاج إلاَّ بعد العلم بوجود المرض وأنى يتأتى العلم به وهم أسوار بعضها فوق بعض ، فإن صاح من ورائها صائح بأن الحال منذر بالخطر ، قالوا : مكيدة أجنبية وأوَّلوا ذلك الصياح بما ينفعهم ويضر بالصائح . وقد صاح كثير فدارت عليهم الدائرة ، لأن الصائح البعيد لا يغلب القائل القريب . وأنا أكتب هذا وأنا على علم بأن جلالة السلطان لو قرأهُ وتنبه إليهم لآبوَا بالاستفادة مما أكتب (*) .

(*) توجد فى المقال الأصلى بعد كلمات « بالاستفادة مما أكتب » الكلمات الآتية :وبقية المضحكات والمبكيات على الأثر القريب .

الشيخ السيد فضل باشا المليبارى المكى :

هذا السيد شهير النسب بالعلوى وهو من أهل مليبار ، وقد اختارهُ أهل ظفار أميرًا عليهم فتولى أمرهم ، ولما أراد أن يعاملهم بالاستبداد قاموا عليه وأعانهم الإنكليز على إخراجه من ظفار ، فجاء إلى الأستانة يستصرخ الدولة لإعطائه قوة حربيةً يدخل بها ظفار ، وكان قدومهُ فى زمن السلطان عبد العزيز ، فلم تصغ الدولة إلى طلبهِ وكان لهُ صداقة مع المرحوم الشريف عبد المطلب أيام كان مقيمًا بمكة . فلما جلس جلالة السلطان على التخت العثمانى أحسن عليه برتبة الوزارة بواسطة الشريف المشار إليه فأحضر أولادهُ من مكة واستقر فى الأستانة ، ولكنهُ لا يزال يقيم الحجة على السفارة الإنكليزية بمملكته الظفاريةّ ، ولا يزال يكرر طلب الاستنجاد من الدولة ليعيد إمارتهُ عليها . وكان المشايخ يقبلون يدهُ لشيخوخته وشهرة نسبهِ وحسبهِ ، فكفوا عن ذلك بعد أن ذهب تشاتم المشايخ بحرمتهم جميعًا . وقد أرسل جلالة السلطان إليه فى بيته ناظر الضبطيةّ ناظم باشا مع السيد أحمد أسعد ليبلغاهُ كدر جلالة السلطان منهُ لشيء أخذ عليه ، فغضب على السيد أسعد وبصق فى وجهه وهمَّ بضربه لتصورهِ أنهُ هو الذى لفّق عليه ما أوجب كدر السلطان منهُ فخرج السيد أسعد من عنده مع ناظر الضبطيةّ على هذه الصورة وانتهت المسألة على ذلك . وهو عاميّ ولكنهُ من المؤلفين ولهُ كتب عديدة منسوبة إليه ، وهى مشحونة بكرامات أبيه وأجداده . وسنذكر شيئًا من غرابتها فى ما يأتى . وهو يدّعى أن القطبيّة وراثة فيهم يتوارثها كابر عن كابر منهم ، ولهذا اشتدت العداوة وعظم التنازع بينهُ وبين السيد أبى الهدى .

وهو يبشر جلالة السلطان بسلطنة الهند وبإسلام أهل أمريكا ، وإذا وردت عليه رسائل من بعض أصحابه فى الهند بنى عليها تحقيق الأمل فيما بشر به وعرضها على جلالة السلطان ، فإذا سمع السيد أبو الهدى أنهُ قدم مكتوبًا جاء لهُ من الهند أبطل مفعولهُ . ولكيلا يختص السيد فضل باشا بالهند أرسل إليها السيد أبو الهدى الشيخ كمال الدين المقيم الآن بمصر ، ولما علم الإنكليز بمساعيه فى الهند أخرجوه منها .

الشيخ محمد ظافر المغربى المدنى (*) :

هو من جهة طرابلس الغرب ، وقد سكن المدينة المنورة فانتسب إليها وجاء إلى مصر مرارًا قبل اتصاله بجلالة السلطان بصفة مشايخ الطرق ، ولهُ طريقة انتزعها من الطريقة الشاذليَّة وهو يدعو إلها . وكان جالسًا فى بعض الأيام فى مجلس السيد القصبى بطنطا وكان بيد أحد الحاضرين بندقيَّة يقلبها ولم يدرِ أنها محشوة فخرجت منها رصاصة فأصابت الشيخ ظافر فبقى تحت المعالجة مدة وهو رجل متواضع ليّن الأخلاق معترف بعاميته متظاهر بالخمول . وسبب اتصاله بجلالة السلطان أن أخاهُ الشيخ حمزة كان من الأستانة وكان يتردد على بعض الحشم فى سراى جلالة السلطان فى زمن المرحوم السلطان عبد العزيز ، فدار حديثهم مع الشيخ حمزة على الذين لهم علم بظهر الغيب ومعرفة باكتشاف المستقبل ، فقال : إن أخى الشيخ محمد ظافر لهُ اليد الطولى والقدم الراسخة فى هذه الأشياء ، ولما اتصل الخبر بجلالة السلطان أمرهُ أن يدعو أخاهُ من المدينة إلى الأستانة فحضر إليها وبشر جلالة السلطان أنهُ يجلس على تخت السلطنة فى سنة ثلاث وتسعين هجريَّة ولم يكد جلالتهُ يصدق هذا الخبر لقرب الميعاد ووجود السلطان مراد قبلهُ فى نظام السلطنة . ولما صدق قولهُ وجلس جلالة السلطان على التخت العثمانى فى تلك السنة عظم قدر الشيخ لهذا الاتفاق العجيب وزاد الاعتقاد وبقى على حالة التصوُّف من الزهد فى الرتب والنياشين ، وقد أحسن جلالة السلطان عليه بها مرارًا فطلب العفو من قبولها . ولكن جلالة السلطان ألحَّ عليه أن يقبل إحدى الداليات فقبلها متكرهًا . وهو الواسطة فى استدعاء خير الدين باشا من تونس وتقليده منصب الصدارة . وقد أحسن جلالة السلطان على الشيخ بخمسة عشر ألف ليرة . وذلك أن جلالتهُ كان مريضًا وكان يتخوف من مرضه فأحضر الشيخ أحمد سعد وقدّم لهُ هذا المبلغ وقال : خذهُ حَتَّى لا تحتاج بعدى ، فبكى ولم يقبلها وقال : ما يجب أن يقال فى هذا المقام فسرَّ منهُ جلالة السلطان سرورًا عظيمًا . ثم أمر بها للشيخ ظافر فقبلها واشترى بها عقارًا لأولاده وهم نيف وعشرون من الذكور والإناث ، وبنى لهُ جلالة السلطان تكيَّة ومسجدًا وبيوتًا

(*) المقطم ٢٠١٠ ، ٣٠ أكتوبر ١٨٩٥

بقرب السراى السلطانيّة ، وكان جلالتهُ يصلى صلاة الجمعة فى هذا المسجد بعض الأحيان . ولكن جاء جلالتهُ الخبر مرة أنهم وضعوا الديناميت هناك فامتنع عن الصلاة فيه مع أنهُ لم يظهر شيءٌ من ذلك بعد النقب والحفر والبحث والتفتيش الطويل . ولا يزال الشيخ ظافر يقيم فيه الأذكار المعتادة وكثيراً ما يأمرهُ جلالة السلطان أن يُحيى فى السراى بعض الليالى بالأذكار ويحضرها جلالتهُ بنفسه ويذكر معهم ، ويقول أولاد الشيخ : إن جلالة السلطان قبَّل يدهُ مرَّة . ولو علم الناس مقام الخلافة وقدروها قدرها لاستعظموا هذا الأمر جداً ، لأن الخليفة رأس الأمة المحمديَّة وليس فوقهُ أحد من أهل الدين والدنيا ولو نشر الأئمة والأقطاب والأبدال فى مكان لكان الإمام فوقهم ولكانوا ممتثلين لأوامره المطابقة للشرع ، ولكان لهُ أن يقيم الحدود عليهم إنْ ظهر منهم ما يخالف الشريعة . ولكن هؤلاء المشايخ كبروا أنفسهم ومشايخهم وأبائهم أمام الخلافة الَّتى اتخذوها لهم آلة فى ترويج مقاصدهم وكأنهم يمنّون على جلالة السلطان بها .

ولما رأى الشيخ ظافر أن الاعتقاد فيه قد رسخ فى السراى توسع فى الأمر . فمن ذلك أنهُ كان جالساً فى الحضرة السلطانيَّة مع السيد أسعد ، والسيد أبى الهدى وفى أثناء الحديث قام من فوره وقال بهيئة الخشوع والخضوع على الخالي وعليكم السلام ورحمة اللَّه وبركاتهُ . فسألهُ جلالة السلطان بعد أن قام وقام السيدان لهذه التحيَّة العجيبة . فقال : إن الخضر عليه السلام قد مرَّ فسلم علينا فرددت عليه السلام . ولما خرج وبخهُ صاحباهُ وتوعداهُ إن عاد إلى مثل ذلك ، فقال لهما : اعذرانى فقد أخذنى الحال . وقال لجلالة السلطان مرة فى أثناء الحرب الروسيَّة : قد اشتريت لجلالتكم ملك الروسيا بكيلتين من الشعير . وقد أدخل جلالة السلطان فى طريقته وأعطاهُ عهداً .

طعن المشايخ بعضهم على بعض :

هذا وقد حان أن نقول ما يطعن به بعضهم على بعض بألسنتهم وأقلامهم .

يقول السيد أبو الهدى عن الشيخ ظافر : إن جدهُ كان يهوديًا من أهل سلانيك فأسلم وقتلهُ السلطان محمود لزندقته وأن طريقة الشيخ ظافر خارجة عن القواعد الإسلاميَّة ، وأن تآليفه فيها هادمة للإيمان ، وأن صلواته الَّتى ألفها لا يفهمها أحد وإذا

كررها قارئٌ لا يظن أحد أنها صوت إنسان كقوله : (يا هو إلاَّ هو عن هو يا من هو) ويقول : إن الشيخ ظافر يدعي أن شيخهُ الذى أخذ عنهُ الطريق يصعد إلى السماء فيأكل فيها « المجدَّرة » ، (وهو لون من الطعام يصنع من العدس والأرز) ، ويقول : إن الشيخ ظافر يعمل أعمال السفليين فى سحرهِ فيتحفظ بالقرآن [والعياذ باللّه] ، وما يجرى هذا المجرى . وهذا كلهُ مطبوع منشور معروض على جلالة السلطان مشهور بين الناس فى الأستانة ، ويقول فى عرضه ما نمسك القلم عن ذكره . وقد قدَّم رجل اسمهُ الشيخ إبراهيم القربانجى تقريراً يتّهم فيه الشيخ ظافر بكل الموبقات وينسب إليه فيه كل المخزيات ، ويقول عليه : إنه يعمل السحر ويضع عقدهُ وأرقامهُ وكتاباته فى صرة ويودعها فى مواضع خربة بين المقابر فى إسكدار . وقد صدرت الإرادة السلطانيَّة بإرسال الباحثين إلى تلك الأماكن فجاءوا بصرة تحتوى على ما ذكرنا . والشيخ ظافر ينسب هذا كلهُ إلى مكايد السيد أبى الهدى . ومما أُخذ عليه استدلالاً بالاشتغال بالسحر أنهم وجدوا عندهُ صورة جلالة السلطان فوقع لهذا مدة فى انحراف وجه الرضا عنهُ .

(*)ومن قرأ الكتاب المطبوع (بتمزيق نقاب التغرير) ، الذى أغضب السيد أبا الهدى صدور الإرادة السنيَّة بالحجر عليه أن يدخل البلاد العثمانيَّة ، بكى على الإسلام وعلى الدولة بعيون الثكلى ، فقد تضمن من الطعن واللعن فى جماعة من المسلمين منهم الشيخ محمد ظافر ما لا يطعن به عابد اللّه على عابد الشجر ولا المسلم على الأباجيّ ، والشيخ ظافر لا يقابل هذا إلاَّ بطلب الهداية من اللّه للسيد أبى الهدى .

ما يقول أحباء الشيخ ظافر فيه :

يقولون : إنهُ رجل لا يدخل مداخل السوء ولا يقصد أحداً بشرّ ولا يسعى وراءَ الانتقام ممن يضرهُ كثير التواضع طاهر المجلس من الغيبة ورع تقى عظيم الاجتهاد أن يتخلق بأخلاق الصالحين ، وفيّ لأصحابه يزورهم فى منازلهم لا فرق عندهُ فى ذلك

(*) المقطم ٢٠١٣ ، ٤ أكتوبر ١٨٩٥

بين كبيرهم وصغيرهم وغنيهم وفقيرهم ومحضرهُ عند جلالة السلطان محضر خير ، فكم استجلب عفواً عن مذنب والتمس إحساناً لمحتاج ورفع منزلة لمستحق وهو صادق الولاء لجلالة السلطان مطويّ الجوانح على خالص محبته ومن عاشرهُ يحكم بهذا .

قول أحباء السيد أبى الهدى فيه :

يقول المرحوم قدرى أفندى الحلبى الكاتب الثانى للحضرة السلطانيَّة الذى جاء إلى مصر مع درويش باشا ، والسيد أسعد فى كتابه (الكوكب المنير فى ترجمة الأستاذ السيد محمد أبى الهدى أفندى الصيادى الرفاعى الشهير) المطبوع على نفقة أحد مريديه من شيوخ المشايخ فى مصر ما يأتى :

« أما سيدى ومولاى وشيخى وأستاذى وقرة عينى ، ومرشدى وملاذى وجلاء روحى وسلم ارتقائى وفتوحى الأستاذ الأكبر ، والعلّم الأشهر حجة العارفين ، علم العلماء المتبحرين ، قوام الطريقة والحقيقة والدين ذو الجناحين ، وارث جده الإمام الأعظم أبى العلمين سيد أعيان السادة الأشراف خلاصة الخلاصة من أفراد بنى عبد مناف سيف الشريعة المصلت على المبتدعين صمصام الحقيقة المنتدب لخدمة سيدنا ومولانا وإمامنا أمير المؤمنين ، قدوة المشايخ ، الجبل الراسخ ، الكنز المطلسم بأنوا ع الفضائل والفراسة ، والبحر الخضم المتدفق بصنوف الفواضل والسياسة ، المولى الذى استعارت العقلاءُ صيقل العقول من آرائه الشريفة والنحرير الذى عكفت طلاب الحكمة والعرفان على أبواب ساحته ،المنيعة المنيفة ، الثابت القدم الهاشمى الجليل المكانة ، العلى المساعى ، مولاى الصدر الكبير السيد محمد أبو الهدى أفندى الصيادى الرفاعى [فسح اللّه لى وللمسلمين بحياته وأعاد علىَّ وعلى جميع المحبين من فياض بركات أسلافه الكرام وبركاته آمين] . فهو كما شاع وذاع وتواتر فى جميع الأقطار والبقاع وسارت بذكره الركبان ، وثبت فى القلوب وشنف الآذان وأجمع عليه الموافق والمخالف ، واستفاض استفاضة نور الشمس رغم الأعشى المجازف وأذعنت لهُ حجا حجة السادة الأحمدية فى الشام والعراق ، وعبق نشر عطر اشتهاره فملأ الآفاق رفاعى النسب حسينى العنصر والحسب رجال بيته أعيان السادة الأحمديَّة الذين هم

عند من يعلم أعيان السادات وجدوده أقطاب الوجود الذين خرق اللّه لهم العادات ، بل هو علم البيت الصيادى الذى لو ضربنا عنهُ صفحًا لما رأينا للمآثر الأحمديَّة الثابتة فى الموجودات أثرًا ، وشمس سماء المجد الرفاعى الذى لو تعامينا عنهُ لما عرفنا لهذا المجد الباهر خبرًا » .

ومن عجائب أسرار اللّه أن والدة السيد المشار إليه رحمها اللّه ، كانت على قدر عظيم من الصلاح [لائحة عليها أنوار النجاح ، وقد كان يضرب بها وبشقيقتها هناك الأمثال لما منَّ اللّه عليهما من الصلاح والتقوى وحُسن الحال ، وكان ولى اللّه شيخنا العارف باللّه السيد رجب الرفاعى الصيَّادى ، صاحب كفر سجناء إذا رآها قبل ولادة ولدها السيد المترجم حفظهُ اللّه يكنيها به وينوّه لها باسمه ، وكان الأمر موافقًا لكشفه الصادق وبصر سرهِ الحاذق] .

« ولما ولد [أيدهُ اللّه] سماهُ الشيخ المشار إليه وكنَّاهُ ونفخ فى فمهِ ودعا لهُ وربى بحجْرِ الدلال رضيع ثدى التقوى والكمال وقد أقسمت والدتهُ البرة التقيَّة [رحمها اللّه] أنها ماأرضعتهُ مرة إلاَّ وهى على وضوءٍ ، ولما بلغ ستة أعوام من العمر قرأ القرآن بثلاثة أشهر ، وفى السنة السابعة أتقن علم التجويد والقراءات وفنونها على الرجل الصالح شيخ القراء بتلك الديار يومئذٍ الشيخ محمود بن الحاج طه ، وكتب وأحسن الكتابة ، وقرأ الغاية وشرحها فى المذهب الشافى على الشيخ محمود المومأ إليه ، ثم لازم غيرهُ من المشايخ فقرأ علم العربيَّة ، وعلم الفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان [رحمهُ اللّه تعالى] وأكثر من قراءة علوم الآداب ، واللغة والأصول ، والحديث والتفسير ، وتوسع فى الفنون وحفظ أكثر المتون ، وتبحّر فى علوم البلاغة والتاريخ ، والنسب والبيان والبديع ، وطال باعهُ فى التصوُّف فحل بدقيق تصرفه غوامض معانيه ، وأوضح مضمرات خوافيه ، وبلغت محفوظاتهُ إلى ما يزيد عن مائة ألف بيت » .

وعلى ذكر حفظ الشعر نذكر شيئًا من ديوان شعرهِ المطبوع الذى قرظهُ الأدباءُ وبالغ فى وصف بلاغته الشعراءُ ، فمن ذلك قولهُ :

كم لسلب الشعور سلسلتُ شعرًا ... لدغهُ فوق لدغة الثعبانِ

رب يوم تلقى بهِ العبد مولى ... هكذا شأن دولة الديَّانِ

وقوله :

سلوك طريق الرجال الأدبْ ... وخونس الطريقة خوض العطبْ

فمن نازع الشيخ فى أهلهِ ... بذم وأمل منهُ الإربْ

كصاعد سطح بلا سلم ... وطالب علم بقطع الحطبْ

وثاقب سيناءَ فى إبرة ... لعمرك أن ذاك إلاَّ تعبْ

لأن يد القوم فى أهلها ... تسد على الغير باب الطلبْ

ضلوع الجهالة معوجة ... تضيق الطريق على من ذهبْ

وسلك الطريق بلا نيَّة ... عجيب وجهل الطريق العجبْ

وقال مادحًا جدهُ الغوث الجليل السيد أحمد الصيادى :

رعى اللّه أيامًا نقضت بشيخونِ ... وحيى لويلات مضينَ بمتكينِ

ليالِ لنا فى ظل أُستاذنا الذى ... بهِ العز للإسلام والحق والدينِ

أبو المجد صياد السباع فتى الوغى ... إذا خاف فى البيدا صدور السلاطينِ

علىُّ جناب شاد آثار أهلهِ ... بسر فشتّتهُ الأوليا فى الدواوينِ

مغيث إذا ضاق الخناق ومنجد ... إذا ما اختبا الفرسان بين الصواوينِ

فرق لهُ معنى نسيم اللقا كما ... لهُ راق خمر الارتقا بالفناجينِ

فتى من بنى قوم كرام أماجد ... محبتهم فرض على كل ذى الدينِ

وقال :

يا غـارة اللّــه طـوفى فـى منــازلنــا دومًـا وحـلى لنــا ما كـان مـن عـقـلِ
يـا غـــارة اللّــه ظــلى فــى معـونتنــا وشــرّفـينـا بخــيـر الخــلق والرســلِ
يـا غــارة اللّــه قــومى دائمًــا أبــداً بنيـــل ما نـرتجى مـن جمــلة الأمــلِ

ويقول أحباؤُهُ عنهُ : إن تلاميذُه ومريديهِ قد بلغوا عشرة ملايين من النفوس ، وأن الشيخ مقتدر أن يجمع من بلاد العرب ثلاثة ملايين من الفرسان ، وقد ذكر هذا بنفسهِ لأحد محررى الجرائد الأوربيَّة وذلك المحرر موجود بمصر الآن ، فإذا نقصوا أتمّهم اللّه من الملائكة . وقال قدرى أفندى لرجل زارهُ فى المابين وكان فى المجلس بعض حشم السراى : إنك لم تعرف الشيخ ولا وصلت إلى ذرة من معرفة قدرهِ . إن اللّه ألقى على قلبهِ علم أربعين كتابًا سماويًا .

وأصحابهُ يقولون عن تآليفهِ الّتى أربت على المائة : إنها من الكرامات الظاهرة وخوارق العادات الباهرة ، لأن الشيخ يشتغل نهارهُ فى المابين بما يؤْمر بهِ من جلالة السلطان ، فإذا رجع إلى بيتهِ لم يسع وقتهُ قضاء حاجاته الضروريَّة وجلوسهُ مع زائريهِ وسمرهُ فى الليل مع خاصتهِ وما رآهُ أحد ممسكًا بكراسة يكتب فيها ، فكيف كتب هذه التآليف الكثيرة الّتى تقضى فيها الأعمار الطويلة ، فهى الكرامة ولا شك .

ويعتقد فيه خاصتهُ أنهُ المهدى المنتظر ويستدلون بأن لفظة (أبو الهدى) عددها تسعة وخمسون بحساب الجمل ، ولفظه (مهدى) عددها تسعة وخمسون كذلك ، وهذا من أسرارهم الّتى لا يبوحون بها لعامة الناس وهى مذكورة فى كتاب يعطى لخلصان المريدين ، ويزعمون أن هذا الكتاب يحتوى على جميع ما حصل للشيخ وما يحصل لهُ وهو من كشف القطب الرواس شيخه . وينسبون لوالده الشيخ حسن الوادى كرامات . منها أنهُ كان يتحدث فى الطريق مع رجل فأحس منهُ إنكارًا لولايته ، فلما وصل إلى فرن تأججت نارهُ استوقف صاحبهُ وقال : انتظرنى ، ثم اندفع إلى ذلك الفرن فدخلهُ بثيابه فصاح الناس عليه فحلف لهم أنهُ لا يخرج حتّى يأكل رغيفًا كان فى يدهِ ، ولما

أكل رغيفهُ فى الفرن خرج عليهم ضاحكًا فوقع الناس على قدميه يقبلونهما . ومن كراماته أن رجلاً دعاهُ إلى بيته فذهب معهُ ، ولما وصل إلى البيت دخل الرجل ليهيئ لهُ طعامًا ، وفى أثناء جلوسه على باب الدار جاء رجل بجمل يحمل خيارًا لصاحب الدار فأخذ والد الشيخ أبى الهدى يأكل من الخيار حَتَّى أتى عليه ولم يبقَ منهُ إلاَّ عدد قليل ، فخرج صاحب الدار فوجد الجمَّال كالمغشى عليه ممَّا رأى فتركهُ حَتَّى أفاق ، ثم سألهُ عن حاله ؟ قال : جئت لك بثمانين رطلاً من الخيار فأكلها هذا الرجل الجالس وما أبقى منها إلاَّ ما ترى . فجمع الرجل الخيار الذى بقى بين يديه وحلف بالطلاق أن لا يدعوهُ مرة أُخرى ، وأن لا ينكر كراماته أبدًا . وقد نقل هذه الكرامة السيد أبو الهدى عن أبيه فى مجلس حافل فقال عبد المجيد الخردجي وهو فى آخر المجلس : يا مولاى إن وزن الخيار كان خمسة وثمانين رطلاً ، فقال الشيخ : نَعَمْ للَّه دَرُّكَ ما أقوى حافظتك . (وخمسة وثمانون رطلاً شاميًا تزن أربعة قناطير وسبعين رطلاً مصريًا) ، وكان فى المجلس الشيخ حسين الجسر الطرابلسى المشهور ، ولما أشيعت هذه الكرامة بين ظرفاء الأستانة أنكرها بعضهم ، ولما سمع الشيخ آكل الخيار بإنكارهم ، قال : إن لم يسكتوا بلعتهم جميعًا . ومن كراماته أنهُ دخل إلى بيته فقيل لهُ : لم يبقَ زيت فى البيت ، فوضع يدهُ فى خابية الزيت الخالية فامتلأت وصار الزيت يسيل منها حَتَّى استجار به من فى البيت أن يرفع يدهُ المباركة .

ما يقول أعداء السيد أبى الهدى فيه (*) :

كان أحد حكام فرنسا يقول فى كل دعوى تُعْرض عليه : « ابحثوا عن المرأة » ، فكانوا إذا بحثوا وجدوا أصل الدعوى امرأة كما قال . كذلك يقولُ أعداءُ السيد أبى الهدى فى كل ضرر لحُق بالدولة العثمانيَّة أو لحُق بأحد رعاياها : « ابحثوا عن الشيخ » ، فإذا بحث الباحثون ونقب المنقبون وجدوا أن جذم كل مصيبة وسنخ كل بليَّة ،

(*) المقطم ٢٠١٦ ، ٧ نوفمبر ١٨٩٥

وأساس كل فادحة هو من الشيخ المشار إليه ، حَتَّى قال بعضهم : إنهُ للسلطان كالشيطان للرحمن . وقد أفرط فى إضراره بالناس حتى أنك لتراهُ يسعى فى إهلاك قرية كانت آمنة مطمئنة بجميع أهلها إذا سمع أن رجلاً منها قال فيه كلمة ليست فى العرض ولا فى الدين لو وجد إلى ذلك سبيلاً . فقد سعى فى نفى الشيخ رشيد المعصرانى إلى رودس لكلمة قالها ، وكره السيد أهلُ الشام قاطبة لأجله . وقد وقف نفسهُ وكلّف الذين يخطف أبصارهم بنياشينه المجوهرة وبرق تأميله الخلب أن يقفوا أنفسهم معهُ لإهلاك النفوس وخراب البيوت ، فإذا نكب بطائفة منهم وقوفهم على حقيقة عقمه خلفتهم طائفة أُخرى من المنافقين الذين لا يعلمون حقيقتهُ .

ولهذا لا ترى أحداً من هذا العالم ثابتًا على ولائه وصحبته ، فقد ظهر لأكثر الناس أنهُ كالشكل العقيم فى المنطق لا ينتج خيراً والأدلة على هذا لا تحصى .

ولقد بلغت به سرعة الانتقال من حصير التكايا إلى بساط السلطنة ، ومن لبس زىّ أهل الطريقة إلى وضع الوسامات العالية على صدره ، أن اعتقد أن العالمين غيرهُ هباءً منثور وصدق فى نفسه ما يكررهُ عنها كاذبًا ، فوضع نفسهُ فوق النجوم ، وأنزل غيرهُ من الناس منزلة الزاحفات من الهوام احتقاراً وهوانًا ، وطمحت نفسهُ إلى ما دون النبوة الَّتى حفظها اللّه بخاتمها . ويقول بعضهم : معذور معذور أن يغتر من إذا كذب قال لهُ المنافقون : صدقت ، وإذا ظلم قالوا لهُ : عدلت ، وإذا ذمَّ أحداً كفروهُ ، وإذا انحرف عن أحد عذروهُ ، وإذا تبسم ضحكوا ، وإذا عبس بكوا ، وإذا تحرك قاموا ، وإذا اختلى خلوة بزيد أو عمرو قالوا : الشيخ فى المناجاة . فالذنب على الناس لا عليه .

ويقولون عنه : إنهُ دخل على جلالة السلطان بتفسير الرؤيا والتنجيم ، ولما فرغت كنانتهُ من السهام الَّتى أصمى بها قلب الدين خرج إلى الساحة الواسعة ساحة الدسائس والفتن ، فإذا كان يقدِّم لجلالة السلطان مائة تقرير فى اليوم فأكثرها : بإيحائه وإغرائه . وقد لعب كل الأدوار فى تعظيم نفسه أمام السلطان ، فقال : إن تلاميذهُ بلغوا عشرة ملايين من الرفاعيَّة ، وقال : إن بلاد العرب فى قبضته ، وأن الأولياء فى خدمته ، وأن النبى ﷺ فى معونته ، وأن اللّه سبحانهُ فى نصرته ، وأن الأقدار فى طاعته . ثم أخذ يلعب دوراً جديداً بملوك الإسلام ، وأنهم فى حاجة إليه

ليتبركوا به ، فطلب من سعيد دلّة البغدادى أن يخبر أحد الجواسيس أن سفير العجم ميرزا محسن خان أسرَّ إليه أن شاه العجم يطلب الشيخ ليزورهُ فى طهران ، فتوقف الرجل أن يكذب على سفيرٍ ، فكان ذلك موجبًا لغضبه عليه ونفرته منهُ وإنزال البلايا عليه من الحبس والنفى والضرب والتهديد بالقتل ، وذهبت خدمة الرجل ثمانى سنوات لهُ تعبًا باطلاً .

ولما يئس منهُ أوحى إلى جاسوس أن يقول : إنهُ سمع من سعيد دلّه أن سفير العجم أخبرهُ سرًا بطلب الشاه للشيخ أبى الهدى وقدم الجاسوس تقريرًا إلى جلالة السلطان بهذا ، فأمر جلالتهُ بالتحقيق والاستنطاق ، فأنكر السفير سعيد دلّه ما قيل عنهما واعترف سعيد بأن الشيخ طلب منهُ أن يكذب هذه الكذبة ، فحلف الشيخ أنهُ ما قال لهُ وأصرَّ الجاسوس على أنهُ سمع من سعيد دلّه ذلك الخبر ، وفى هذه الأثناء احتال الشيخ حتى بلغ جلالة السلطان أن السفير لا يمكنهُ أن يفشى أوامر سلطانه .

وانتهت المسألة على حصول الشك فيها عند جلالة السلطان وقد انتفع الشيخ بهذا الشك . ثم أراد أن يوسط رجلاً لأمير آخر من أمراءِ الشرق أن يطلبهُ من جلالة السلطان ليكون عندهُ مدة من الزمان ، فلم يجسر ذلك الرجل أن يعرض على الأمير ما أرادهُ الشيخ لعلمه أنهُ لا يقدر على غش الأمير ، ولأن الأمير لا تروج عندهُ تلك الأضاحيك لسعة اطلاعهِ وعلمهِ وحزمهِ ، فنشأ عن هذا انفعال الشيخ أبى الهدى انفعالاً عظيمًا خرج به إلى الانتقام من المسلمين جميعاً بدس الدسائس عليهم ولو أدى هذا إلى تفريق كلمة المسلمين .

وقد اعتاد الشيخ أنهُ يعادى كل صدر جالس فى مسند الصدارة وكل شيخ للإسلام يتقلد وظيفة المشيخة الإسلامية ، وقد أمضى حياتهُ وهو ينتظر أن يتقلد هذه الوظيفة ووعدهُ جلالة السلطان بها مراراً . ولما مرض أحمد أسعد عريانى زادهُ شيخ الإسلام كان جلالة السلطان يسأل عن صحته والشيخ أبو الهدى يسأل عن موته ، وهو الذى أبلغ جلالتهُ وفاتهُ ، فسكت جلالة السلطان وأحضر على باشا قيراط الطرابلسى وأمرهُ أن يذهب إلى بيت وصفهُ لهُ وصف خبير به فيطرق على بابه فيدعو عمر أفندى بدرومى زاده بعنوان شيخ الإسلام ويأمرهُ بالحضور إلى المابين . ولما تمَّ تعيينهُ فى وظيفة شيخ الإسلام قال جلالة السلطان للشيخ أبى الهدى : قد أردت تعيينك ولكن

الأتراك اعترضوا بأن العادة لم تجر أن يتولى شيخ للإسلام من العرب ، فأخذ الشيخ أبو الهدى من هذا العهد يبث عداوة الأتراك بين العرب حتَّى لقد كتب رسالة وأمضاها (ترك وإسلام) كأن الترك على زعم الشيخ ليسوا من المسلمين مع أنهم مشهورون بالتمسك بدينهم وجعل دأبهُ مع كل عربي يفد على الأستانة أن يذم لهُ الأتراك ويقبحهم بالقول والفعل .

أما القول فبلسانه ، وأما الفعل فبدسائسه الَّتي يحول بها بين المرء ووصوله لغرضه الذى جاء لهُ فيصدق الرجل كلامهُ لحرمانه ولم يدر أن الحرمان مسبب عن الشيخ ، فإن اتفق أن الرجل نال غرضهُ أفهمهُ أنهُ خلصهُ لهُ بإدماء الأظافر فينال غرضهُ أيضًا .

وينقل أعداؤُهُ عنهُ أن سعيد باشا الصدر الأعظم السابق جاء إلى جلالة السلطان يومًا بأوراق عديدة من الشيخ أبى الهدى بعثها إليه يطلب فيها أغراضًا لهُ وقال : لا يمكننى أن أقضى كل هذا لهُ . فحفظها السيد أبو الهدى عليه حتَّى إذا أمر الصدر أن يزينوا لهُ حجرة في الباب العالى ليقابل فيها السفراء ، قال الشيخ لجلالة السلطان : إن الحجرة الَّتى كانت معدة لجلوس الصدور العظام وكانت مباركة بروحانيَّة سلاطين آل عثمان ومشهورة بأن انتصارات الدولة ظهرت منها خرج منها الصدر اليوم وأى تفاؤل أنحس من هذا فأمر جلالة السلطان فى الحال بإحضار سعيد باشا وسأله عن نقلته . فقال : نعم فضربهُ جلالتهُ بيده ، وبقى ثلاثة أيام محبوسًا فى السراى لا يعلم أفى الصدارة هو أم معزول عنها .

وينقلون عنهُ أن عزيز باشا الطبيب فى المابين تكلم فيه بعض الكلمات فى مسألة لا تذكر فحقد عليه ، ولما زار جلالة السلطان المستشفى المعد للعساكر فى يلديز كان يقف جلالتهُ عند المرضى ويسألهم فوصل إلى مريض وسأل عن اسمه ، فقال عزيز باشا : حميد . فسأل عن مرضه . فقال : مرض الأعصاب . ولما سمع أبو الهدى بهذا قال لجلالة السلطان : إن عزيز باشا لم يحفظ أمام جلالتكم ما يجب عليه وعلينا من جلال شأنكم ، حيث سمى المريض بحميد وادعى أنهُ مريض بمرض الأعصاب . فغضب جلالة السلطان وأمر الأطباء أن يفحصوا المريض ففعلوا وقرروا أنهُ مريض بداء فى أعصابه ، فأمر جلالة السلطان بنفى عزيز باشا بعد ذلك .

ويقول أعداؤه أن لهُ مع كل كبير فى المابين ودوائر الحكومة عداوات وحزازات ومع كل عظيم فى كل بلدة وقد أفتى واحد وعشرون عالمًا من علماء مصر بتكفيره وزندقته ، فهو يريد اليوم أن يخسف الأرض بمصر . وقد سوَّد صحيفة المصريين قاطبة أمام جلالة السلطان بغشه وتدليسه ، ولو كان الشيخ كالناس لعذر العلماء ، لأن الجواب فى الفتوى على قدر السؤال . والعلماءُ أفتوا على سؤال فيه ، يقول السائل : « ما قولكم فيمن أعظم الفرية وكفّر القطب الربانى والغوث الصمدانى الإمام الأوحد ، والسيد الأمجد محيى الدين عبد القادر الكيلانى رضى اللّـه عنه » .

فأفتوا بكفر من يرتكب هذا الذنب العظيم وكان يلزم أن يغضب الشيخ على محرر السؤال لا على معطى الجواب ، ولكن اللّـه قضى أن لا ينجو أحد من ضرره فأصاب علماء الأزهر بشؤبوب من شره .

(*) كان لنا فى نشر « ما هنالك » مقصدان :

أحدهما : أن يتنبه أولو الأمر فيتداركوا الدولة العثمانيَّة أن يقع على نصفها . الثانى ما وقع على نصفها الأول من انفصال بعضه وإضافته إلى الدول واستقلال البعض الآخر خشية أن تزول دولة كان لها المكان الأرفع بين الدول والدرجة العليا بين الممالك والقول المسموع فى مشاكل السياسة ، فإن أصابها رزء بعد الذى مضى منذ عشرين سنة ، فليس عن خور فى جنودها وقوادها الذين شهد العالم أجمع ببسالتهم وبترامیهم على الموت لا يبالون وقع عليهم أو وقعوا عليه وبشهرتهم فى الفنون الحربيَّة ولا عن جهل فى رجال السياسة العثمانيَّة الذين أقر بدهائهم حذاق السياسة من الأوربيين واعترفوا لهم بإصابة الغرض فى ظلمات المشكلات .

ولكن عن خيانة شرذمة من الجواسيس حولوا همة جلالة السلطان عن مصالح الدولة العامة الَّتى جعلنا إهمالُها تحت رحمة الدول اليوم إلى مسألة خاصة وهى إلقاءُ الخوف والرُّعب فى قلب جلالته من كل فرد من أفراد الرعيَّة . فكدروا عليه صفاءهُ

(*) المقطم ٢٠٢٧ ، ٢٠ نوفمبر ١٨٩٥

وشغلوا بالهُ ولفتوهُ عن كل مصلحة للدولة حَتَّى جعلوا تقرير جاسوس واحد لديه أهمَ من معاهدة أوربيَّة ، فأخذ بناءُ الدولة يتداعى . قال أحد رجال السياسة لصاحب لهُ عثمانى : « إنى أتعجب دائمًا من بناء هذه الدولة العثمانيَّة تنصب الدول عليها المجانيق لهدمها من الخارج ، ويضرب حكامها بالمعاول فيها من الداخل وهى قائمة لا تقع » صدق الإنكليز لم تهدمها المجانيق والمعاول ، ولكن هدمتها الأوراق ، أوراق الجواسيس ، فسبحان القادر على كل شىء .

ولما كانت الدولة مدرعة بنفوس السلاطين العظام لم يقوَ عليها شىءٌ ، ولما انعكست القضيَّة وصارت الدولة والملة والأمة والكعبة والشريعة والكتاب والسُّنة دروعًا لوقاية نفس السلطان أصابنا ما أصابنا وأصبحنا تحت رحمة الدول يفعلن بنا ما يردنَ ، وأصبحت أساطيلها على شواطئ البلاد العثمانيَّة تنتظر الأوامر فينا وحسن باشا الجلاد يقول لعزت أفندى : يا كذا وكذا ، تقول : الملة والأمة . والملة والأمة والدنيا والآخرة هى السلطان . صدق الجلاد ، فإنهُ لم يبقَ إلاَّ جلالة السلطان والشيخ أبو الهدى يفتى لجلالته بأن إهلاك الثلث فى إصلاح الثلثين جائز . ولو سمع جلالة السلطان قولهُ لم يبقَ فى الدولة على هذا الحساب بعد ثمان وثلاثين فتوى متتابعة إلاَّ الشيخ والجلاد ؛ وأنهُ لمن نحوسة الطالع أن بقينا حَتَّى رأينا دولة الإسلام فى الاحتضار تئنّ موجعة على أيدى هؤُلاء المشايخ الذين يبخلون عليها فى أحرج الأوقات بكراماتهم الَّتى ملأوا بها الكتب ، وما كان أحوجنا إلى استيقاف الخضر – عليه السلام – [وهو يسلم على الشيخ فى حضرة جلالة السلطان] لالتماس المساعدة منهُ لدولة الإسلام . وهم الشيخ لا يرى الخضر إلاَّ فوق الأصفر الرنان . وعلى هذا فقد يئسنا من القصد الأول لوجود هذا السدود بين الأمة وجلالة الخليفة نائب الرسول ، فإن نفذ منها صوت ناصح من أهل الأستانة كان الجواب ضرب الرقاب ولو كان القرآن الآمر بالنصح مفتوحاً على يمينه ، والسُّنة الآمرة بالمعروف منشورة على يساره .

أما المقصد الثانى : فهو أن يعلم المصريون والعثمانيون حقائق الأمور فى الأستانة وما وصلت إليه الدولة الَّتى قاومت أوربا وحدها ستة قرون من الاضمحلال الذى سترهُ الساترون بأوراق الصحف عن العيون فيسعى المصريون مع العثمانيين الأحرار المعتصمين بالبلاد الحرة إلى استرحام جلالة السلطان فى إنفاذ إرادته السنيَّة

بنشر القانون الأساسي واستدعاء مجلس المبعوثان . فأخذ بعض من لا وقوف لهُ على شيء من أحوال الدولة يرمينا بالتعصب تارة والمبالغة أُخرى حَتَّى قامت الحوادث تشهد على صدق قولنا ، فأنصفونا ونعم المنصفون ونحن لم نذكر إلاَّ قليلاً من كثير واللّه يعلم أن الأمر فوق ما كتبنا ولنرجع إلى ما يقول أعداء السيد أبى الهدى فيه فنقول :

يقول أعداؤهُ : إن لهُ أطواراً متناقضة مع جلالة السلطان فتارة يمدحهُ ويقول : « ربى يحفظهُ هو فى جيبى » ، وتارة يقول فيه ما ينافى ما يجب عليه من الإخلاص لجلالته لنعمه السابقة عليه . فإن السلطان يجرى عليه وعلى أخويه الشيخ نور الدين صاحب رتبة البالا والشيخ عبد الرازق صاحب رتبة إسلامبول بايه سى ، وابنه حسن خالد بك صاحب الرتبة الأولى خمسمائة ليرة فى كل شهر . والشيخ ينفق هذا كلهُ فى معاداة الناس وإضرار عباد اللّه ودس الدسائس ، وربما احتاج فوق ذلك فاستدان برهن جواهره . ومن غريب ما وقع أن جلالة السلطان سمع أنهُ رهن جواهرهُ فى صندوق الأيتام على ألفى ليرة ، وكان الشيخ مكسور الخاطر ، لأن جلالتهُ لم ينف لهُ رجلاً ناصبهُ بعض العداوة . فأراد جلالتهُ استرضاءهُ ، فأحضر الجواهر ووضعها فى سلّة كما توضع الفواكه ، وجعل عليها أوراقًا تسترها وبعثها إليه . فظن الشيخ أنها فاكهة ففتحها فوجد فيها جواهرهُ الَّتى رهنها . والشيخ يرسل كل يوم صباحًا ابنهُ حسن خالد بك وهو من أذكى الأذكياء إلى المابين فيمر فى وقت قصير بأصحابهم والمتفقين معهم فيخطف بمهارته أخبار السلطان من المساء إلى الصباح ويرجع إلى والده بسجل الحوادث ، كما يرجع المخبر إلى جريدته . فيأخذ الشيخ فى ترتيب أعماله عليها ويلقى على الجواسيس ما ينبغى أن يكتبوهُ فى يومها وينتظر استدعاءهُ إلى السراى ، فإذا جاء لهُ الطلب بالحضور إليها ذهب فوضع مقاصدهُ مواضعها فلا يصدر من المابين إلاَّ ما كان موافقًا لرأيه . وربما قضى أشياء كثيرة بإظهار كراهته لها ، فإنهُ يعتقد أن جلالة السلطان لا يثق به ولا يأتمنهُ ، وإنما يخافهُ وليس بقادر على إيذائه للشعوذة الَّتى تمكن بها ولأسرار وأوراق يحفظها عليه عندهُ .

منها فتوى عريانى زاده شيخ الإسلام الأسبق بخلع جلالة السلطان . والحقيقة أن المرحوم عريانى زاده لا يجسر أن يفتى بخلع جلالته مطلقًا لخوفه منهُ ولإحسانه عليه . ولكن بعض المحتالين المتفقين مع الشيخ أبى الهدى كتب سؤَالاً عن ناظر وقف خرَّبهُ

وأضاع ريعهُ . وقدمهُ إلى عرياني زاده فحصل منهُ على الجواب بعزل ناظر الوقف . وكان مقصد السيد أبى الهدى من هذا أن يضر شيخ الإسلام ليعزل فيتولى المشيخة ، فلم تنفعهُ الفتوى فى هذا ونفعتهُ فى شيء آخر وهو خوف السلطان من وجودها عندهُ . ثم أفهموا جلالتهُ أن هذه الفتوى كافية فى خلعه للصفة الجامعة بين ناظر وقف وحاكم أمة وجلالتهُ يخاف من الكلام فيها ومن كل فتوى شبيهة بها . ولهذا ضيق على شيخ الإسلام بالجواسيس تضييقًا تكره لهُ الحياة مع أن الخوف لا ينحصر فى شيخ الإسلام وحدهُ ، لأنهُ يفتى على سؤال والجواب فى الكتاب . وأصغر مفتٍ من أحقر قرية ، وأبو حنيفة وأبو يوسف وشيخ الإسلام ، سواءٌ فى هذا ، لأن الإفتاء ليس من عندهم حتى يتفاوتوا به ، وإنما هو الشرع فكان ينبغى أن جلالتهُ يخاف من الشرع نفسه لا من شيخ الإسلام وحدهُ .

وقد تعب الناس من تقديم التقارير فى السيد أبى الهدى وهى لا تزيدهُ إلاَّ قربًا ولا أظن أن أحدًا يقدر على إسقاطه من مركزه . وهو لا يغيب عنهُ شيءٌ مما ينطق السلطان به ليلاً أو نهارًا ، لأن جلالتهُ أمر المابينجيَّة وغيرهم من الذين يقفون على الحجرة السلطانيَّة أنهم يقفون وراء الباب كلما دخل واحد أيًا كان ويضعون آذانهم عليه للنداء عليهم وقت الحاجة الضروريَّة ، فلا يعزب عنهم قول يقال . ولذلك ترى الأخبار فى السفارات بأوقاتها . وقد أضر هذا بالدولة كثيرًا وسببهُ التحذر والخوف وعدم الثقة بأحد من المخلوقين ، وقد أسرَّ السلطان إلى أحد وكلاء الدولة حديثا فوجدهُ مشاعًا فعاتبهُ على ذلك وقال لهُ : قد أشعت ما أسررتهُ إليك وقدمت على أمر أوجب سخطى عليك ولا أشك أنك القائل المشيع ، فإنه لم يكن أحد إلاَّ أنا وأنت ، فقال الوزير : « والآذان الَّتى على الباب يا مولانا » .

(*) قلنا : إننا كنا نرمى إلى غرضين فى مقالاتنا : الغرض الأول تنبيه أولى الأمر إلى ما هم فيه من وشك السقوط فى الخطر والدولة معهم ، والغرض الثانى تنبيه الأمة إلى الحال الَّتى وضعها أولو الأمر فيها ، فيئسنا من الغرض الأول بما نسمعهُ

(*) المقطم ٢٠٢٨ ، ٢١ نوفمبر ١٨٩٥

اليوم ونراهُ . وأما الغرض الثانى فقد نجحنا فيه كما بيناهُ . ومن بوادره أن جماعة من فضلاء المصريين دفعهم الإشفاق على الدولة والملة إلى طلب غرض هو المُنقذ الوحيد لها الآن مما ألمّ بها وهو نشر القانون الأساسى واستدعاءُ مجلس المبعوثان . وشرعوا فى تحرير ذلك بصورة نصيحة إسلاميةً لمقام الخلافة فأحجم ببعضهم ما أنذرهم به خبير أن لا يؤمن والحال على ما نراهُ من فوز المشايخ أن يوجهوا تلك النصيحة إلى غير الغرض المقصود منها فينعكس الأمر ويذهب تعبهم فى منفعة المشايخ وتكون نصيحتهم من جملة ما يجهز على الدولة .

وهذه صورة النصيحة والأمر للّه .

دعانا الإسلام الذى أنت خليفة النبى ﷺ عليه والبيعة الّتى لك فى أعناقنا أن نعرض على سدتك النصيحة خالصة من جميع الشوائب الّتى تهجس فى الخواطر .

والنصيحة للسلطان من أقوى قواعد الإيمان خصوصًا فى وقت أصبح الإسلام فيه على شفا الخطر .

وأنت يا خليفة الرسول الملجأُ الوحيد اليوم للإسلام وأهله فهو واقف أمامك وقفة الراجى يمد إليك أيدى الملايين من النفوس لتنجيهُ بعزيمتك المشهورة وحكمتك المأثورة ويدك البيضاء . وجميع المسلمين فى المشارق والمغارب يتحدثون فى هذا الوقت بوشك عثرة الدولة الّتى هى روح الإسلام إذا لم تجد من جلالتك يدًا ترفعها .

وما ترتفع الممالك وتصان الدول إلاَّ بالإصلاح الذى لا يجد الأجنبى سبيلاً من خلاله للتداخل فى الشئون .

وأنت يا غياث الملك - أصلح اللّه بك وعلى يديك - كنت أول من أدرك هذا السر منذ استويت على العرش العثمانى فدبرت العلاج ، وزينت جلوسك السعيد بالقانون الأساسى ومجلس المبعوثان ونحن معاشر العبيد المخلصين نرى مع بقيّة رعايا السلطنة أن الوقت قد حان لمباشرة ذلك والسير عليه وقاية للدولة وصيانة للملة .

وقد وجب علينا فرض عين أن ننبّه إلى ذلك لتمكننا من التصريح بما يهمس له كل مسلم فى دار الخلافة وولايات السلطنة ولا يقدر على الجهر به خوف السعاية بقلب الحقائق . ونحن نسمع وجيب قلوب المسلمين فى كل صقع من الخوف على مركز الدولة .

ولا نرى لمؤمن وجه اعتراض علينا في إقدامنا على العرض لسدتك بذكر ما يتألم منهُ المسلمون من الحالة الّتى وصلنا إليها ، قال اللّه سبحانهُ وتعالى :

﴿ ولْتكُن مّنكُمْ أُمّةٌ يدْعُون إلى الخيْر ﴾.

فعلى هذا النص الصريح قمنا بالعرض لسدتك وعلى هذا النص الصريح ترجمنا عما يتردد فى نفوس المسلمين قاطبة .

والإسلام جسم واحد إذا أصاب عضواً منهُ شيءٌ عمّ الألم سائر الأعضاء . فمسلم مصر يتألم لما يتألم لهُ مسلم الأستانة . ومسلم الشرق يتألم لما يتألم لهُ مسلم الغرب . واللّه عزّ وجلّ يقول : ﴿ إنّمَا الْمُؤْمنُون إخْوَةٌ فأصْلحُوا بيْنَ أخويْكُمْ واتّقُوا اللّه لعَلّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

(*) كنا وعدنا أن نأتى على ما يقولهُ أعداءُ السيد أبى الهدى فيه ، ولكن عدلنا عن هذا الآن كراهة أن يستقبح الناس منا التطويل عليهم بما لا يعنيهم من ذكر رجل لا يهمهم ثبت نسبهُ أم لم يثبت أبعدهُ السلطان أم قرّبهُ ، مدحهُ الشعراءُ أم ذموهُ ، غلب خصومهُ أم غلبوهُ ، صحت كرامة أبيه أم لم تصح . ومع هذا استفدنا من ذلك التطويل فائدة واحدة وهو علمنا بأن الزمان متشابه الحوادث ،إن فصلت بينهما القرون العديدة .

هذه الأستانة دخلها السلطان محمد الفاتح وأهل الحل والعقد فى حكومة الروم يتنازعون بينهم على أيهم يتقدم الآخر فى المجلس المنعقد للنظر فى دفع الفاتح عنهم . وهذه الأستانة اليوم على بابها أساطيل الدول وفى وسطها سفراؤها يجتمعون ويفترقون على المداخلة في أمور السلطنة . وهذا صدر الدولة يفرُّ إلى السفارة الإنكليزيّة خائفًا يترقب . وهذا وهذا مما يسيل تامور القلب من العيون .

والسيد أبو الهدى يخاصم ويجادل ويطاعن ويلاعن ويحرم نفسهُ النوم ويحمل عليها اللوم ليجبر الناس على التصديق بصحة نسبه . ولو بلغ موسى الكاظم عليه

(*) المقطم ٢٠٢٩ ، ٢٠٥٠ ، ٢٢ نوفمبر ، ١٧ ديسمبر ١٨٩٥

السلام أن رجلاً طعن في نسبه لم يزد على قوله . اللّه أعلم ، فإن الأنساب من الأمور الّتى يوكل أمرها إلى اللّه ، اللّهمَّ إلاَّ أن يكون للسيد فى هذا الإفراط الذى كان يستغنى عنهُ بما كسبت نفسهُ من الأفعال الجميلة سرٌ من الأسرار ونحن على أثره حتى نكشفهُ . وقد آن أن نختم فصول المابين بذكر جلالة السلطان وحياته الخصوصيَّة فى السراى السلطانيَّة .

السلطان

هو السلطان الغازى عبد الحميد خان الثانى الرابع والثلاثون من سلاطين آل عثمان وخلفائهم . ولد فى اليوم السادس من شهر شعبان المُعَظَّم من سنة ألف ومائتين وثمان وخمسين ، وجلس فى الثلاثين من شهر أغسطس سنة ١٨٧٦ على سرير السلطنة العثمانيَّة « بالإرث والاستحقاق » ، ويراد بالإرث فى هذه العبارة المستعملة رسمياً السلطنة ، وبالاستحقاق الخلافة . وقد استقرت الخلافة الإسلاميَّة فى هذا البيت الرفيع الذى حفظ بيضة الإسلام ستة قرون وذلك من عهد السلطان سليم فاتح مصر الذى بايعهُ الخليفة العباسى بالخلافة بعد أن استفتى السلطان العلماء فى الحالة الّتى وجد عليها الخليفة العباسى من عدم السلطة فى أمور الملك . فإنه كان فى مصر أيام الملوك الجراكسة ، كشيخ الطرق الصوفيَّة لا يعقد ولا يحل وليس لهُ إلاَّ أن يقول لمن يتولى منهم : ولّيتُك على ما وراء بابى . فأفتى العلماء أن الخلافة لابد أن يكون لها السلطة العامة ، فبايع العباسى السلطان سليم الخليفة الأول ، ولكنهُ لم يتلقب بالخلافة ، بل تلقب بخادم الحرمين الشريفين (*) ، وأول من تلقب بالخليفة السلطان سليمان القانونى ، وبقيت الخلافة بعد ذلك لا تذكر إلاَّ مع الألقاب الّتى تضاف إلى أسماء السلاطين . وكان السلطان منهم يذهب عند التولية إلى جامع أبى أيوب الأنصارى ، وهناك يقلدهُ نقيب الأشراف السيف وهذا الذى كانوا يسمونهُ البيعة . ولما أراد أهل

(*) يروى أنهُ كان يصلى فى الحرم بمكة والخطيب يدعو لهُ ، ويقول : « مالك الحرمين الشريفين » ، فأوقفهُ وقال : « خادم الحرمين الشريفين » فصار ذلك لقباً لهُ .

الحل والعقد خلع السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد نقلوا السلطان مراد ليلاً إلى ديوان السر عسكريَّة ، واتفقوا أن يبايعوهُ البيعة الشرعيَّة الَّتى تعقد بها الخلافة توثيقًا لمشروعهم . فقام حسين عونى باشا وكان يرى على وجه الشريف عبد المطلب نيَّة التوقف فى البيعة وقال : من لم يبايع هذا – وأشار بيده إلى السلطان مراد من الحاضرين – فى هذا المجلس ضربت عنقهُ . فبايعهُ أهل الحل والعقد على العمل بالكتاب والسنة .

لا يظن القارئُ أننا خرجنا عن الموضوع بذكر قصة تاريخيَّة ، فإنا قصدنا ذكرها إلاّ لأنها لا تخلو من فائدة مهمة ، ولكى يعلم الناس أن الخلافة جرت على الوجه الشرعى فى السلطان سليم والسلطان مراد .

ولنرجع إلى ذكر جلالة السلطان فنقول : هو نحيف الجسم ربعة أو تحت الربعة فى الرجال ، عصبيٌّ المزاج ، قويُّ العارضة ، متوقد الذكاء ، شديد التيقظ والحذر على نفسهِ كأنهُ يرى أنهُ نصب لهُ فى كل خطوة مكيدة . وقد بذل جميع أوقاته وجزءًا عظيمًا من أمواله فى المحافظة على نفسه بما لم يسمع بمثله ، واستعمل لذلك ما يبعد أن يخطر على البال من أفانين التفرقة بين الناس حَتَّى صار جمعهم لديه مفرداً واستحال أن تقع عليهم صيغة الجموع ، فالكل هو والواحد هم . وقد بلغ بذكائه فى أساليب التفرقة إلى ما لم يحط مكيافلى به علماً فأبعد عن الأستانة من أهل الحل والعقد من يزدوج وأبقى فيها من يعلم أنهُ ينفرد . وقد جرت عادتهُ أن يعد كل وزير فى الوزارة بالصدارة حَتَّى لا يعيش الصدر بينهم مستريحًا وحَتَّى لا يجد فرصة من مكائدهم ليفتكر فى خلع السلطان . ولهذا كره الصدور الذين ذاقوا تلك المرارة أن يقبلوا الصدارة .

وكثيراً ما يستدعى الصدور المعزولين ويختلى بهم على علم من الصدر المنصوب ليكون عينًا عليهم لا تنام ، وقد استدعى إحدى الليالى المرحوم خير الدين باشا إلى المابين ودخل به إلى حجرة بعد حجرة بعد أُخرى وأمر الحاشية أن يغلقوا جميع الأبواب فأخذ الصدر المعزول يعظم فى نفسه ما سيلقيه عليه جلالة السلطان من الأسرار المهمة . فجلس معهُ مدة طويلة والحديث كلهُ فى الطيور والعصافير وخرج وهو لا يدرى على أى شيء بنى جلالتهُ هذه الخلوة بتلك الصورة العجيبة .

ويقول العارفون بحدة ذكائه وقوة عارضته ودقة نظره : إنهُ لو صرف من عنايته بالمحافظة على نفسه جزءًا قليلاً خالصًا لا تشوبهُ تلك المحافظة فى شئون الدولة لم يصبها ما أصابها . ولكنهُ مهما أعطى من عنايته للدولة ، فالمقصود الحقيقى منهُ التحرز على نفسه . وهو قليل العناية بالمطاعم والمشارب واللذات وليس فى حياته وعيشته شيءٌ شعريٌ على قول الإفرنج ، بل كل أفعاله وأعماله جد فى جدّ . وقد ذكر أحد الوزراء فى حضرته نكتة لطيفة ليضحكهُ بها فحوَّل وجههُ عنهُ ولم يخاطبهُ مدة بقائه في المجلس . ولا يشرب الآن الخمر كما يزعم الزاعمون ، لأنهُ يمنعهُ عنها ما يعتريه فى أكثر الأوقات من الصداع ، ولأنهُ لا يرضى أن يفقد بها جزءًا من تيقظه وحذره على نفسه . ولا ينام جلالتهُ فى حجرة مرتين متواليتين . ولجلالته كلب عظيم الجسم يحرسهُ في الحجرة الَّتى يقع عليها اختيارهُ للنوم فيها . وهو يصب الماء البارد على جسده ثلاث مرات فى اليوم ولا يستغرق في النوم ، وربما لم يجاوز نومهُ أربع ساعات فى الليل . وكان لجلالته جارية شركسيَّة اسمها ملك وعمرها تسع سنوات تباشر خدمة جلالته . فوقف يصلى بعض الأوقات وكان أمامهُ مرآة فرأى فى المرآة أن الجارية خطت خطوة من مكانها . وكان جلالتهُ قبل الدخول فى الصلاة قد وضع المسدس الذى تعوّد حملهُ في موضع من الحجرة . فخرج من الصلاة ورتب على تلك الخطوة الَّتى خطتها الجارية آخر ما يراد من المسدس وأمر باستنطاقها . فقامت السراى وقعدت ، وانتهى الأمر بنفى الجارية وخمسين من الجوارى . والسراى لا تخلو داخلاً فى أكثر الأوقات من هذه الحركات ، وإذا تعطلت الأشغال فى المابين أيامًا عرف الناس أنهُ فى الداخل ما يشغل عن الخارج . وقد قال أحد عقلاء الوزراء : إن جلالة السلطان وقف حياتهُ على حفظ حياته فلم يبقَ لهُ ولا للرعيَّة شيءٌ منها .

ولا يعرف جلالتهُ من اللغات إلاَّ اللغة التركيَّة وألفاظًا قليلة من اللغة العربيَّة على لهجة أهل الحجاز أخذها من أفواه الخصيان السودانيين فى الحرم السلطانى . ويفهم جلالتهُ جملاً من اللغة الفرنسويَّة لطول استعمالها أمامهُ مع السفراء . وهو من أغنى ملوك الأرض الآن ، ولم يجمع سلطان عثمانى ما جمعهُ من الأموال وامتلكهُ من الضياع . وقد كان من أعظم الأسباب لنفاد ثروة الأهالى هذه الضياع الواسعة الَّتى امتاز من يشتغل فيها بإعفائه من العسكريَّة ، وكثير من الأموال الأميريَّة فعمرت تلك

الضياع وخربت البلاد ونهب نظارها ومديروها ثمانية أعشار ما يجنون منها والخزينة الخاصة لا تحصل إلاَّ على اثنين من العشرة من دخلها .

ومن شدة التحرز والتوقى صار جلالتهُ لا يثق بأحد مطلقًا قريبًا كان أو بعيدًا . وقد رأى مرة من نافذة قصره أحد مربى نجله سليم أفندى يكلم عسكريًا ، فأمر فى الحال باستنطاقهما واشتغل جلالتهُ بهذه المسألة أسبوعًا وهما مسجونان . وهو كثير التردد ، ولكنهُ إذا عقد العزيمة على أمر فهو الحكم البت والقضاءُ الحتم . وهو شديد التأثير على من يحادثهُ ، فلا يخرج أحد من عنده إلاَّ راضيًا ولكن هذا الرضى لا يبقى إلاَّ ريثما يلاقى الخارج داخلاً بعدهُ ويبلغهُ ما سمعهُ من المقربين عنهُ فى غيبته فينقلب الرضى حنقًا وغضبًا . ومن هذا أن أحد الوزراء كان جالسًا أمام جلالته فجاءت القهوة فأخذها جلالتهُ وناولها لهُ بيده ، فقام الوزير وقعد وركع وسجد شكرًا على هذه العناية وكان السلطان يلاطفهُ بكلام ألذ من البشرى . ثم قابل الوزير بعد هذا المجلس صاحبًا لهُ دخل وراءهُ فذكر لهُ صاحبهُ القهوة واتبعها بما سمعهُ فى غيبته من فلان وفلان . فقال الوزير : إنى لما أخذت القهوة حسبت ألف حساب فالحمدُ للّه على اكتفائهم بالسباب .

ولولا التحرز والتوقى اللذان استغرقا أوقاتهُ وأموالهُ لكان أول سلاطين آل عثمان قدرًا وأكبرهم شأنًا . والظاهر أن هذا التحرز ابتدأ معهُ من أيام عمه حين أمر بالتضييق عليه وعلى أخيه السلطان مراد بعد أن تكلم نابليون مع السلطان مراد على المائدة في باريز بحضرة عمه السلطان عبد العزيز كلمات بالفرنسويَّة يؤانسهُ بها . فتخوف السلطان عبد العزيز من هذا وأمر فى الحال بالتضييق عليهما ونقلهما من قصورهما إلى بيوت صغيرة أحيطت بالجواسيس . ثم إذا أُضيف إلى هذا ما رآهُ بعينه من خلع عمه وأخيه قويت الأسباب الموجبة للخوف ؛ ولكن للأمة عليه حقًا تطلبهُ منهُ حفظًا لراحتها ، فإنهُ حصر الأمور جميعها صغيرها وكبيرها تحت مراقبته ونظره وعدم تسليم شيء منها لأحد من كفاة الدولة . ولهُ نوادر فى الإحسان عجيبة ، فإنهُ يعطى لشخص خمس ليرات مرة ، ثم يعطيه خمسة آلاف ليرة مرة أخرى . وهو شديد الخوف من الكوليرا ، لأن امرأة اسمها ماهتاب من الضاربات بالودع وبنتها مقيمة فى السراى عندهُ الآن أخبرتهُ قبل جلوسه على سرير السلطنة أنهُ يتولى الملك ويخشى عليه من الكوليرا . فلما وقع بعض الإصابات فى الأستانة العام الماضى واشتبه الأطباءُ بها

نفى الذين نفوها وأحسن على الذين أثبتوها ، لأن نفيها يدعوا إلى إهمال التوقى ولا يخفى ما فيه من سوء النيَّة . هكذا يقال ، وهى لا تزول من الأستانة لأنها أصبحت من أسباب الزلفى والقربى .

خــلع السـلاطين

إن جلالة السلطان عبد الحميد شديد الرغبة فى أن يتصف بالحزم والتوفير وحُسن الإدارة والتدبير ، فلم يبنِ كما بنى أسلافهُ العظام من شامخات القصور الَّتى استنزفت أموال الدولة . وهو من المحافظين على بقاء القديم على قدمه فلا يسمح بما يسميه أهل العصر بالمحسنات العصريَّة كالكهربائيَّة والتلفون وما أشبه ذلك ، ويقول بعضهم : إن السبب فى الامتناع عن إعطاء الامتياز فى التلفون كراهة قرب المواصلات بين أفراد الرعيَّة ، لأن المقربين من الحاشية أفرطوا فى إظهار خوفهم على جلالتهِ من رعاياهُ الأمناء الصادقين حتَّى دعاهم هذا أن جعلوا الجبن من أبهى ما يتزينون به . وصار أحدهم إذا رأى فى الحضرة السنيَّة ورقة مكتوبة بالمداد الأحمر وقع مغشيًا عليه لمشابهة المداد الأحمر بالدم .

ولجلالتهِ غرضٌ مهمٌّ يسعى وراءهُ ولكنهُ يخشى نشرهُ قبل أخذ الاحتياطات لهُ وهو حصر الوراثة فى أكبر أنجاله ، وإنهُ لأحسن الأعمال المفيدة للدولة والرعيَّة . ولو التفت الناس إلى التاريخ لفتةً واحدة لوجدوا أن هذا البيت الكريم تأسس على هذه القاعدة من أيام السلطان عثمان الأول . وما زال الإرث فى السلطنة جاريًا عليها مدة ثلاثمائة سنة إلى السلطان أحمد . وقد تولى السلطنة على هذا النمط أربعة عشر سلطانًا عثمانيًا وكان بقيَّة الإخوة يتولون مناصب الدولة . وهذه أمثل المزايا الَّتى فقدتها الدولة والرعيَّة ، فأصبح ولاة عهودها يعيشون بين الجوارى والخصيان والخدم ، فإذا جلسوا على سرير السلطنة كانوا كمن خرج من ظلمة شديدة إلى نور باهر يغشى البصر دفعة واحدة إلاَّ من وهبهُ اللَّه من نور البصيرة ما يعينهُ على هذا الانتقال الفجائى . واستمر ولاة العهود على هذه الأسلوب يتدربون على أعمال الدولة نحو مئتي عام حتَّى ثار بعضهم على السلطان محمدالفاتح ، فأراد أن يدرأ عن نِفسه وعمن بعدهُ ، فسنَّ

قانوناً أباح فيه للسلاطين أن يقتلوا إخوتهم عند ارتقائهم سرير الملك . وجرى الأمر على ذلك يتوارثونهُ كابراً عن كابر حَتَّى تولى السلطان أحمد الملك وكان عمرهُ أربع عشرة سنة ولم يولد لهُ ولد فأبقى على أخيه ولم يقتلهُ .

ولما أن رُزِقَ بولد كان الشفيع لبقاء أخيه والمنقذ لهُ من الموت ما فطرتهُ عليه الطبيعة من السذاجة . ولما أوفى على الوفاة ، فكّر أنهُ إذا أوصى بالملك لابنه على حسب العادة الجارية والقاعدة المتبعة فى البيت وهو فى سن اثنتى عشرة سنة لم يأمن عليه بائقة الجيش الذى كان حينئذ فى شغب ، فرأى أن يولى أخاهُ وهو الساذج ، فلا يلبث الجيش أن ينتقض عليه لقلة تدبيره ، وحينئذٍ لا يكون أمامهم سوى ابنه مرشحاً للملك . وقد جاءت الحوادث مطابقة لما دبرهُ ، فلم يمكث أخوهُ السلطان مصطفى إلاَّ بضعة أشهر فى الملك ثم خلعوهُ . ومن هنا يبتدئُ تاريخ الخلع فى ملوك آل عثمان حتى صار كأنهُ فيهم طريق مسنون . فإن عددهم يبلغ أربعة وثلاثين سلطاناً لم يمت على فراش ملكه منهم إلاَّ تسعة عشر سلطاناً والباقون ماتوا بين مخلوع ومقتول وشهيد منهم أحد عشر مخلوعاً وثلاثة تنازلوا عن الملك من تلقاء أنفسهم وواحد مات شهيداً فى الحرب وإليك البيان :

الخلع الأول : خلع السلطان مصطفى الأول لسذاجته وعدم لياقته للحكم . وقد كان رحمهُ اللّه آية فى التبذير والإسراف . ومن نوادره أنهُ كان يقضى وقتهُ مطلاً على البحر وبجانبه مال الرعيَّة فيرمى الدينار فى إثر الدينار ليطرب من رنته فى الماء ولئلاَّ يحرم السمك كما كان يقول مما يتمتع به الإنسان فى قضاء حوائجه إلى غير ذلك من الأعمال . فثار عليه العساكر فخلعوهُ بعد بضعة أشهر من ولايته ثم سجنوهُ .

الخلع الثانى : وتولى بعدهُ السلطان عثمان الثانى ابن السلطان أحمد الذى تركهُ والدهُ فى الثانية عشرة من العمر كما ذكرنا آنفًا . فاشتغل باللهو والشهوات ، فأفرط وأسرف ، وكان يكره العساكر وكان اهتمامهُ بتعبير الأحلام واعتقاد الأوهام وتسلط عليه الأغا وخوجه أفندى شيخهُ . وكان شديد الولع بالتجسس أيضًا ، ولكن لم يمنعهُ الخوف أن يباشر التجسس بنفسه ، فكان يخرج متنكراً فى الأسواق ليقف على من يخالف أمرهُ فى تناول المسكرات وتدخين التبغ . فإنهُ كان قد شدد فى النهى عن

تعاطيهما ، فكان إذا عثر على من يشرب الدخان أو من يتعاطى شيئًا من الخمر أمر بقتله فى الحال والتمثيل به . وما زالت هذه حالتهُ حَتَّى راق لهُ أن ينقض عادة آبائه وأجداده من سلاطين آل عثمان بالتسرى بالشركسيات ، فأراد أن يتزوج من بنات الأمراء بالعقد الشرعى ، فعقد لهُ على بنت الوزير وبنت شيخ الإسلام ، فوجد العساكر هذا العمل من المنكرات وانتهزوا فرصته فهموا بالانتقاض عليه . ولما أحسّ بذلك أراد أن يفرّق جمعهم فادّعى أنهُ متوجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، فاستعانوا بشيخ الإسلام ليمنعهُ من حج بيت اللّه . فأفتى بأن السلطان لا حج عليه ، فلم يذعن لفتواهُ وأقام على رأيه وتوجه إلى إسكدار وضرب خيامهُ هناك واستعد للسفر إلى الحجاز ، فأمسكوهُ وأعلنوا خلعهُ للحج الذى كان ينوى عليه ووضعوهُ فى السجن ثم قتلوهُ

الخلع الثالث : وأخرجوا السلطان مصطفى ذلك الساذج ليتولى الملك ، فظن أنهم يريدون قتلهُ فطأطأ لهم رأسهُ ومد عنقهُ امتثالاً وخضوعًا فوقعوا على أقدامه يقبلونها . ولما جلس على سرير الملك تجدد بسبب قتل عثمان الثانى من سلاطين آل عثمان ما صار بعد الخليفة الثالث عثمان بن عفَّان رضى اللّه عنهُ من طلب الثأر بدمه . فقام أهل الولايات يطلبون بدم المقتول واستقل بعضها والسلطان لا يدرى شيئًا من ذلك لبلاهته المعلومة ولم يبقَ إلاَّ ثلاثة عشر شهرًا فى السلطنة ثم خلعوهُ .

الخلع الرابع : لما تولَّى السلطان إبراهيم السلطنة مال إلى شهواته ، وكان مسرفًا مبذرًا حَتَّى ساءت أحوال الدولة فى أيامه وعمّت الرّشوة سائر الأنحاء ، وكان مولعًا بحب الفراء السمورية حتى أنهُ كان لا يسأل الجيش عن انتصاراته وأسلابه إلاَّ ليعلم ما جاءُوا لهُ به من الفراء فى غنائمهم . ومن غريب حبه للفراء أن هرّة ولدت عندهُ فصنع لها وليمة وفرش الحجرة الَّتى كان فيها النفاس ليلتها بجميع ما فى خزائنه من الفراء الثمينة إكرامًا لها . وخرج فى يوم عيد على أهل مملكته لابسًا كل ما فى الخزائن من الجواهر والحلى ولم يرجعهُ عن هذا إلاَّ حيلة وزيره . فإنهُ عرض عليه أنهُ إذا ملأ الناس عيونهم منهُ على هذه الصورة خشى عليه تأثير العين فنزعها . وهو الذى

وقف فى أثناء سير موكبه على بائع لبن فطلب منهُ وشرب وهو على جواده ، فاحتال الوزير للاعتذار عن هذا العمل بقوله : إن جلالة مولانا السلطان سمع أن الناس يغشون اللبن فأراد أيدهُ اللّه أن يمتحنهُ بنفسهِ الشريفة إشفاقًا على رعيته . وهو الذى أخذ ابنهُ الرضيع من مرضعته وضرب بهِ حوضًا من المرمر فكسر جبهتهُ لكيلا يكون فى البيت العثمانى غيرهُ فشفاهُ اللّه وصار أطول ملوك آل عثمان حكمًا بعد السلطان سليمان ، فإنهُ حكم أربعين سنة . وكانت الدولة فى زمن السلطان إبراهيم متتابعة الانتصار والظفر وفي أيامه فتح العسكر جزيرة كريد إلاَّ أنهم سئموامنهُ فتألبوا عليه وخلعوهُ بعد تسع سنوات من حكمهِ .

(*) **الخلع الخامس :** ثم تولَّى بعدهُ ابنهُ السلطان محمد الرابع وهو فى سن أربع سنوات . وكان مشهوراً بشدة شغفه بالصيد . وقد قضى مدة ملكه فى الفيافى والقفار للصيد ويعدّون مدة إقامتهِ فى قاعدة سلطنتهِ مع طول زمن حكمهِ بالأشهر . وكان قد منح اللّه الدولة ووهبهُ من فضلهِ رجالاً من أهل الفضل والتدبير ، وهم رجال العائلة المشهورة بكوبرولى فتولَّى الصدارة منهم الجد والابن والحفيد ، فشيدوا أركان المملكة وضبطوا الجمهور ، ونظموا الأمور والسلطان مشغول بالصيد فى جبال الروم ايلى . ولما توفى أحمد باشا كوبرولى واسطة عقد هؤلاء الصدور وأشهرهم حزمًا وعزمًا وحلاً وعقداً وهو صاحب الكتبخانة المشهورة بقرب مدفنهم بالأستانة . وقعت أمور الدولة فى يد من لا يُحسن سياستها وتقلّد المناصب من لا يستحقها ، وتولَّى الأحكام من ليس بأهل للقيام بها والسلطان مشغول بصيده والدولة مشغولة بحصار فينا الشهير الذى رجعت منهُ غير فائزة . وكان هذا أول انحطاط السلطنة العثمانيَّة الذى لم ترتفع بعدهُ وهو يماثل عودة نابليون الأول من موسكو . ولما تولَّى الكوبرولى الثالث وكيلاً عن الصدر ، لأن الصدر كان فى الحرب كما جرت به عادة الدولة ، جمع العلماء فى جامع أيا صوفيا وكشف لهم سوء الأحوال وما لحق بالدولة ، فأعلنوا عند ذلك خلع السلطان ،

(*) المقطم ٢٠٩٣ ، ٨ فبراير ١٨٩٦

ولكنهم لم يحبسوهُ ولم يقتلوهُ ، بل تركوهُ فى أدرنه يصطاد ما عاش ، فبقى ست سنوات فى لذة الصيد والقنص .

الخلع السادس : وتولَّى الملك مصطفى الثانى وقد وقعت فى أيامه الحرب بين الدولة وروسيا والنمسا ، فتبسّم الانتصار للدولة أولاً ، ثم كشّر لها عن نابه ثانيًا فتداخلت إنكلترا وهولاندا لفض الحرب ، وعقد الصُّلح فتم أمرهُ بالمعاهدة المعروفة بمعاهدة قرلويتس ، ولكن العساكر العثمانيَّة رأوا هذا الصلح يحط من شرف الدولة وقدرها ويخفض من مجدها وعزها (ومن للدولة بهم ليروا معاهدة برلين) فثاروا على السلطان وأفتى العلماء بخلعه فخلعوهُ .

الخلع السابع : ثم تولَّى السلطان أحمد الثالث ، فطالت مدتهُ نحو ثمانى عشرة سنة وهو صاحب الحرب الشهيرة مع بطرس الأكبر وكاترينا . وكان الذى يباشر الحرب محمد باشا البلطه جى الصدر الأعظم ، فتمكن من حصار بطرس الأكبر والتضييق عليه ، فكاد يأخذهُ أسيراً ، ولكن جاءتهُ كاترينا فرشتهُ فانفض الحصار فى الحال ونجا بطرس الأكبر وفى نجاته كان الويل على الدولة لليوم . ومن نوادر ما يحكى أن هذا الصدر لما سئل عن إغفاله لأسر القيصر وتهاونه فى أمره أجاب ولمن نترك ملك الروسيا يدبر شئونهُ . ولما رجع الجيش مكسوراً على هذه الصورة الفظيعة خشى السلطان العساكر ، فأراد أن يبعدهم بإثارة حرب على الفرس فبادرهُ العساكر بالخلع .

الخلع الثامن : تولَّى السلطان سليم الثالث الملك مدة تسع عشرة سنة وهو يلقب عندهم بفاتح مصر الثانى ؛ لأن فى مدته أخرج الإنكليزُ الفرنسويين من مصر . وكان يحب أن يدخل نظام الجيوش الأوربيَّة فى الجيش العثمانى ، فلم يقبل الانكشاريَّة هذا الانقلاب . واستصوبوا خلعهُ وطلبوا من عطاء اللّه أفندى شيخ الإسلام أن يصدر فتوى شرعيَّة بذلك فأصدر الفتوى بهذا النص « هل يترك السلطان الذى يخالف القرآن الشريف على تخت السلطنة » الجواب « كلاَّ » ، وبناء على ذلك تمَّ خلعهُ .

الخلع التاسع : ثم تولَّى بعدهُ السلطان مصطفى الرابع وكان أكثر عساكر الدولة الذين من حزب السلطان سليم الثالث المخلوع مقيمين خارج الأستانة . فلما بلغهم

الخبر هموا أن يعيدوهُ إلى الملك فاستشعر السلطان مصطفى بذلك ، فبادر إلى قتل عمه السلطان سليم قبل حضور العساكر لإرجاعه إلى الملك . فلما دخل العساكر الأستانة خلعوا السلطان مصطفى ثم قتلوهُ ولم يبقَ وقتئذٍ في بيت آل عثمان إلاَّ السلطان محمود وحدهُ .

الخلع العاشر : هو خلع السلطان عبد العزيز وهو مشهور وأسبابهُ لا تغيب عن ذاكرة أحد اليوم ، فلا حاجة للإطالة بذكرها إنما نقول : إن الفتوى الشرعيَّة الَّتي صدرت بخلعهِ كانت مبنيَّة على أنهُ مختل الشعور .

الخلع الحادي عشر : وهو خلع السلطان مراد وذلك مشهور معلوم ، وقد بنوهُ أيضًا على أنهُ مختل الشعور .

وإذا فرغنا من المخلوعين من سلاطين آل عثمان فنذكر المتنازلين عن السلطنة ، ونذكر الشهيد رضي اللَّه عنهُ .

التنازل الأول : تولَّى مراد الثاني الملك ، وكان رجلاً صالحًا يحب الراحة ويميل إلى الخمول فتنازل من تلقاء نفسه لابنه السلطان محمد الثاني ، وذهب إلى مغنيسيا فسكنها مستريحًا خالي البال . ثم جاء الخبر باستدعائه إلى الملك ثانيًا ، لأن العساكر الذين شرعوا في حرب الروم هربوا وابنهُ صغير لا يستطيع ملاقاة هذه الخطوب ، فحضر وتولى الملك وقاد العساكر وباشر الحرب ، وقد توجه ابنهُ إلى مغنيسيا مكانهُ حَتَّى إذا انتصر واستتبت الأمور وهدأت الأحوال تنازل مرة ثانية وهو التنازل الثاني . وأعاد ابنهُ إلى الملك ، ورجع هو إلى مغنيسيا وكل هذا عن طيب نفس من **الأب والابن** .

التنازل الثالث : هو تنازل السلطان بايزيد الثاني حين حاربهُ ابنهُ سليم لعهدهِ بالملك لأخيه ، فترك لهُ الملك حقنًا لدماء المسلمين وأراد أن يتوجه إلى الحج ثم يعود إلى مغنيسيا للإقامة فيها ، ولكن بعد سفرهِ بثلاثة أيام توضأ لصلاة العصر في أثناء السفر فمات .

أما الشهيد ، فهو مراد الأول رضي اللَّه عنهُ ، قتل في واقعة من حرب الصرب ، وكان بعد الانتصار قد خرج لينظر القتلى فطعنهُ أحد الأسرى ، ثم نقل إلى بورسه الَّتي تسمى باسمه خداندكار . انتهى .

مرآة العالم

(*) حدثنا موسى بن عصام قال : نشأت وما انحنت منى الأضلاع على أحر من حب الاطلاع ، فكنت استقطر الأخبار من أفواه الناس، واستقرئ الآثار من كل أجناس واستطلع الأنباء واستقصى الأشياء واستبطن الأحوال واستظهر ضمائر الرجال فما تركت من أترابى ، ولا غادرت من أصحابى من تخطئنى سيرته أو تخفى على سريرته، وما سمعت بشىء إلا علمته ، ولا عثرت على أثر إلا ترسمته :

وعلمت حتى ما أسائل واحدا عن علم واحدة لكى أزدادها

ومما زاد فى شغفى وضاعف من كلفى لمتابعة الارتحال ومزاولة الانتقال حبا فى الاطلاع على كل البقاع قوله تعالى « **قل سيروا فى الأرض** » فاتحد الأمر بالرغبة ، فحلت لى الغربة والسير فى الأرض يجعل العمر أعماراً ، ويمد فى الأيام فيجعلها أدهاراً ، وإذا غبت عن بلد شهرا ثم عدت إليه أدركت اتساعا فى ذلك الطرف لامتلائه بما مررت عليه . والأرض للمرء دار ، ومن العجز أن لا يعرف المرء وأن ينزوى فى زاوية منها فيجعلها مستكنه وقراره وأهلها أهله فإن نأى عنهم بجانبه فقد عق فى مقاطعة أقاربه .

إنما الأرض والفضاء كتاب فاقرؤوه ونقبوا فى الكتاب

وبهذا التنقيب فتح أولو الهمم والأقدار خزائن الطبيعة وكنوز الآثار . والحياة نسيج ساذج توشيه الأسفار ، والعمر صفيحة ملساء تنقشها الأخطار ، والمرء كالدينار منفعته فى تداول ، واغترابه وضياعها فى اكتنازه واحتجابه .

(*) (مصباح الشرق ٦٠ ، ٢٢ يونيو ١٨٩٩ وكوكب الشرق ، ٣٠ مارس ١٩٣٠).

فاستخرت الله وعليه توكلت وأخذت أهبتي ورحلت فسرت الليلة وسراة اليوم حتى أنتهيت إلى سوق تعرض فيه الركائب السوم ، فاشتريت ظهرا أركبه واستأجرت دليلا أصحبه ، وجعلت أجوب القفر بعد القفر ينشرني حره ويطويني قره ، وأركب البحر بعد البحر يتوارى عني بره ويتبرأ إلى شره ، أخوض الغمرة بعد الغمرة ولا أقوم من عثرة إلى عثرة :

ذرعت الفلا شرقا وغربا لحاجتي   وصيرت أخفاف المطى ذراعه
فلا بر إلا قد طويت بساطه   ولا بحر إلا قد نشرت شراعه

وبينما نسير فى عرض اليم ، ونخوض عباب ذلك الخضم إذا بالأعاصير قد هبت من رقادها ، وصيرت الأمواج من أجنادها فحمي بينها وبين السفينة وطيل الهيجاء ولم ينفع استئماننا بالراية البيضاء :

وملتطم الأمواج يرمى عبابه   بجرجرة الأذى للعبر فالعبر
مطعمة هيتانه ما يغبها   مآكل زاد من غريق ومن كسر
إذا اعتنقت فيه الجنوب تكفأت   جواريه وقامت مع الريح لا تجرى

فمشت القلوب في الصدور وانفتحت بين الأمواج القبور واشتغل كل بنفسه ينظر بعينيه إلى رمسه وانقطعت خيوط الآمال بمقراض الآجال وحانت ساعة ساوى الموت فيها بين العباد ، ولم يعبأ باختلافهم ساعة الميلاد .

وحدقنا فى وجه الموت تحديق النسر فى عين الشمس ، ووقفنا وقفة المقتول بين السيف والرمس وقد تغلبت جيوش العواصف وقضى الأمر وانكفأت السفينة فالتقمها البحر وإذا بيد قذفتنى إلى جزيرة فقراء ليس بها يابسة ولا خضراء وبعد أن سكن روعى حمدت الله على النجاة واقتنعت من رحلتى بسلامة الحياة ثم مشيت ولا أدرى أين أسير وقد متع النهار واشتد الهجير ، فرأيت شيخا قد حله الدهر ومل من الدهر

فأصبحت الأرض وتراً لقوس ذلك الظهر ينبعث نور الهداية من أسرته وتلوح سيما التقوى على جبهته وبعد أن سلمت ورد السلام قال ما خطبك يا ابن عصام لقد كتب الله لك السلامة ونجاك من الغرق وأدركتك العناية .

قال موسى بن عصام : فاستروحت منه ريح الولاية حين ناداني باسمي وعلم علمي واستبشرت بتقريب البعيد وتيسير ما أريد . قلت : مولاى إن الله جلت قدرته قد علمك من لدنه علما، وكشف لك عن حجبه أسراره حجاباً، وأمدك من قدرته بما سخر لك به الكائنات ، وأظهرك بسره على غوامض الممكنات وجعل لك من فضله نصيبا من التصرف فى الكون فلا يستعصى عليك شىء ولا يعجزك أمر. ولى إليك حاجة وأنت بقضائها حقيق ، فقد علمت مما كشف لك من أمرى أن حب الاطلاع هو الذى فصلنى عن أهلى وأخرجنى من بيتي وأبعدنى عن وطنى وكلفنى مشاق الأسفار واحتمال الأخطار وجوب القفار وقطع البحار وسرى الليل وسير النهار. وحاجتى إليك أن تفصلنى عن جو الأرض إلى جو السماء ، فأرى هذه الكرة فى حركتيها حول الشمس وعلى نفسها، وأرى من عليها فى أحوالهم وأعمالهم لأتعظ وأعظ واستيقظ وأوقظ وأذكر المسىء بإسائته والمحسن بإحسانه فتكون سفينة الغرق بك من تعب الحياة راحة الحياة .

الشيخ : واغوثاه لقد طلبت عظيما ، وسألت أمرا خطيرا ، وهبنى بلغت بك طلبتك وأمكنتك من الإشراف على هذه الأرض تنظر ارتماءها فى الفضاء وتقلبها بين الظلمة والضياء ، فكيف لى أن أشد منك فتقوى على رؤية هذا المنظر المدهش والمشهد المدخل، وأنى لمثلك أن يقوى على مشاهد جرم الأرض وهى ترتمى فى الفضاء فتقطع فى الثانية الواحدة سبعة فراسخ « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء » واعلم أن الصانع الحكيم جلت قدرته « أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ثم جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » ليتدرج الإنسان فى مشاهدة هذا العالم المدهش فيقوى على رؤيته بالترقى ، ولو خرج الإنسان من بطن أمه وهو مدرك ثم رأى الشمس فى طلوعها لمات فجأة ، وكذلك الإنسان إذا انفصل عن وجه الأرض ورأى ما لم يتدرج إلى رؤيته من عجيب صنع

الله وعظيم قدرته قضى دهشته . على أنك لو سلمت من هذا لما أغنى عنك النظر شيئا لسرعة دورتيها فاعدل إلى أقرب من هذا إمكانا وابعد منه خطرا واطلب لنفسك طريقا وسطا لا تضل فيه ولا تخشى .

موسى بن عصام : ليس لى خبرة فاختر ، فمنك الإرشاد وعليك العمل فأخذ بيدى فرأيت نفسى معه على مكان عال وسألنى ماذا ترى قلت لا أرى شيئا فمسح بيده على عينى فأبصرت وعلى أذنى فسمعت وعلى صدرى فشف لى كل شيء وقال انظر فبصرك اليوم حديد ، فنظرت ويا حول مانظرت ، نظرت قوما حافين بزوال عليهم ثوب كطيف الشمس يلمع لمعان الآل ، وقد قبض كل واحد منهم على شعاع من ذلك الطيف فراقنى منظره فسألت الشيخ فقال هذا هو الأمل ثم أعدت النظر فإذا أنا أرى شخصا ضخما عظيم القامة تتبعه الناس من جميع الطبقات وهم متكاتفون على لثم حذائه ولمس طرف من ردائه ، فسألت الشيخ من هذا العظيم ؟ فقال هذا هو الباطل ثم تحولت بنظرى فإذا أنا أرى شخصا ضئيلا منزويا تتحامى طريقه الناس وتتحاشى النظر إليه وهو حاسر الرأس عارى الجسد لا سمل ولا طمر ، فسألت الشيخ من هذا المسكين فقال هذا هو الحق .

الشيخ : انظر إلى هذين الشخصين من زبانية الدنيا يعذبان الناس أشد العذاب .

قال موسى بن عصام : فنظرت فوجدت أحدهما آخذا بخناق الفقراء والآخر ممسكا بأطواق الأغنياء والكبراء وكلاهما يمزق فى فريسته وشد ما يمزق . فقلت فى نفسى ما أبشع هذا الوجود ، لا راحة فيه لغنى ولا فقير ولا سلم فيه لعظيم ولا حقير . ثم التفت فسألته عنهما .

الشيخ : هذان هما الألم والسأم فلا يفتأ الفقير بألم والغنى بسأم هذا لحاجاته وهذا لفراغه فإن زاد أحدهم نقص الآخر :

يجنى تزايد هذا من تناقص ذا   واليوم إن طال غال الليل بالقصر

فالفقير يكد ويجهد فى تحصيل حاجات فيؤله الكد والجهد ، ولا سلطان للسأم عليه إلا إذا زايله ذلك الكد والجهد والغنى بما يجده من حاجاته حاضرا يشمه الفراغ فيكاد يقتل نفسه أن لم يكن لهذا الفراغ شاغل من العلم وقد اخترع الناس أنواع الألعاب من نرد وشطرنج وغيرهما ليشغل ذلك الفراغ بتقلب الإرادة وإن السأم ليورد كثيراً من الأغنياء مورد الانتحار فتجد أحدهم يهرب من قصره إلى المدينة ثم يعقب راجعا إلى قصره ثم يفر إلى بستانه ثم يذهب لزيارة صاحبه فلا يلبث معه إلا ريثما يراه ثم ينقلب إلى ضيعته ثم يرجع إلى قصره فيضرب جواريه ويشتم طاهيه على غير ذنب إلا للسأم الذى يهرب منه وهو فى صدره .

موسى بن عصام : إنى لأراهم كما وصفت يتناوبهم الألم والسأم والثانى أقل من الأول فهم فى يده أولى بالرحمة منهم بالحسد وهذه وجوههم مصفرة وأفئدتهم هواء وإنى أرى من بينهم هذا الأصفر وإن كن كالأقحوان والمعلول وأن كان كالأفعوان فهم أسأمهم وأشأمهم وأراه يضرب أمه ويرميها بشمعدان فى يده .

(*)**الشيخ :** دع عنك هذا الأصفر الآن وإن رن ران وإن أصبح كالأقحوان وأمسى كالأفعوان وارجع البصر ثم ارجع البصر إلى هذه العظات وهذه العبر وتأمل فيها تأمل المنجم فى أسطرلابه والمدقق فى حسابه وأخلق بمن فى هذا الموقف أن يرى عجائب هذا الورى فقد وقفت بك على صرح الحكمة ومنار الاعتبار وكشفت عنك عطاءك فكلك اليوم بصائر وإبصار .

قال موسى بن عصام : فجلت بنظرى فرأيت رهطا يقرعون باب غنى قد أوصده قبل دخول العشى خشية الطارق وحذر السارق وكلما دقوا عليه دق من الفزع قلبه وطار من الهلع لبه فزاد حرصا على اللقاء ولما يئس من الخلاص وعلم أن ليس له من لقاءهم مناص وقد زادوا فى الدق وأشفق على الباب من كثرة الطرق انحدر وهو يقول :

« اللهم ألا طارقا يطرق بخير » ثم أخذ يرقب من خصاص الباب وهو يحسب فى نفسه ألف حساب ولما رآهم من سراة القوم سكن من فزعه وخفض من جزعه وقال إن

(*) (مصباح الشرق ٦١ ، ٢٩ يونيو ١٨٩٩ وكوكب الشرق ٦ أبريل ١٩٣٠) .

كانت المصيبة فى القهوة والماء فقضاء أخف من قضاء ثم تشدد وفتح وتكلف البشاشة والفرح وقال لهم : ادخلوا لا أدخل الله عليكم شرا (ولنفسه) : ولا راعنى الله بدق الباب مرة أخرى .

قال موسى بن عصام : فرأيتهم وقد أخذوا مجالسهم وانبرى أحدهم يقول لرب الدار .

الزائر : قد جعل الله لسيدنا الكريم أوفر نصيب من نعمه وأفاض عليه من وابل إحسانه وزاخر كرمه مع ما جمله به من الشيم الكريمة والهمم العظيمة وحب الوطن والدين ورغبة الخير للمسلمين وهذه عساكر الدولة قد هاجمت ملونه ولا بد لها من الإمداد والمعونة ، كما هو الواجب على كل مسلم يحافظ على يقينه وينتصر لدولته ودينه وما فائدة فى اكتناز المال إذا لم ينفق فى مثل هذه الحال وسيدنا أولى أن يكون أول إخوانه فى نصرة دينه وتأييد سلطانه لما خصه الله به من السعة فى الرزق وبذل المنفعة للخلق وقد تألفت منا جمعية لإعانة الجيش وإسعاف الجريح وإغاثة الطريح وجئناك نستمد معونتك ونستميح مرؤتك ومثلك من تستفزه النخوة فيلبى الدعوة وتستنهضه الحمية والهمة فيغيث هذه الأمة وهذه قائمة الاكتتاب فهى بفضلك أجدر وفضلك بها أحرى وما تفعلوا من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا .

قال موسى بن عصام : فسعل الغنى وتنحنح وقال فى نفسه ليتنى لم أفتح ثم قال لهم :

الغنى : أنا لا أحب التظاهر فلا أضع اسمى على هذه القائمة .

الزائر : نعم إن التظاهر بالإحسان مكروه إلا فى هذا الموضع ليقتدى به غيرك .

الغنى : لا شك أن هذه القائمة ستدرج فى الجرائد وقد أقسمت أن لا اشترك فى جريدة ولا أضع اسمى فى جريدة .

الزائر : اكتب فى القائمة ما تكرم به من غير أن تكتب اسمك .

الغنى : ومن يضمن توصيل المبالغ إلى مكانها وأنتم تقرؤون كل يوم كلاما فى الجرائد عن هذه الإعانات ؟

أحد الزائرين : أراه يستخوننا جميعا فقوموا بنا .

الغنى : معاذ الله أن استخونكم ولكن الحزم يقتضى التبصر وإذا قدرنى الله على شيء فأنا أبعث به إلى محله وما على المحسنين من سبيل وأسأل الله تعالى أن ينصر المسلمين وعساكر الموحدين وأن يشفى كل مريض وجريح .

قال موسى بن عصام : فخرجت الجماعة وهم يستعيذون بالله من البخل والشح وأحدهم يقول :

لو عبر البحر بأمواجه في ليلة مظلمة باردة
وكفه مملؤوة خردلا ما سقطت من كفه واحدة

وآخر يقول : تالله لو كانت الوقعة وقعة بدر وجاءه العشرة الكرام البررة يستميحون بره ويستجدون خيره فى ثمن قوس أو رمح لما فازوا منه بأكثر مما فزنا ولا عادوا إلا بالخيبة كما عدنا . ولما أفلت البخيل من أولئك الأصحاب واستوثق من رتاج الباب صعد إلى حجرته فأخرج دينارا من صرته وأخذ يقلبه بين يديه وينظر بعين الشفقة إليه ويقول له الحمد لله الذى نجانى ونجاك من هذه الأشراك ولولا دفاع الله لفقدت عيناى طلعتها وعدمت أذناى رنتك أيغلبوننى عليك وأنت سر هذا الوجود وعلة كل موجود بك ارتفع الجهل فوق العلم وعلا الحمق على الحلم :

رب علم أضاعه عدم المال وجهل غطى عليه النعيم

بك انزلفت الجنة للأبرار وسعرت النار للفجار بك صار العدو صديقا والحسود شقيقا بك تذلل الأهوال وتحول الأحوال فكم وضعت أطواد ورفعت وهاد وأنضبت قفار وخرجت قصورا وعمرت قبورا وأزهقت حقا وأمت صديقا .

المال يسكت عن حق وينطق في بطل وتجمع إكراما له الشيع
وجزية القوم صدت عنهم فغدت مساجد القوم مقرونا بها البيع

فما أقدرك على التقلب والتحول والتكيف والتشكل فى أى صورة ما شئت تظهر وكيف ظهرت تبهر . سبحانك سبحانك ما أعلى شأنك وأجلى برهانك وأعظم سلطانك .

وبعد أن عظمه وبجله وشمه وقبله قال ارجع إلى صرتك لتحفظ فيها وتخزن « فرجعناك إلى أمك كى تقرعينها ولا تحزن » .

قال موسى بن عصام : فالتفت إلى الشيخ أقول له : لقد ملأ هذا الرجل قلبى غيظا بحبه للمال حتى تعدى الحب إلى العبادة وأسمعنى ما لم أسمع فضلة له فمن لى بعاقل حكيم يعرف حقائق الأشياء فيكشف لهذا الأعمى من بصيرته ويرفع غشاوة الجهل عن قلبه ويوقفه على ضلاله فيعلم أنه استعظم ما هو خليق بالاحتقار واستكبر ما هو جدير بالاستصغار .

الشيخ : داء قديم عجز أطباء الأرواح من علاجه فكم قالوا وكم خطبوا وكم وعظوا وكم نصحوا ولم يفلحوا ولم ينجحوا . الآن الداء دفين والمرض كمين وسترى الآن من محادثته مع الحكيم أنه لا يقتنع ولا يعمل بقوله .

قال موسى بن عصام : فما أتم الشيخ كلامه إلا ورأيت أمام البخيل رجلا مهيب الجملة عليه طمر وفى يده عكازة وفى ذراعه خريطة زاد فدنا فظنه سائلا فانتهره قال الحكيم :

الحكيم : أغرك ما رأيت من هيئتى فظننتنى سائلا وأنا بهذا الاكتفاء أغنى من كل غنى على وجه الأرض .

الغنى : من أنت وماذا تريد منى بسخفك وهذرك ؟

الحكيم : أنا طبيب الأرواح ولك بى أعظم حاجة أيها المريض .

الغني : كيف أكون مريضا أيها الغني وأنا في راحة من نفسي وسعة من دنياي ولي صيت شائع وذكر ذائع واسم تفتح به مغالق الأموال وتتفق على احترامه النفوس .

الحكيم : هذا هو داؤك الذى أنت فى حاجة إلى الاستشفاء منه وأنت على ما بك من غنى فقير .

الغنى : تصفنى بالفقر وأنا أمتلك من العقار والضياع شيئا كثيرا ولى فى المستودع المالى تسعون ألفا يسبحن حمدى ويلدن لى فى كل يوم عشر من أمثالهن .

الحكيم : أنت فقير لأنك لا تنفتح بشيء من مالك والفقير المعدم بفضلك براحته وتعبك ونومه وسهرك وقناعته وطعمك وصفائه وكدرك وانقطاع همه لخلوه مما يخاف عليه آفة واتصال همك لانشغالك بترقب الآفات .

الغنى : ولكن فاتك أن لى فى جمع المال لذة تربع على كل اللذات وهى تصور قدرتى على ما فى إرادتى من غير أن أنفق شيئا .

الحكيم : لم يفتنى ما ذكرت وقد يكون ذلك صحيحا لو تناولت قدرتك جميع الإرادات والإرادات يولد بعضها بعضا فلهذا لا تتناهى وأنت مهما بلغت من الغنى وسعة المال فإن قدرتك تنتهى عند حد لا تتعداه ومحال أن تبلغ بك ما لا يتناهى من إراداتك فأنت فى تعب دائم كتعب ذلك الشقى الذى قال فى معرض الافتخار :

وفى الناس من يرضى بميسور عيشة ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبى ما له مدى ينتهى بى فى مراد أحده

اعلم أن حقيقة الغنى فى تقليل الإرادات وكتب حكيم إلى رجل بعث يسترشده إلى الطريقة التى يسعد بها ابنه فقال له : « إذا أردت أن تسعد ابنك وتغنيه فلا تزد فى ماله ولكن أنقص من حاجاته » وقد قال سيد الحكماء صلى الله عليه وسلم « ليس الغنى بكثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس » يعنى قناعتها والقناعة هى قلة الإرادة

ولذلك فأنا أغنى منك ومن كل غنى لأنى تخلصت من عقال الإرادة فأصبحت لا أريد وعبارة « لا أريد » تزن « أملك كل شيء » فأن أردت أن تكون سعيدا فكن فى مثل حال الحيوان من حيث الإرادة واعلم أن الإنسان إذا فقد حاسه من حواسه قلت إرادته فاستراح.لأن الحواس أمهات الإرادات فالأعمى بفقدان البصر قد تخلص من كثرة المتاعب المتولدة من تشعب الإرادات وقد شعر بهذا المعرى ذلك الحكيم الأعمى فقال : « إنى أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر » .

الغنى : لقد بلغ بكم اليأس من الغنى والحسد للأغنياد والحقد عليهم أن قبلتم الحقائق وروجتم الأباطيل وعللتم أنفسكم بالتصورات الباطلة والقضايا العقيمة فجعلتم فى « لا أريد » – ما هى إلا الحرمان المطلق – منتهى سعادتكم وبلغتم من سخافة العقل أن أدعيتم أن الحيوان أسعد حالا من الإنسان وزدتم فى الضلالة فجعلتم العمى نمة ولو أنك جمعت ما قاله أوائلكم وأواخركم من مثل هذه الخرافات وعرضتها فى السوق لما انتفعت بشيء منها انتفاعنا هناك معشر الأغنياء بهذا الدينار ورحماك اللهم فقد كاد الفقر يكون كفرا .

الشيخ : لموسى بن عصام : أرأيت كيف انتهى الأمر بينهما ألم أقل لك إنه لا يقتنع وإن الباطل قد تأصل فى النفوس فصار لا ينتهى الحق منه إلا بالخذلان ولا يكون نصيبه إلا السخرية والاستهزاء .

(*) قال موسى بن عصام : وما كاد يسرى عنى ما أعانيه من نقائص هذا الزمان وبنيه حتى ملت بنظرى ناحية أخرى لأزداد موعظة وذكرى ، فرأيت ويا أقبح ما رأيت رأيت شخصين على أكتافهما سيوف متقاطعة ولكنها غير قاطعة ، ونجوم لامعة لكنها غير طالعة أحدهما يضرب لونه للسمرة والآخر للحمرة ، الأول يتيه بضخامه جسمه وفضل قوامه ، والآخر بوضاءة وجهه وزهرة ابتسامه فما أدهم قافلا عن حرب اليونان ولا السردار عائدا من أم درمان بأكثر منهما عجبا وأشرح منهما

(*) (مصباح الشرق ٦٢ ، ٦ يوليو ١٨٩٩ . وكوكب الشرق ١٣ أبريل ١٩٣٠) .

قلبا وأشد منهما تطاولا إلى التفاضل والتفاخر وتطلعا إلى حب التظاهر إذا أمسكا الكرة والصولجان ووقفا أمام المنضدة يلعبان على أنى رأيت أحدهما قد تمثل فى ديوان حكمه وأمره ومظهر علو قدرة أمام جندى أشقر يكاد يتميز فى ثوبه الأحمر وهو عاطل الكتفين محلى أحد الذراعين فسمعته يلقى عليه كلاما وهو لا يبدى له اهتماما وقد هز كتفيه وأعرض عنه بعطفيه وكلما زاد الجندى فى إغضائه زاد المتملق فى إرضائه بقيامه وركوبه وتذلله وخضوعه حتى ساوى بركبة الجندى جبهته وعاف الجندى أن يلثم ركبته : « رحماك اللهم أمن عن البخيل وذاك العاق إلى رؤية هذا المتهالك فى النفاق ». ولما سئم الجندى من تملقه وتصنعه أشار إليه إشارة بإصبعه وتحسب صاحب تلك الشارة بهذه الإشارة وانهزم حامل اللواء بذلك الإيماء .

قال موسى بن عصام : فتمنيت أن تكون تلك النجوم شهبا للرجوم وتلك الأسياف مغمدة فى الأكتاف ومن أخزى المخازى أنى أراه شاكرا لا شاكيا ولا مستنكرا وأسمع أطولهما قامة وأعظمهما هامة يتكلف الإعجام فى الكلام فيؤنث المذكر بصوت منكر ويذكر المؤنث بصوت مخنث ويضع الكاف موضع القاف والسين مكان الصاد والدال محل الضاد والهاء محل الحاء فالقلب عنده كلب والصيف عنده سيف والضلال دلال والحروب هروب . « فسبحان الفتاح على هذا الفلاح » ولما ضقت ذرعا مما رأيت وسئمت نفسا مما وعيت قلت للشيخ :

موسى بن عصام : من هذان الرجلان وما هذا الذل والهوان ؟

الشيخ : دعهما الآن وانظر إلى إخوانهما فى السودان .

قال موسى بن عصام : فلمحت رايتين تخفقان على أطلال أم درمان فقلت للشيخ :

موسى بن عصام : اشترك يا مولاى دولتان فى الحكم على بلد واحد وهل يجمع فى غمد سيفان ويطلع فى أفق قمران ؟

الشيخ : نعم فقد اشتركت الحكومتان فى الحرب فاشتركا فى الحكم .

موسى بن عصام : وأين جيشهما الحارب ؟

الشيخ : انظر إلى هذه الجموع .

قال موسى بن عصام : فنظرت فرأيت قوما من السمر يعملونت فى الأرض وآخرون في الجسور وغيرهم في قطع الصخور وسواهم فى بناء القصور ومنهم الحاملون لقضبان الحديد ومنهم الغواصون لبناء القناطر ومنهم الناقلون لحمول السفن والقاطعون للأخشاب والغابات والغارسون للأشجار فى الحدائق والساحبون للسفن فى الشلالات وقد عددت خمسين منهم يتناوبون فى حمل مريض من عامة الجنود الأحمر يقطعون به عشرين ميلا ورأيت قوما من البيض يتفيؤون ظلال النعيم ويأتيهم رزقهم رغدا من كل مكان وآخرون من السود معهم على طرف من هذا النعيم ولذة العيش الرخيم فالأبيض كالأبيض فى غمده والأسود كالأسود فى وكره والعامل هو الأسمر .

سكن السماء كان السماء كلاهما　　هذا له رمح وهذا أعـــزل

وقلت للشيخ : ما هذا التباين وما هذه القسمة فى المعيشة ولماذا انفرد هؤلاء السمر بالكد والشقاء وامتاز سواهم بالدعة والرخاء ؟

الشيخ : أما هؤلاء البيض فهم للفئة القليلة أصحاب إحدى الرايتين المشتركتين وهم على قلتهم أصحاب الأمر والنهى والحل والعقد والرئاسة والحكم والقول والفعل وأما هؤلاء السود فهم الذين يستعان بهم على الحروب وتتقى بهم نيران العدو وهم لقوة بأسهم وصعوبة مراسهم وشدة شكيمتنهم وخشونة آبائهم وائتلاف نفوسهم واتحاد قلوبهم تراهم بحيث تراهم من الاعتزاز والإكرام والتمييز والتفضيل فى أوقات السلم ولقد بلغوا من المبالغة فى محاسنتهم أن أتحفوهم بمصاحبة نساءهم وأولادهم أينما رحلوا وحلوا وساروا وأقاموا . وقد جعلوا لتلك النساء أعطية فوق أعطيتهم بما يفوق مرتب سواهم من عامة الجند وأما أولئك السمر الذين تراهم يعملون الأعمال ويرفعون الأثقال وينقلون الجبال فى وهج الهجير فوق حصى الرمضاء وشوك القتاد فهم المصريون أصحاب الراية الثانية وهم المحكومون وذلك نصيبهم والمسخرون وتلك عادتهم .

موسى بن عصام : عياذك اللهم ماذا أرى وماذا أسمع وهل دارت الأدوار وحالت الأحوال وعاد المصريون إلى عهدهم الأول وقرونهم الخالية ينحتون من الجبال صخور ويجرون من الأثقال أهراما ليتخذها حكامهم قبورا وأرماسا ولقد كان الفراعنة يسخرونهم لذلك فيتمثلون لاعتقادهم معهم فى الدين أن روح الميت تعاود جسمه فى قبره يوما من الأيام فيتغالون في التحفظ عليه من البلى بالموميا والتحنيط والدفن فى بطون الجبال تحرزا عليه من تأثير الجو ولكن ما هى العلة فى إقامة هذه الأبنية في العصور الحاضرة بعد أن ذهبت بخرافات تلك العصور السالفة .

الشيخ : ليس سبب ما تراه الآن كمثل ما تتخيله في تلك الأبنية فهذه البنية الشامخة هى القصر الذى يشيدونه لسكنى الحاكم العام وهذا البناء الشامخ هو مدرسة يؤسسونها لتعليم أهل السودان علوم أهل الغرب قد جمعوا لها مئة ألف جنية نفقة بنائها وإن كان العسكرى المصرى على ما تراه هو القائم بالعمل فى البناء من طريق التبرع والتفضل لا أقول من باب القهر والتسخير وتلك الأبنية التى تراها متقطعة فى فضاء الأرض عن بعد عند كل محطة فى طريق السودان إنما هى أماكن ومساكن أقامها الجنود المصريون فى سيرهم من مصر إلى السودان كلما حط الجيش وارتحل وهى إلى اليوم خالية لم تسكن ولم ينتفع بها أحد ولم يكن العمل فيها لمجرد الاضطرار إليها أو لينتفع بها القائمون على عملها بل كان العمل لمجرد العمل والبناء لمجرد البناء أو من باب صرف النفوس عن الاشتغال بما فى ذلك أو لما عسى أن ينتفع له وفود الشركات الإنجليزية إذا آن لهم أوان انتشارهم فى هذه البقاع .

ويعلم الله أن المصريين لو علموا أن هذه الأهرام تقوم شهودا فوق رؤوس العصور تسجل عليهم فى سجل الدهور صحيفة استبعادهم وما تحملته الظهور من أثقال الصخور وأنها حجة تسكن إليها نفوس الذين يسخرونهم فى مثل هذه الأعمال على كرور الأزمان لقوضوا هذه الأهرام قوضا بالأسنان فعل الجرذان ولبروها لحسا باللسان فعل ياجوج وماجوج للخروج قرب يوم الخروج حتى لا يبقى هذا التذكار عبأ على جفونهم مدى الأعصار .

موسى بن عصام : من للشفيق بمثل ماء البحر دموعا يبكى بها على هذه الحال وكيف لا تنشق المرائر أسفا وتسيل النفوس لهفا عند النظر فى حال شريكين يشقى أحدهما ويتعب ويكد وينصب والآخر يجنى الثمرة ويحتكر المنفعة ناعم الحال رخى العيش . إذا اشتد عليه الهجير فى راحته وسكونه تبوا مقاعد له فى أحواض من الماء فأضعف لنفسه من شدة الحر وكسر من حدته وأطفأ من جمرته وإذا احتدم قيظ الظهيرة وغلى مرجلها فغلت منه رأس الشريك الثانى وهو يرزح تحت أعباء الأثقال لم يتبرد إلا فى بحر العرق يتمنى لو أدركه فيه الغرق :

مـــــا أنت إلا مـــــثلهن وإنما خـــيـــر الحـــيـــاة وشـــرها أرزاق

الشيخ : أراك تكاد تذهب نفسك عليهم حسرات وتتلهب أنفاسك زفرات وما هم إلا عامة الجند وحالهم على ما تعلم صبر وجلد واحتمال للتعب والنصب بما تعوده فى بلادهم قبل الجندية من حرث الأرض وحفر الترع وإقامة الجسور مع شطف العيش وضيق اليد وضنك الحياة فكيف بك إذا رأيت خاصتهم وهم الناشئون فى مهد الحضارة والمربيون على ليان العيش فانظرهم فى عودتهم بالرخصة إلى أوطانهم .

قال موسى بن عصام : فنظرت فألفيتهم يتزاحمون ويتراكمون على مركبات القطار فيلقونهم فيها كراديس وأكواما بين الزنابيل والجوالقات لا يقدرون هناك على قضاء ضرورات الجسم وما تخيلتهم بعلم الله فى تزاحمهم وتراكمهم وتلاسقهم وتلاحمهم إلا أنهم فى إحدى الحالتين الهائلتين حالتهم فى ميدان الطعان عند إقدامهم أو حالة أعدائهم فى انهزامهم وتالله لو كانوا فى الأسر لكان مرحهم فى ضيق القد أكبر من مرحهم فى تلك المركبات وما كان ذلك من قلة فى المركبات ولا عن ضيق فى المتسع وإنما اختص الجنس الأبيض نفسه بالمكان الواسع والموقع الرحب فيركب الفرد منهم أو الاثنان فى مركبة على حدتها عريضة الجانب متسعة الأركان بين أدوات المعيشة كأنه فى وسط مسكنه وعرضة داره وتذكرت فى هذه الحال صاحبى تلك السيوف التى لا تقطع والنجوم التى لا تطلع لعلمت أنى بالغت فى التأسف على

حالهما والحزن على ما رأيته من نفاقهما وذلهما فإنه يخفف عليهما من شأنهما ما يقيمان فيه من النعيم وحسن السلامة ورأيت الحزن واجبا والأسف لازما لحال إخوانهما الذين يزيدون عليهما ما تراه من شقاء العيش وقسوة العمل .

(*)(شغل **حديث عيسى بن هشام** عن متابعة ما يحكيه موسى بن عصام فمرت الأشهر والأيام حتى انقضت مدة عام وسافر عيسى إلى المعرض فعاد موسى إلى ما انقطع من كلامه وعدنا إلى ما يدور بينه وبين شيخه وإمامه) :

قال موسى بن عصام : انتهى بنا حديث السودان إلى ما شاهدته من النقصان والرجحان بين أولئك الشركاء فى فتح تلك البلدان وقد كان آن للشيخ أوان التجوال على عادة أهل الحقيقة وأصحاب الأحوال فأمرنى بملازمة السكون والراحة ريثما يعود من تلك السياحة بعد أن ضرب لى موعدا لا يخلفه ليعود بى إلى ما أتوخاه وما أتعرفه ثم أخذ بسره على بصره وغاية ما كنت أراه عن نظرى وقد أمسك بيدى بين أهلى وولدى وذهبت على ذلك شهور وجاءت شهور وانقضت أمور وتجددت أمور وأنا فى عزلة عن الناس وغوغاءهم ووحدة عن مختلطة ضوضاءهم أطوى الوقت فى مطالعة الكتب والرسائل واشتغل بفهم المشكلات من المسائل وبينا أنا ذات يوم من الأيام غائص فى الشكوك والأوهام أتدبر وأتأمل من البحث وأتململ وقد تمثل الشيخ فى خيالى فإذا هو واقف خيالى فقمت احتراما فقال سلاما قلت طالت الغيبة قال حتى حانت الأونة فقلت الوعد قال على العهد فما كاد يلفظ بالدال حتى رأيتنى وإياه على ذلك المكان العالى وقال انظر إزاءك فقد كشفنا عنك غطاءك فرأيت تمثال فارس معمم على جواد مسوم تشخص لجلاله الأبصار وتحار فى هيبته الأفكار فى ساحة تزدان بالأنوار والأنوار فى الليل والنهار ورأيت من دونها بيتا له باب ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب فهو مزدحم أقدام بأقدام وملتحم أقوام بأقوام يمور بهم ويموج وهم فيه كأنهم ياجوج وماجوج وجوههم عليها غبرة ترهقها قطرة :

زال منه السرور والبشر حتى ليس فيه ابتسامة لخداع

(*) (مصباح الشرق ١٠٩ ، ٢٢ يونيو ١٩٠٠ وكوكب الشرق ٢٠ أبريل ١٩٣٠) .

فهذا يتنهد ويتحسر وهذا يتألم ويتضجر وذلك يعبس ويقطب وآخر يصعد ويصوب وغيره يصدق وسواه يكذب وواحد يرهب وعشرة ترغب ومئة تجتمع ثم تفترق ورجال تتناجى ورجل يسترق وحائر يتأبط ذراع صاحبه وخائر يتخبط بجانبه وكلهم قد وضعوا أيديهم على جنوبهم ليطمئنوا على حياتهم من ضربات قلوبهم ورأيت كل خارج منهم يدعو بالويل وبالثبور وعينه ترمى بالشرر وقلبه بالشرر ونظرت فى الخارجين شابا كمن اللؤم فى ثيابه وتقاطر الخبث من إهابه تستغيث الأرض أن تحمله ويأنف الذئب أن يأكله . كان عزيزا فذل ومكثرا فقل قد تدرب على المكر وتعود وتعلم من أبيه أن يتهود وقد دار جماعة الخارجين من حوله يتلقفون من لفظه ويلتقطون من قوله فراعنى ما رأيت وهالنى ما وعيت وسألت الشيخ عن راكب الحصان وعن هذا المكان فقال الشيخ : أما صاحب التمثال فهو من أعظم الرجال وهو مؤسس ما ترى من هذا العمران ومنشىء ما تنظر فيه من الإبداع والإتقان وأما هذا المكان فهو منبع الآلام ومهبط الأحزان ومنشأ الأكدار والأشجان ومظهر الأحقاد والأضغان ومجمع الأموال للخسران هذا البيت المعروف بالبورصة يدخله الغنى فيخرج فقيرا ويدخل العظيم فيخرج حقيرا فكم أذهبت هذه الدار من دور وكم أضاعت من قصور وكم بيع لأجلها من النفائس وكم رهن بسببها من سوار للعرائس وأما هؤلاء الذين تراهم فيه فهم أصحاب المخاطرة فى ما هو فيه من أنواع المقامرة وهى معروفة عندهم بالمضاربة .

موسى بن عصام : ما هى هذه المضاربات ؟

الشيخ : هب أن يشترى الإنسان أو يبيع مالا حصر لمقاديره ولو رأى المشترى هذه الجبال من الأقطان التى اشتراها وهذه الأكياس من الذهب التى يدفعها لاندهش وارتاح أن يخاطر بماله لكلمة يكتبها على ورقة بهذا المقدار ولا شك أن هذا التسهيل فى كيفية المضاربات هو الذى أسرع بالناس إلى خراب بيوتهم ولو رأوا مقدر ما يضاربون عليه من تلك المحصولات الموهومة ومضت عليهم الأيام فى وزنها والساعات فى عد أثمانها لخافوا على ذرية ضعاف يتركونهم من خلفهم وهذا ما جعل المضاربة شرا من المقامرة لأن العين فى المقامرة مرئية فتكون المجازفة بها أقل ومما

يحكى أن ملكا لشاعر بعشرة آلاف دينار فاستعظم وزيره من المقدر واستكثره فأمر الخازن أن يضع هذا المال فى طريق الملك فلما رآه الملك سأل عنه فقال له الوزير هذا ما أمر الملك للشاعر فقال أنا لم آمر بهذا المال كله ورجع فى عطيته فالمضاربة على ما أوضحت لك كالضمان على المال الكثير لا يشعر به الضامن مكتوبا فى ورقة الضمانة ثم يكون خراب بيته من وراء ضمانته .

موسى بن عصام : إذا كانت هذه حال المضاربات فما الذى زينها على أعين الأغنياء من المصريين وجرهم إلى التهور فيما دون النظر إلى غيرها من الأسباب .

الشيخ : لم تكن المضاربات معروفة عند المصريين منذ زمن بعيد ولم يكن يشتغل بها سوى جماعة من الأجانب وشرمذة من اليهود ثم أخذ بعض هؤلاء فى استدراج المصريين إليها وأذاقوهم حلاوة الربح السريع منها فأخذ هذا الداء يفشو بينهم شيئًا فشيئا حتى وصل إلى الحد الذى هو عليه الآن وساعد على ذلك أن أكثر المضاربين المصريين هم من أهل الطمع والكسل ومن جاءهم المال عفوا صفوا بلا تعب ولا كد سوى كان من إرث أو من وجوه أخرى فهم مولعون دائما بأن يأتيهم الربح جملة كما جاءهم رأس المال جملة ولذلك يندر أن تجد أحدا من أهل الكد والعمل أن يشتغل بهذه المضاربات لأن الذى يأتيه المال بالتعب وعرق الجبين يضن أن يخاطر به ولقد كان الكثير من المصريين من أهل الكسل والطمع يشتغلون بالكيمياء الكاذبة بتغرير أناس من شياطين الأنس وأهل الاحتيال فكانوا يطمعون الناس ببعض الربح فى مبدأ الأمر ثم يستترقون أموالهم على طول الزمن وكان المشتغلون بها موضع الانتقاد عند العقلاء حتى أصبحوا لا يشتغلون بها إلا من وراء حجاب فما أولى هذه المضاربات بانتقاد المنتقدمين واعتراض المعترضين وما أجدر أصحابها بالتحجب والتستر عن أعين الناس لأنها والكيمياء توأمان فكما أن للكيمياء شياطين يغررون بها كذلك للمضاربات شياطين يغررون بها فيذيقون حلاوة الربح فيها بادئ الأمر ثم يكون تمن وراء ذلك الطامة الكبرى على أن الكيمياء أخف من المضاربات وطأة وأقل ضررا لأن الخسارة فيها بطيئة ولأن فيها بعض العمل فإذا ضحك ضاحك واستهزأ مستهزئ وسخر ساخر على رجل يشتغل بالكيمياء فى هذا العصر فإن ضحكه واستهزاؤه وسخريته

بمن يتشغل بالمضاربات أولى وأولى وصاحب الكيمياء عدو لنفسه فقط وصاحب المضاربات عدو الناس أجمعين فإنه إذا كان ربحه من هبوط الأسعار تمنى الفيضان إلى درجة الغرق وإذن كان ربحه من صعود الأسعار تمنى الجدب إلى درجة القحط ومن سـوء أدب هؤلاء الناس مع الله أنهم ينذرون النذور ويزورون الأضـرحـة ويستأجرون حملة القرآن لقراءة يس متوسلين إلى الله أن يفيض النيل ليربحوا فيوفوا له بالنذر من ربحهم فإذا انتقل هذا المتوسل من طلب الربح بالصعود إلى طلب الربح بالهبوط انعكس دعاؤه وانقلب توسله وربما تحول إلى النقيض مرارا عديدة فى الشهر الواحد كان ملائكة السماء ليس لهم عمل إلا رفع دعواته المتناقضة ولقد بلغ بهم الجهل والحمق أنهم يلتجئون إلى المنجمين لمعرفة الهبوط والصعود فيبيع الواحد منهم ويشترى على اقتران الزهرة بالمشترى حتى راجت سوق المنجمين فى هذه الأيام بعد كسادها بالعلم والعرفان .

موسى بن عصام : لقد أسمعتنى الآن ما لو حدثنى به غيرك ما صدقت وهل بلغ الجهل بالناس إلى هذا الحد يتمنون خراب البلاد وهلاك العباد فأين الدين وأين الإسلام وأين الجامعة الدينية والرابطة الإسلامية وأين معرفة الله وأين الاعتماد على الله ؟

الشيخ : كل هذا يتضاءل عند الطمع فى المال وإن الجهل بالدين منشأ كل ضرر فإن الدين يحرم عليهم هذا فيحفظ عليهم أموالهم وإنى لو قصصت عليك طرفا مما تكبدوه من الخسائر والمضاربات لحكمت عليهم بأنهم قد خسروا فى الدنيا والآخرة فمن ذلك أن واحدا منهم خسر كل أمواله وكانت عظيمة جدا وأصبح لا يمتلك شيئا وآخرخسر نصف ماله بالمضاربات ونصف دينه بالإيمان والأقسام ألا يعود ثم يعود حتى قال أحد أولاده أن أبى لا يزال يشتغل فى القطن حتى لا يبقى فى بيتنا قطن وقد أراد بعض ذوى الحل والعقد ممن يحرصون على حفظ الثروة لأهلها أن يحجر عليه فأبى عليه ذلك صاحب الاختصاص .

موسى بن عصام : لا حول ولا قوة إلا بالله أراهم يخسرون خسائر متتابعة أفلا يربحون بينها مرة واحدة ؟

الشيخ : إن الربح لا يكون إلا بالقول لا بالفعل والمثال على ذلك ما أقصه عليك فاسمع أتعرف هذا الشاب النحيل الجسم الخارج من مكان البورصة يحيط به جماعة من المضاربين ؟

موسى بن عصام : نعم أعرفه وأعرف أباه من قبله .

الشيخ : لقد كان هذا الشاب غنيا مما ورث من أبيه فأضاع ثروته بالإسراف والتبذير ولما لم يبق له وسيلة لقيام معيشته اتخذ السمسرة فى البورصة مهنة يسترزق بها وكان يرمى بذلك إلى غرضين أحدهما ما ذكرت لك والآخر أن يوقع فى الخسارة من كان لم يزل غنيا من أمثاله فأخذ يغرر بالمصريين ويعدهم ويمنيهم حتى أوقعهم فى أشراك المضاربات وحملهم من الخسائر ما يعد بألوف الألوف فى جانب بضعة الآلاف ربحها من وراء هذه الخسائر الجسيمة فكان هذا وأمثاله ممن اتخذوا السمسرة مهنة لهم من أبناء البلاد من أكبر المصائب على مصر وأهلها فى هذه الأيام ومما أقصه عليك من باب الربح بالقول دون الفعل أن هذا الشاب قد استهوى صاحبا له فاشترى على ذمته ألف قنطار بسعر سبعة عشر ريالا على أمل أن يصعد إلى خمسة وعشرين فدفع له ذلك الصاحب أربعين جنيها على سبيل التأمين تحت شرط أن الخسائر لا تتجاوز هذا المقدار وبعد أيام هبط السعر فلما حضر المشترى عند السمسار أخبره بأنه باع الألف قنطار على اسمه وأن خسارته بلغت نحو أربعين جنيها ومائة جنيه وتقاضاه الفرق فذكره صاحبه بالشرط فأبى إلا أخذ الفرق فرجاه من قبيل المجاملة أن يبيع لاسمه على الهبوط ألف قنطار أخرى ما دام الهبوط مستمرا فلم يرض إلا بخمسمائة قنطار فقط وباعها له بخمسة عشر ريالا وسأله أن يشترى له بهذا السعر ألف قنطار بربح ريالين فى كل قنطار فقال له قد فعلت ذلك أمس واشتريت لك على سعر أربعة عشرة ريالاً . وكسور وكفاك من ذلك ربحا فلما عاد إليه وطالبه بالفرق والربح قال له إن الحساب يدل على أنك قد تركت المضاربات لا عليك ولا لك وأحمد الله على أنك فزت بالأربعين جنيها التى دفعتها تأمينا بعد أن كنت خسرتها وخسرت أضعافها ومن ذلك أن شخصا اغتر بأمانيهم واشتبك فى المضاربات فربح نحو ستمائة جنيه ولما أراد أن يأخذ ما ربحه أخذوا يزينوا له

الاستمرار فى هذا السبيل ويعدونه بزيادة الربح حتى خسر الستمائة جنيه وخسر بجانبها نحو ثمانية آلاف جنيه حتى أصبح مثقلا بالديون وهو الآن متوقف عن دفع هذا المقدار الذى خسره ويرجو أن يتفق معه على ذلك الجماعة من الخاسرين على أن هذه المضاربات قد أنتجت على عقمها فائدة واحدة هى أنها كشفت عن أخلاق أناس كانت مستورة وأخصها الظلم والميل إلى الغبن وإلا فما هو وجه التوقف عن الدفع حال الخسارة مع أن المتوقف لو علم بالربح لقاتل عليه حتى يأخذه ومن ذلك أن رجلا ربح ألفين فأخذها فلما خسر مائة وخمسين تتوقف عن دفعها .

موسى بن عصام : وما هى الحيلة فى منع المصريين عن هذه المصيبة والطامة الكبرى لينفعوا بالبقية من أموالهم ؟

الشيخ :

لا ترجع الأنفس من غيرها ... ما لم يكن منها له زاجر

على أن الواجب على المصريين لما لم يبق فى أيديهم شىء من إدارة بلادهم ولا انتفاع بالخدمة فى مصالحها أن يلتفتوا إلى استثمار ما بقى لهم من المال بعقد الشركات الزراعية والتجارية والصناعية ولكن أنى أن يكون لهم هذا ونحن نرى الأمر على العكس من انحلال الشركات بدل انعقادها حتى أصبحت منافع البلاد بأجمعها منحصرة فى أيدى نزلاءهم فهم الذين يبتكرون المشروعات ويعقدون لها الشركات كشركة الترامواى وشركة الأسواق وشركة معادن الذهب وشركة الزمرد وشركة الفيروزج وغير ذلك من الشركات العديدة والمشروعات المفيدة مما كان المصرى أحق بها وأولى ومما هو غاية فى التساهل والإهمال أن سهام بعض تلك الشركات قد عرضت على المصريين فى أول إنشائها فلم يكترثوا بها اكتراثهم الآن بزيادة بعض القيراط أو نقصان بعض القيراط فى النيل مما لا يعرفون له حسابا ولا يعلمون من وراء غيبه شيئا ثم أنهم فى يعرفون قيمة قيمة تلك السهام ومقدار الربح منها إلا بعد أن صارت فى حيازة غيرهم وأصبحت أثمانها مضاعفة مع أن أدنى نظر وأقل تأمل

كان يكفى بأن الترامواى مثلا سيكون له فى البلد رواج عظيم وربح كثير ولا يصح أن يكون عذرهم قلة الأموال لديهم بعد أن رأيناها تنهال من خزائنهم لتسديد ما عليهم من خسائر المضاربات وأصبحنا لا نسمع الآن إلا بخسارة فلان تسعين ألفا وفلان سبعين ألفا وفلان ستين ألفا وهكذا مما بلغ مقداره ألوف الألوف وليت الأمر وقف عند حد الخسارة فقط بل تعداها إلى ثلم الصيت وفقد الثقة حتى أخذ أصحاب البنوك فى تسجيل أسماء المضاربين عندهم ليجتنبوا المعاملة معهم .

ذا وإنى اكتفى الآن بما ذكرته لك لتقرأه على قومك لعلهم يرجعون .

قال موسى بن عصام : وكان الشيخ ينطق هذه الحقائق والحسرات ملء فؤادى على ما فرط فيه قومى وأهل بلادى .

(*)قال موسى بن عصام : ثم امتثلت إشارته ونقلت للناس عبارته ولكن تعلق بالنفس مما شاهدت بالأمس أن أشاهد أولئك المضاربين المخاطرين إذا انقلبوا إلى أهلهم خاسرين فاطلع طلع أحوالهم بعد ضياع أموالهم وأقف على مبلغ جلدهم بين أهلهم وولدهم فإنه لابد من نوادر عجيبة وبوادر غريبة ومشاهد ومناظر وموارد للعظات ومصادر مما ذكر به المذكر ويعتبر به المعتبر ويختبر به المختبر ويزدجر به المزدجر فإن الذكرى تنفع وتصوير الأحوال يردع فما كدت اطلع الشيخ على ما فى سرى وأكاشفه بما اختلج فى صدرى حتى تمثل أمامى بيت يشف عن باطنه ويكشف عن ساكنه وقال الشيخ : دونك ما انطوى فى فؤادك على وقف مرادك وإذا حجرة سراجها موقد ورتاجها موصد وداخله رجل جاثم أمام أكياس من الذهب تتوقد مثل فؤاده كاللهب وقد وقف خلف هذا المال بنات له وأطفال يقول لهم انظروا ما كنتم تسمعون به ولا تنظرونه وتستخبرون عنه ولا تخبرون هذه هى القناطير من الدنانير هذه الآلاف التى يستهون لفظها اللسان ويتعب فى عدها البنان فينظرون إليها وينكبون عليها ثم يتراهنون على حملها فتنوء بهم من ثقلها فيهوله هذا المشهد ويروعه وتكاد تسقط أمام أهله دموعه فيقول له بنوه : ماذا تفعل بهذا وعلى ما وضعته هنا

(*) (مصباح الشرق ١١٠ ، ٢٩ يونيو ١٩٠٠ وكوكب الشرق ٢٧ أبريل ١٩٣٠)

ولماذا ؟ فيقول لا شترى به قدرا من الأملاك والأطيان ولكن ما لكم ولهذا السؤال الآن ثم يتغلب الهم بهذا السؤال على رشده فيطردهم في الحال من عنده وبعد أن يغلق الباب عليه ويضم المال إليه يخاطبه خطاب المحب فى وداع حبيبه ويشكو إليه شكوى العليل إلى طبيبه ويبالغ فى تعنيف نفسه ويلقى التبعة على رأسه فكان مما قاله يخاطب نفسه وماله : يا ويح نفسى كيف أصبحت فى هذا المركز الحرج والمضيق الذى لا ينفرج أم كيف دارت على هذه الدائرة فدخلت فى هذه الزمرة البائرة الحائرة فاختلطت لدى الأعمال وضاعت فى الأوضاع والأشكال فصرت لا أفرق بين المثلث والمخمس ولم يبق فى خاطرى الآن إلا المسدس إذا لا صبر لى على هذه المعاملة أن يذهب مالى بالجبر من غير مقابلة ويا بؤس نفسى كيف عقدت عقدا بغير أساس وضاع حسابى فلم أضرب الأخماس والأسداس . لا جرم أن من طلب الصعود بغير سلم لا بد أن يقع فيندم ولا شك أن من يقاوم السماسرة تصبح صفقته خاسرة ومن بينى شغله على الوهم انتفض عليه العقد وانكسر السهم فتداعت الأركان وسقطت الجدران ووقع من الفقر فى هاوية لا يخرج منها إلا إلى الانقطاع فى زاوية أما أنت أيها المال فقد انقطعت منك الآمال فاتصلت بى الأحزان ولازمتنى الأكدار والأشجان فكيف لى بفراقك وكنت الحريص عليك من إنفاقك ؟

ويح نفسى وألف يا ويح نفسى   كيف قد خاطرت بهذى الألوف
كنت فى غفلة وما كنت أدرى   أن دون الألوف جدع الأنوف

ثمانية عشرة ألفا قناطير موزنة أن نفسا تسمح بها المغبونة فالأولى بى أن انتظر ما يفعله غيرى لعل فى هذا التأخير منفعتى وخيرى وإلا فما منفعة الهندسة والحساب إذا غاب الحزم وضاع الصواب وتساويت بالناس فى هذا الباب ؟

قل موسى بن عصام : ثم غاب هذا البيت عن نظرى وقام مكانه بيت آخر

الشيخ : انظر فهذا هو المنظر الثانى .

فنظرت فرأيت طبيبا فى حجرته مرتكبا فى أمره متحيرا فى فكره يشكو المضاربات وما جرته إليه من الخسائر ويدعو على يده بالشلل لانغماسها فى هذا العمل الوبيل وعلى رجله بالخدر لسعيها إلى هذه المخاطرة .

موسى بن عصام : أرى طبيبا فى حجرته وبين يديه كتب مبعثرة وآلات مفرقة وأوراق مشتتة وهو بين هذه المنثورات لا يسكن له حركة فى جيئته وذهابه من الحائط إلى الحائط وأرى فى يده ورقة يطويها وينشرها والكآبة بادية على وجهه والحزن ظاهر عليه .

الشيخ : وهذا أيضا من زمرة المضاربين .

موسى بن عصام : طبيب يضارب إن هذا أمر مريع ، وخطب على الإنسانية جسيم، لأن الطبيب الذى بيده أرواح الناس لا يجب إلا أن يكون عقله كله للناس، والإنسانية تحجر عليه أن يشتغل بشيء يكون له النصيب الأكبر من عقله .

الشيخ : انظر فى هذه الورقة التى فى يده فهى تتقاضاه أن يدفع ثلاثة آلاف جنيه خسرها فى المضاربات وقد قرر على نفسه أن يقسم ما يربحه من العيادات وغيرها أرباعا فيجعل ربعا لمعيشته والباقى يجعله لهذا الشريك القاهر ولكن أى له بالربح من العيادات وقد استحوذت المضاربات على عقله وشوشت الخسائر على أفكاره فضاع صوابه حتى صار لا يهتدى إلى تشخيص الأمراض ولا يعرف حقيقة الداء فيصف له الدواء لا سيما وقد أوصى الناس بعضهم بعضا أن لا يسلموا أنفسهم إلى طبيب لم يبق المضاربات من عقله ما يكفى لمعرفة تلك الفروق الدقيقة بين الأمراض المتشابهة، ومعلوم أن انهماك الفكر فى أمر يمنعه عن الاشتغال بأمر آخر. ومما يحكى من هذا القبيل أن رجلا كان يلعب بالشطرنج مع الآخر فى يوم عيد فجاء أقارب له يسلمون عليه ويهنئونه بالعيد فالتفت إليهم ولم يرد عليهم السلام ، وأخذ فيما هو فيه من الانهماك فى اللعب، فظن أقاربه سوءا فى ذلك وتركوه وانصرفوا . ولما بلغه عتابهم حلف أنه لم يعلم بحضورهم. وثلاثة آلاف جنيه يخسرها طبيب أدعى لاشتغال الفكر وأحرى بفقد الصواب. فلندع هذا الآن فى حيرته وارتباكه وانظر إلى المنظر الثالث .

قال موسى بن عصام : فتصور أمامى رجل جالس أمام كوخ حقير بداخله مغربى قد بسط بين يديه رملا يخطط فيه والرجل مصغ إليه فسألت الشيخ :

موسى بن عصام : من هذا ومن هذا ؟

الشيخ : هذا مضارب بالمال وهذا ضارب بالرمل جاءه يتعرف منه أسعار الأقطان فى صعودها وهبوطها ومتى يكون الصعود ومتى يكون الهبوط ليبيع أو ليبتاع فاسمع ما يدور بينهما :

قال موسى بن عصام : فأصغيت إليهما فإذا المغربى يقول :

المغربى : إن طالعك النصرة الخارجة وهى فى بيت الضاحك وهى تدل على الغنى وسعة الرزق والربح فى الأخذ والعطاء .

الرجل : كيف تقول إن طالعى يدل على الربح وقد خسرت فى البورصة هذه الأيام أموالا بعدد هذا الرمل ، ولست أريد الآن إلا أن أعرف هل أسعار القطن ترتفع أو تهبط أو تبقى على ما هى عليه . عند ذلك يأخذ المغربى فى التخطيط والمحو ووضع الأشكال ثم يقول :

المغربى : دل الرمل ونطق الضمير بحلول راية الفرح فى بيت عاقبة العاقبة أن الأسعار سترتفع بعد شهر إلى درجة عالية جدا .

الرجل : إذن تشير على أن أشترى لا أن أبيع .

المغربى : نعم اشتر ما شئت لتربح ما شئت .

قال موسى بن عصام : ثم زال ذلك من أمامى فنظرت هذا الرجل واقفا فى حجرة بين يدى رجل شيخ ثم أمره بالجلوس فجلس فسألت الشيخ عنه فقال :

الشيخ : هذا الرجل الشيخ يدعى أنه أعظم المنجمين فى هذا العصر وأنه أكثر أرباب الأقلام معرفة بحوادث المستقبل ويزعم أنه يخاطب فى نومه سكان الكواكب وله بهم معرفة واتصال وقد جاءه صاحبنا ليعرف منه ما أراد أن يعرفه من المغربى فاسمع تحاورهما .

الرجل : دلتنى يا سيدى شهرتك عليك فجئتك لأعرف من غامض علمك ماذا يكون عليه النيل فى هذا العام .

المنجم : فيضان وبركة ورواج وحركة وزيادة فى الأقطان ونقص فى الأثمان .

قال موسى بن عصام : ثم شاهدت الرجل خارجا من عند المنجم يخاطب نفسه ويسائلها قائلا :

الرجل : لقد وقعت بين نقيضين فالرمال يحكم بصعود الأسعار والمنجم يحكم بهبوطها فأنا بينهما فى أرجوحة تصعد بى تارة وتهبط بى أخرى وعندى أن الرجوع إلى السمسار فى مثل هذه الحال أحسن وأولى ثم يتوارى عن العيان فيقول الشيخ :

الشيخ : يكفى ما رأيته الآن هذه هى حالة أهل المضاربة وهذه أمانيهم الكاذبة فأنى داموا على هذا الأمر فإنه ولا شك يرديهم ويكونون من الذين يخربون بيوتهم بأيديهم .

(*) قال موسى بن عصام : علمت مما قصصته عليك وبسطته لديك من حكاية المنجم والرمل كيف تعلو الآمال فتفقد الأموال وتسوء الأحوال وتالله إن قوما هذا مبلغ ما عندهم من العقل وهذا عنوان ما يتبجحون به من النيل يسعون إلى كل رمال دجال ويعتقدون قول كل أفاك محتال ويلتمسون الأرباح والمغانم بالأوفاق والطلاسم ويتحينون الهبوط والصعود بحساب النحوس والسعود ويضيفون على ما يسلبه الوسيط والسمسار ما ينهبه المنجم والسحار ثم يجعلون أموالهم بين المضاربين نبها مقسما وأملاكهم فى أيدى المرابين ملكا مسلما فيسرعون إلى حتفهم بأساليب شتى ويتركون ذريتهم من خلفهم يضربون الماء حتى هؤلاء هم أحق بالحجر من السفيه والقاصر وأولى بالزجر من المسرف والمقامر وأجدر بأن يمنعوا من التصرف ليحفظوا من التسول والتكفف وكان لم يزل يجول فى الخاطر أن استكثر من مثل هذه المناظر فاصل السابق منها بالتابع وإذا بالشيخ يقول : دونك المنظر الرابع :

فرأيت منظرا يستوقف النظر ويستجمع العبر . رأيت رجلا فى حظيرة فى حديقة صغيرة يخطر جيئة وذهابا وقد أمسك فى يده كتابا وهو كاسف البال ظاهر البابال قد تغيرت هيئته وتبدلت سحنته واصفرت شفتاه واحمرت حدقتاه وارتعشت يداه واختلفت رجلاه يتنفس الصعداء ويتكبد البرحاء وهو تارة ينظر فى الكتاب وطورا

(*) (مصباح الشرق ١١١ ، ٥ يوليو ١٩٠٠)

يغيب عن الصواب ثم رمى الكتاب من يده ووضعها على كبده وتأوه وتحسر وأخذ يتأمل ويتدبر وشرع يخاطب نفسه بعد أن أطال همسه .

« حكم القضاء بهذه الغرامة فلا عتاب ولا ملامة وقد صار الاعتراض مدفوعا واستئناف المضاربة ممنوعا ولكن كيف تسمح نفسى بهذا المقدار العظيم أم كيف أقوى على مخاصمة كل غريم وهذا نص القانون صريح لا تلميح فيه ولا تلويح فأنا الذى جنيت على نفسى هذه الجناية وأوقعتها فى مشكل ليس له نهاية ، ثمانية آلاف أذهبها الطمع لا الإسراف ، كلا لا أسمح بها فلا اقترض ولا أرهن ولا أدفع بالتى هى أحسن ، أما هؤلاء السماسرة فلا أبالى بما أجمعوا عليه فى نجواهم مهما تكن نتيجة دعواهم وإلا فما هو فضل المحاماة إذا تساوى المحامى بسواه . والله لأفتحن عليهم بابا لا يقوون على سده ولأجلبن إليهم عذابا يعجزون عن صده فنحن الذين نلعب بالحق وبالباطل ونجعل الحالى كالعاطل ونحن أعمق أن يسبر السابر لنا قرارا وأسمق أن يرفع الرابع إلينا إنذارا وإذا استحكمت القضية وتفاقمت البلية ولم يبق فى الأمر نقض ولا إبرام ادعيت الفقر وتخلصت بالإعدام .

قال موسى بن عصام : ثم توارى هذا المنظر عن نظرى فسألت الشيخ عن الرجل فقال :

الشيخ : هذا من المضاربين أيضا خسر ثمانية آلاف من الذهب فهو الآن فى شغل شاغل يحاول أن يتخلص من دفعها باستعمال ما تهديه إليه صنعته من الحيل وما يستنبطه فيها من الوسائل فنراه يراجع الكتب والفتاوى والمتون والشروح والتعاليق والتلافيق حتى قرأ واستقرأ فى مدة وجيزة ما يزيد عن سبعين كتابا من كتب الشرائع .

موسى بن عصام : نعم علمت من كلامه أنه محام .

الشيخ : هو كما علمت ولكن اشتغل بالأفكار وهذه المسألة حتى أصبح كله أفكارا .

موسى بن عصام : وماذا كانت نتيجة من مراجعة هذه الأسفار الجمة .

الشيخ : النتيجة عقيمة ولكنه يطمع فى النجاح بواسطتها لو انضم إليه غيره من الخاسرين .

موسى بن عصام : كيف تكون عقيمة وكيف يطمع فى النجاح وما هى هذه النتيجة ؟

الشيخ : قد هدته المراجعة إلى جملة أقوال يتحذها سلاحا يقاتل به مطالبيه منها ادعاء التزوير فى الإمضاء والختم ومنها نسبة التدليس والغش فى البيع إلى السمسارة ومنها أن البيع فاسد لأن المبيع بضاعة موهومة لا وجود لها فى الخارج ومنها أن قصد البيع الصحيح والشراء الصحيح غير موجود ومنها أن من شروط العقد أن تعمل التصفية والحساب النهائى كل خمسة عشر يوما ولكن السماسرة أخلوا بهذا الشرط فكانوا يطيلون هذه المدة إلى أكثر من شهر . هذه أوجه الدفع التى اهتدى إليها المحامى .

موسى بن عصام : الظاهر من هذه الأوجه أنها وجيهة لو أن هذه المحامى يشتغل فى قضايا الناس بمثل هذا التنقيب والتدقيق والبحث والمراجعة ليستخرج الغوامض ويستكشف الخفايا ويتبقى الأوجه الصالحة للدفاع ما خسر قضية قط وكان من أعظم المحامين إقبالا عليه ووثوقا به فكيف تقول إن النتيجة من هذه المراجعات عقيمة ؟

الشيخ : قلت إنها عقيمة لأن خصماءه يقابلونه بكلمة واحدة لا يزيدون عليها ولا ينقصون منها وهى تذيب هذه الأوجه كما تذيب الحرارة الثلج .

موسى بن عصام : ما هى هذه الكلمة ؟

الشيخ : هى أنهم يقولون للقاضى : سلهم هل أخذوا الربح لما ربحوا ؟

موسى بن عصام : حقا إنها لكلمة تهدم كل ما بنوه .

الشيخ : ولماذا لم تعترض الآن على المحامى اعتراضك على الطبيب ؟ إنهما واحد فذاك يخلص الجسم من سطوة المرض وهذا يخلص الحق من سطوة الباطل .

موسى بن عصام : كان فى نفسى أن اعترض فسبقتنى إلى ما فى نفسى وإنى والله لأعجب لهؤلاء المحامين كيف يقسمون أوقاتهم للأعمال وكيف يحمل واحد منهم فى رأسه قضايا تعد بالمئات ولا يعتريه خبال ولا يأخذه كلال ولا يظهر عليه أنه مشتغل البال مرتبك الأفكار بل تراه كأخلى الناس فكرا يشتغل بالسفاسف وينهك فى الملاهى فيسهر ويسكر إلى الثالثة بعد نصف الليل مع أنك ترى الرجل تحدث له قضية أو ترفع عليه دعوى فتكون له الشغل الشاغل ترتبك له أفكاره ويشتغل بها باله فلا ينام إلا خطفا وإذا التفتنا إلى هؤلاء المحامين وكثرة ما عندهم من القضايا وأردنا أن نقسم الوقت على مقتضاها بعد أن نطرح منه ما يختص بأحوالهم الخاصة وحاجاتهم الضرورية فلا تجد ما يكفيهم لمراجعة تلك القضايا فإنك إذا اعتبرت أن يومهم أربع وعشرون ساعة وطرحت منه سبع ساعات للنوم وساعتين للأكل وساعة لأشغالهم الخاصة وساعتين للمقابلات والمقاولات وأربع ساعات للمحكمة وساعتين للاستراحة فيبقى من ذلك ست ساعات وهى مدة لا تكفى لمراجعة ما عندهم من القضايا حق المراجعة واستيعابها حق الاستيعاب فما بالك بمن يسهرون منهم ويسكرون ويصرفون الوقت وهم يسرحون ويمرحون اللهم إلا إذا كان يومهم من غير أيام الأرض .

الشيخ : هون عليك فإن الأمر على غير ما هولت لأن كل قضية لا بد أن يتنازعها أمام المحكمة اثنان من هؤلاء المحامين وهما بالضرورة واحد للسلب وواحد للإيجاب فإذا حكم فيها كان الحكم بالطبع لأحدهما فيربح فى واحدة ويخسر فى أخرى وعلى هذا تدور صنعة المحامين فلا تعب عليهم ولا نصب وإنما التعب والنصب فى كل هذه القضايا على القضاء دون سواهم .

قال موسى بن عصام : ثم قال الشيخ : دع المحامى الآن وتقريره وانظر فإن أمامك المنظر الخامس فنظرت فإذا شاب أعرفه من أبناء الكبراء وكان أبوه من أغنى الأغنياء .

الشيخ : هذا الشاب خسر فى المضاربات كل ما تركه له أبواه ولم يبق عنده الآن ما يضارب به فاسمع ماذا يقول وانظر على ما عول :

الشـاب : (يخـاطب نفـسـه) لا أرى منذ دخلت هـذه المضـاربات المشـؤومـة إلا الخسائر المتوالية فخسرت كل ما عندى وخسر غيرى كل ما عنده فمن هو الرابح إذن؟ لا شك أن الرابح من بين الجميع هو السمسار لأنه يأخذ سمسرة من البائع والمشترى ربح أو خسر ثم يشارك أيضـا الرابـح منهما فى ربحه فمن لى بأن أكون سمسارا ولا بد لى من السعى حتى ألحق بزمرة السمسـارة وأكون واحدا منهم ولا شبهة فى أنهم يقبلوننى لاصطاد لهم من إخوانى وأصحابى من لم يقع فى أشراكهم إلى الآن .

قال موسى بن عصام : فاستعذت بالله من شره وسألت الله أن لا يوقع أحدا فى مكره .

(*)قال موسى بن عصـام : ولقد كان يجـول فى الخاطر مما أحدثتـه عندى هذه المناظر أن الإنسان مهما قرأ من الأخبار واطلـع على ما أجنتـه بطون الأسفار من حوادث الأدهار فى سـوالف الأعصار قصد الاتعاظ والاعتبـار والاختيار الاختبار والوقوف على عادات الناس وأخلاقهم وتفننهم فى استحلاب أرزاقهم فإنه لا يحصل له من الفائدة وإن استغرق فى مطالعة العمر وأفنى الزمن معشار ما يفيده القليل من المشاهدة والعيان ولقد كنت من أشد النـاس انكبابا على مطالعة السيـر وأكثرهم انصبابا على قراءة كل خبر انقيادا لما هو مطبوع فى الطباع من طلب المعرفة وحب الاستطلاع وأفنيت فى ذلك ليالى وأياما بل أشهرا وأعواما حتى أتـاح لى الله هـذا الولى التقى والحفى الصفى فكان ما استفدته منه فى هذه المدة القليلة أضعاف ما أفادتنى المطالعة فى تلك الأعوام الطويلة فإنه أمدنا الله بإمداده وهدانا بنور إرشاده زوى لى الأرض فرأيت مشـارقها ومغاربها وأبصرت مسالكها ومساربها واطلعت على ما ظهر منها وما بطن وما درج فيها وما سكن حتى كأنها أمامى رقعة لاعب أو صحيفة كاتب وحتى أرى البيوت والقصور شفافة كالبلور فأشاهد ما وراء جدرانها من أحوال سكانها وأقف على أمور الخاصة والعامة فى مجامعهم الخاصة والعامة فلا تخفى على من ذلك خافية ولا تعزب عنى المعرفة الوافية الشافية فكنت كلما خبرت

(*) (مصباح الشرق ١١٤ ، ٢٦ يوليو ١٩٠٠) .

مخبرا ترقيت به معرفة وفهما حتى مرت على مناظر السمسرة المضاربة وما تضمنته من أنواع المخاتلة والموارية فظننت أن ليس بعد المضاربة من خسائر فادحة وأن ليس بعد السمسرة من حرفة رابحة وما كاد يخطر هذا فى خاطرى حتى تجلى الشيخ أمام ناظرى .

الشيخ : زد نظرا تزدد فهما « وقل رب زدني علما » .

موسى بن عصام : بك استرشد بك استفيد ومنك الإمداد ومنك المزيد .

الشيخ : انظر هديت إلى الصواب وستعلم أخطأ ظنك أم صواب .

قال موسى بن عصام : فنظرت فإذا بيت أمامه جمع محتشد من طبقات الناس وطوائف من أصحاب الأشاير وأرباب الطرق وقراء البردة وسلسلة من هؤلاء العميان تتألف حلقتاها من أذرعهم وفرقة من صبيان الكتاتيب يحملون المصاحف والمباخر وقد انتظم لفيفهم وتألفت منهم جنازة حراء ومشهد حافل وإذا وراء الجميع نعش كأنه عروس أو نفساء قد تجلل بالمطارق النفيسة وتكلل بالجواهر الثمينة والأزهار الجميلة كأن فيه بقية مماترك آل موسى وآل هارون ومن خلفه النساء صائحات نائحات وقد اختلطت أصوات القراء والصبيان بأصواتهم دون تناسق وعلى غير توافق فما شئت من نفيق ونهيق ونعيق حتى صمت الأسماع وتصدعت الرؤوس ولا زالت الجنازة سائرة على هذه الحالة والناس على جانبي الطريق يتساءلون عن هذه العروس التى أبكت العيون وشقت الجيوب إلى أن وصلوا بها إلى المقبرة وأنزلوا التابوت وكشفوا عنه فإذا به رضيعة عمرها أربعة أشهر فواروها التراب وعادوا إلى المآتم الكبيرة فأخذنى لذلك العجب والتفت إلى الشيخ أسأله فقال :

الشيخ : هذا هو المال الضائع والخسارة التى ليس من ورائها مظنة لظل من الربح كما يكون في المضاربات مثلا فأن المضارب لا يقوم على المضاربة إلا على أمل من الربح وأما هذه العادة المصرية عادة المآتم فأن الإنفاق عليها خسارة ولو كان الميت ركنا من أركان البيت فما بالك إذا كان الميت رضيعا في ال مهد فإن الإتفاق ، عليه من أضيع الضائعات ولو جمع ما ينفق من الزوائد على هذه المآتم في القطر

المصرى لكان منه للناس شركة نافعة تماثل أعظم الشركات التى استأثر بها لأجانب دون غيرهم من أهل البلاد وكان يكون من ربحها نصيب يتفق لعمل الخيرات على عامة أرواح الأموات لأننا كلنا إخوان فى الحياة إخوان فى الممات أما الإنفاق بمثل ما أنفق صاحب المأتم فليس كم الثواب ولا الصواب فى شىء لأن الميتة لا تحتاج إلى ثواب فإنه مقطوع لها بالجنة لا حساب عليها ولا عقاب .

موسى بن عصام : لعل له فى ذلك غرضا إما التسلى والتعزى وإما التفاخر بالغنى وسعة المال بين أمثاله ونظرائه .

الشيخ : أما التعزى والتسلى فإن له عنها عوضا من بناته ومن بنت أخيه وأما التفاخر بالغنى فإنه وإن كان هو المقصود ولكنه كان يمكنه أن يعمل عملا يجمع فيه بين التفاخر والمنفعة ومن العجيب الذى يدخل فى باب التفاخر والمباهاة أيضا أنه لم يكتف بالجنازة والمأتم حتى عمد إلى إدارة إحدى الجرائد الشهيرة العظيمة الانتشار وسأل صاحبها أن ينشر فيها خبر وفاة ابنته فأبى أن يجيبه إلى ذلك وقال له قولا مسكتا : « لو علم القراء بولادتها لأخبرتهم بوفاتها . مثل هذه الخسارة هى التى يصح أن يقال عنها ليس بعدها خسارة وأما الحرف التى ليس بعد ربحها ربح فهناك فانظر :

قال موسى بن عصام : فإذا أمامى بيت مشيد انظر إلى داخله إذا فى مدخله منظره قد فرشت أرضها بالحصير وفرشت مقاعدها بالفراء وعلى أحد رفوفها أجزاء القرآن الكريم وقد علق على حيطانها ألواح كتب عليها بعض الحكم والمواعظ مثل : « القناعة كنز لا يفنى » ، « عز من قنع ذل من طمع » ، « الصبر مفتاح الفرج » ، رأس الحكمة مخافة الله » ، « لا غنى كالقناعة » ، وفيها قارئ يقرأ القرآن ورجل بين يديه أوراق ودفاتر وأقلام ومحابر وهو منها فى شغل شاغل وعلى أحد المقاعد ثلاثة من الرجال سكوت كأنهم ينتظرون قادما وهيئتهم تدل على أنهم من أهل الفلاحة ولم يكن إلا يسير من الزمن وإذا بصاحب البيت قد أقبل عليهم من الباب فقال : السلام عليكم ورحمة الله فنهض الجميع فأجلسهم وهو يستغفر الله ثم التفت فوجد على الحصير بعض الفتات من الخبز فجعل يحبو ليجمعه فى يده ثم قبله واستدعى الخادم

وأخذ يوبخه ويعنفه وكان مما قال له صاحب البيت : بلغت بك المعصية أن تترك هذه النعمة تداس تحت الأقدام .

الخادم : ما حضرت إلا الآن وكنت ذهبت كالعادة لتوزيع الخبز على الفقراء فى السيدة .

صاحب البيت : وعلى هذا كان المشايخ لم يشربوا القهوة إلى الآن فلأحضرها وإياك أن تصنعها على الإسبرتو كما صنعتها أمس بغير علمى فإنه مسكر وكل مسكر نجس ويكفى أن القهوة مكروهة فى مذهبنا فلا تجمع بين النجاسة والكراهة .

قال موسى بن عصام : ثم يلتفت إلى ضيوفه الثلاثة فيرحب بهم ويسألهم عما جاءوا له .

أحد الثلاثة : جئنا نسألك أن تؤجر لنا الأطيان التى لك فى أبو كبير .

صاحب البيت : معاذ الله أنها لى إنما هى ليتيمين لست إلا وصيا عليهما وإنى لا امتنع عن تأجيرها لكم إذا رأيت فى ذلك مصلحة لهما لأنى فى هذا الأمر واقف بين الجنة والنار وما أصعب الوصاية وما أهول السؤال عليها ومناقشة الحساب فيها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، واحذروا أن تشطوا عليهما فى تقدير الإيجار فإن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا .

أحد الثلاثة : نؤجرها بقيمة المثل ونزيد علاوة ذلك إكراما لليتيم أن ندفع قيمة إيجارها عن ثلاث سنوات على قسطين قسط ندفعه عند تسجيل العقد وقسط ندفعه بعد مضى نصف المدة .

صاحب البيت : ولكنكم تعلمون أن رسوم التسجيل هى باعتبار قيمة الإيجار، وهى من هذا الوجه باهظة جدا ومضرة بمصلحتنا، وعندى أن صرف النظر عن التسجيل أولى أما إذا كان لابد منه فيلزم أن تدفعوا نصف قيمة الإيجار المتفق عليها بيننا فورا، وأن تكتبوا صكا بالنصف الآخر يكون استحقاقه عند مضى نصف المدة وأن الذى يكتب فى عقد الإيجار هو قيمة نصفه فقط ليؤخذ الرسم على مقتضاه اقتصادا للأموال وحرصا على مصلحة اليتيمين .

أحد الثلاثة : لا بأس قد أجبناك إلى ذلك .

صاحب البيت (الكاتب) : اكتب نسختين من عقد الإيجار على مبلغ كذا عن كل فدان .

ثم يلتفت إلى القارئ ويقول : عد بأموالنا إلى القراءة واسمعنا عشرا من القرآن الكريم ليكون الختام مسكا ثم يودع الجميع ويصعد إلى أعلى البيت وهو يدلع لسانه ويقول : الحطيئة الحطيئة رحم الله الحطيئة فما أعرفه بالنصيحة فيما أوصى به على اليتيم .

(*)قال موسى بن عصام : لم أكن أعتبر هذا الرجل منذ حضر إلا أنه من أعظم الناس ورعا وأشدهم تمسكا بالدين وأحرصهم على حفظ مال اليتيم فلما ذكر الخطيئة ووصيته وأنا أعلم من الخطيئة وما هى الوصية انعكس ظني فيه واستعذت بالله مما يخفيه تحت حجاب الرياء وستار الخداع وما وصل غلى أعلى السلم حتى انكشفت أمامى حجرة جامعة من نفائس الآنية وبدائع التماثيل وغرائب التحف ما لا يجتمع إلا فى حجرات العظماء من الغربيين وبعد أن استبدل ملابسه بملابس الخلوة تربع فى صدر الحجرة وقد تهيأ له مجلس أنس استكمل من أنواع الخلاعة ما جعل كل مفعول فيه جائزة وكل محظور مباحا من تعاطى الخمور وارتكاب الفجور وأكل لحم الخنزير مما لو قابلت بينه وبين ما سبق لك بيانه فى أسفل الدار من التورع والتقشف وتعظيم فتات الخبز وحب استماع القرآن والتمثل بالآيات الكريمة والتظاهر بشدة الخوف من العقاب فى يوم الحساب لقضيت من ذلك عجبا ودهشت معى لما يبلغه الرياء وما تصل إليه الخديعة ويعلم الله أنى ما كنت لأصدق مثل هذا الأمر عن هذا الرجل لو وقفت عند معرفة ظاهرة ولم ينكشف لى ما انكشف من باطنه لما أتقنه من حسن السبك وتصنع الورع وبينا أنا تائه فى فيفاء هذه الدهشة إذ أيقظنى الشيخ يقول :

الشيخ : علمت الآن ما هى الحرفة التى ليس بعد ربحها ربح ، نعم هى حرفة الرياء والختل والخداع والغش التى مهر فيها هؤلاء الأوصياء ليكونوا ورثة لكل غنى شركاء لكل يتيم ولقد رأيتك الآن مندهشا مما أطلعتك عليه من ظاهر هذا الرجل

(*) (مصباح الشرق ١١٥ ، ٢ أغسطس ١٩٠٠)

وباطنه وما رأيته منه بعد ذلك الورع من تعظيم الأضاليل وتقبيل التماثيل فكيف لو أخبرتك بأخباره أيام كان نزيل الآستانة من التفنن فى الرياء والتقلب فى ضروب الخداع والمكر . فقد ذهب هذا الرجل إلى الآستانة لقضاء غرض من الأغراض وكان اعتماده فى قضائه على شيخ مغربى من كبار المشايخ فاستأجر حجرة للنوم فى نزل وفى ذات يوم دخل عليه خادم النزل ودفع عليه بطاقة وقال له إن صاحبها يروم مقابلته وكان الزائر رسولا من جانب ذلك الشيخ فقال صاحبنا للخادم أحضره ثم بادر إلى الماء ووضع إناء غسيل الوجه وسط الحجرة على البساط وأخذ يتوضأ فدخل الخادم والزائر عليه وهو فى هذه الحالة وقد بلل البساطة بما تساقط من رشاش الماء وقد ظهر الغيظ على وجه الخادم فلما انتهى الوضوء وتشهد وقرأ سورة القدر والإخلاص والمعوذتين التفت إلى الزائر ورحب به وسأله معتذرا أن ينتظره ريثما يؤدى الفرض الذى دخل وقته ثم عمد إلى تمثال موضوع فوق ساعة وستره بمنديله ثم أحرم للصلاة فأطال فى الركوع والسجود وأظهر من الخشوع والخضوع ما أعظمه الزائر وأكبره وشهد به أن هذا الرجل تقى العصر وناسك الدهر وكاد يستصغر بروعه ورع شيخه وما انتهى من الصلاة حتى حضر صاحب الترل وكان الخادم قد أخبره بما لحق بالبساط من التلف فحضر متغيظا على نزيله وسأله أن يخرج من الترل فلم يتوقف ودفع إليه ما استحق عليه من الأجرة وخرج مع رسول الشيخ وهو يستغفر الله ويسأله الهداية لصاحب النزل فلما وصل الرسول به إلى دار الشيخ وأخبره فيما بينهما على ما شاهده من شدة ورعه وتقواه أهل به الشيخ أعظم التأهيل ورحب به أكبر الترحيب ثم قال له إنك مدعو معنا الليلة للعشاء فى بيت فلان فامتنع وتعفف فكرر عليه الشيخ وشدد ولما جاء الوقت ذهبا إلى ذلك البيت فلما مدت المائدة وكان عليها ملاعق من الفضة تحرج صاحبنا أن يأكل بها وقال لقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأحضروا له ملعقة من الخشب فلما أحضرت صحاف اللحم امتنع عن الأكل منها وقال لقد شاهدت أكثر القصابين فى الإستانة من الأروام وشاهدتهم يذبحون الذبائح فى حوانيتهم وأنا مشتبه فى الحكم هذا إن كان من المسلمين أو من الأروام ولا ينبغى أن أكل لحما لم يذكر اسم الله عليه فاستعظم الحاضرون ذلك ووقر فى نفس الشيخ أن هذا الرياء لا رياء بعده وأن نسبة ريائه إليه

كنسبة القطرة إلى البحر أو ذرة إلى الجبل وأنه إن مكث فى الإستانة أياما على هذا المنوال لا بد أن ينازعه مكانته ولا يبعد أن ينتزعها منه فعدل على التسجيل بقضاء حاجته وصرفه إلى مصر بأسرع ما يصل إليه إمكانه وعلى هذا قضى له الأمر وعاد سريعا إلى مصر .

موسى بن عصام : لقد جعلتنى يا سيدى بحكاية هذا الرجل أتشكك فى كل تقى وأسيء الظن بكل من يتظاهر بالتقى والصلاح فأسألك أن ترشدنى إلى أمر أميز به بين أهل الإخلاص والاتقياء وبين المتظاهرين بالورع من أهل الرياء .

الشيخ : اعلم أن للورع الصحيح والصلاح الخالص نورا يتلألأ فى وجه صاحبه ولا يخفى على الناظرين إليه من أهل البصائر وأن المخلص فى ورعه وتقواه يتحاشى بما فى وسعه أن يشتهر عنه ذلك بين الناس لما يخشاه من تطرق الإعجاب بنفسه إليه بما يجره إلى بعض الرياء من حيث لا يشعر ولا يقصد فتراه متسترا فى صلاحه مختليا بنفسه فيما بينه وبين مولاه ما دام عمله كله خالصا لله وربما تظاهر بالخلاعة والمجون ومشاركة الناس فى لهوهم بما لا يتركب معه صغيرة ولا يقترف به جريرة لأنه يعلم أن الناس أسرارا ولا يعلم أحد ما بينهم وبين الله من الصالحات أو الطالحات .

اعلم أن للرياء والنفاق ظلمة يتكاثف على وجه صاحبه فلا تخفى على المتأملين من أهل الحقائق وإن تظاهر صاحبها بورع الفضيل وزهد ابن أدهم ولقد كان يتأتى لك أن تقف على حقيقته بالتأمل فى وجهه وهو فى المنظرة يحبو لجمع الفتات ويستمع القرآن ويتلو الآيات على أن لصاحب الرياء صفات خاصة تميزه عن غيره وهى كلها متوفرة فى صاحبك هذا فأن شدة التظاهر بالورع والحرص على الشهرة به من أخص صفات المرائى ومثل تغطية التمثال بالمنديل لا يخطر إلا على فكر المرائى والتظاهر بما يجبه الناس على طعامهم من مثل الامتناع عن استعمال الملاعق الفضية وأكل اللحم الذى اشتبه فيه بدعوى الورع واجتناب المحرمات التى ألصقها لفظاظته بمجالسيه مع وجود مندوحة له عن ذلك بأن يعتذر مثلا عن الأكل من ذلك اللون الذى يؤكل بالملعقة ولا مانع يمنعه عن الامتناع من اللحم بأى سبب غير سبب التحريم هذا

التظاهر بما أوضحته لك لا يفعله إلا المرائى أو المنافق فإذا رأيت رجلا متصفا بصفات هذا الرجل التى رأيتها فيه فأحكم عليه حكما باتا أنه من المرائين والمنافقين وإذا قابلت حكاية الملعقة واللحم بحكاية عبد الملك بن صالح العباسى مع جعفر بن يحيى ظهر لك الفرق الواضح بين أهل الرياء وأهل الصلاح . ذلك أن الوزير اختلى يوما للسماع مع ندمائه وجواريه وتقدم إلى حاجبه أن لا يدخل عليه أحدا إلا عبد الملك يعنى نديما له بهذا الاسم وكان عبد الملك بن صالح عم المهدى وشيخ بن هاشم وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وناهيك بمترلته من الورع والتقوى قد عرضت له حاجة عند جعفر فقصده فى بيته فلم يمنعه الحاجب عن الدخول لعلمه أنه الذى أمر الوزير بدخوله فلم يرع جعفرا إلا أن رآه واقفا عل باب الحجرة فكاد يموت من الوجل أن يذوب من الخجل ورأى عبد الملك ذلك منه فاقتحم الباب إلى وسط المجلس وقال اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم وأشركونا معكم فى مجلسكم هذا فأشرق وجه جعفر وتهلل على علو شرفه وجلالة قدرته ومنزلته من الخلافة وشدة ورعه كيف أنه ابتعد عن الغلظة والفظاظة والغطرسة والعجرفة واستعمل نهاية اللطف وكرم الأخلاق بما كشف به الورع عن أهل ذلك المجلس فشاركهم فى مجلسهم ولم يعكر عليهم صفاء أنسهم فلو كان من أصل الرياء لأقام القيامة عليهم وأمطر على رؤوسهم صواعق الغضب وجعل الوشاية بهم إلى الرشيد ذريعة إلى استدرار الفوائد وبلوغ أسنى المقاصد ولكنه علم أن تجبيهه الناس وبهتهم فى بيوتهم بعد الاطلاع على عوراتهم مما لا يرضى الله سبحانه وتعالى فتفادى من ذلك بتحمل أهون الشرين وأخف الضررين فتظاهر باستحسان ذلك المجلس ورغبة المشاركة فيه ولم يفعل ما فعله هذا الرجل المرائى من الغطرسة والفظاظة ولكنه الرياء مصيدة الأوصياء وحبالة الأشقياء وها أنا قد أوضحت لك ما تميز به بين المرائى الطالح وبين التقى الصالح .

موسى بن عصام : لقد ألقيت على منك هداية ورشدا فلم يعد يخفى على منهم أحدا أبدا الآن علمت ما هى حقيقة الخسارة الفادحة وما هى حقيقة الحرفة الرابحة .

الشيخ : وسل الله تعالى أن يبعدك عنهما وأن لا يوقعك فى واحد منهما .

قال موسى بن عصام : فابتهلت إلى الله أن يوقفنى إلى صالح العمل وأن يجنبنى أن أقع فى الخطأ والخطل .

(*)قد علمت مما قصصت عليك أن الدهر قد جمع فى هذا العالم أفانين العجائب وفرق على أهله تباريح المصائب ، فهو يصحى ويسكر ويغنى ويفقر ويسعد ويشقى ويفنى ويبقى ويضع ويرفع ويضر وينفع ويقبح ويحسن ويلين ويخشن ويلتهم ولا يقنع ويلتقم ولا يشبع ويفرق ويجمع ويدعى ولا يسمع ويهب ويسترد ويحكم فيستبد فلا يكافئ على الخير بالخير ولا يجازى على الضير بالضير فكأنما يجلجل بالناس جلجلة القداح ثم يلقيهم وكأنه يحكم الصدفة فيهم فهى تسعدهم أو تشقيهم . تناقض خفيت حكمته وتباين عزبته علته وظلام حالك فلا مسلك لسالك ولا عقول ولا مدارك ومزلقة أقدام ومزلة أفهام فكلما تقدم العقل تأخر وكلما ظن أنه اهتدى تحير .

وإلـــى ورا نـــــادانـــى الــــــــــــــ عـــــــــــــقـل الـسـلـيم إلى ورا

وكنت اعتقد أن لبلادى من ذلك النصيب الأوفر والقسم الأكبر وأن الله قد خصها بالتعاسة والشقاء وحجب عنها نور السعادة والهناء وأن الغرب مهد النعيم ومقر الخير العميم ومعهد الأمن والأمان وملجأ الخائف من بوائق الزمان وما كدت أتخلص مما ألم بى من هذا الكرب حتى أشار الشيخ بيده إلى الغرب وقال :

الشيخ : هذه هى البلاد التى ظننتها معهد الأمن والأمانة وموطن الراحة لكل إنسان .

قال موسى بن عصام : فنظرت فرأيت عقارب شائلة بحماتها قاصدة من الممالك قلب حماتها فتقلب الصفاء كدرا وتجعل الهناء خبرا وتحزن الأمم فى سرورها وتذيب القلوب بشرورها فترى الفقير الصعلوك يسطو على أعظم الملوك فيصرعهم بيد وشمها الآثام وخواتيمها الذنوب الجسام . رأيت ملكا تعلوه المهابة والوقار يحفه المجد والفخار خارجا من مجمع محشود ومحفل مشهود تتبعه أنظار رعيته وتهتف بالدعاء له ألسنة أمته تعرف فى وجهه سيما الكريم وتلحظ من طرف نظره الحليم ورأيت

(*) (مصباح الشرق ١١٩ ، ٣٠ أغسطس ١٩٠٠) .

صعلوكا ذا مرتبة قد انقض عليه فى المركبة انقضاض الذئب على شاة وهوى الأجدل على القطاء فهوى صريعا لليدين وللفم ، فارتعت لهذا العمل الفظيع والمنظر الشنيع والتهبت غيظا من ذلك المأثم الفتاك والغادر السفاك وقد زاد تحرقى للانتقام من هذا الفاخر حين رأيته يبتسم ابتسامة المنتصر الظافر ولما رأى الشيخ منى شدة الانفعال التفت إلى وقال :

الشيخ : إن الجناية من أفظع الجنايات وجانيها من أقسى الجناة ، ولكن الله جلت قدرته جعل فى كل سعادة نحسا وفى كل نعيم بؤسا والملوك بما آتاهم الله من جلال الملك وعظمة السلطان ونفوذ الكلمة وإطلاق الإرادة وتوفر أسباب النعيم والملاذ وخضوع المخلوقات لهم قد أصبح همهم أن ينسى الناس أنهم مشاركون لهم فى النوع الجنس فأراد الله أن يكون خنجر الفوضى حائل بينهم وبين ما يشتهون من دعوى الربوبية وأن يجعل فم مسدس أنطق قائل يقول إنكم لمن البشر فيخفض من كبرائهم ويرفع ما انحط من قدر نوعهم عندهم . فالفوضى جان ولكنه ربما أجنى الناس عظة يتعظ بها من يذكر أو يخشى ولا دفاع لهذه الفوضوية فى الغرب ما دام الفوضوى تهون عليه نفسه . ومن هانت عليه نفسه ملك الرقابة كلها .

موسى بن عصام : وما هو السبب الذى انتشر عنه هذا المذهب فى الغرب ودفع هؤلاء إلى استعذاب المنايا وارتكاب مثل هذه الآثام الشنيعة وهل لا يوجد فى نظام المدنية الغربية ما يقوى على دفع هذه الغائلة ويستأصل جراثيم الداء الذى يخشى منه على الجمعية الإنسانية .

الشيخ : لذلك أسباب متعددة ولدتها هذه المدنية بعينها وأشاعتها ونشأها عن التولع بفضولها من الشح والضن والتكالب على المكاسب واحتكار موارد الثروة بين أيدى فئة معلومة وبما سمحت به من التغالى فى حرية القول فانقطع منهم فريق للخطابة والكتابة بتحريض الطبقات على بعضها وعدم الرضا بتقسيم الأرزاق بينها وغرس الحسد والحقد فى نفوس المحرومين منهم وإغرائهم على الأغنياء بأن ما فى أيديهم من الثروة هو حق المساكين الضعفاء الذين يجهدون ويكدون ويشتغلون

ويتعبون ثم يجنى الأغنياء ثمرة تعبهم فينامون فى مضاجع الرفاهية ولذة العيش وأولئك يموتون أمام أعينهم من الحرمان .

نعيم طما عند امرئ ومسخر   له بحال الحوت يلتمس الدرا

فيشتد بهم الحقد على الكبراء العظماء ويندفعون بدفاع الجوع المهلك إلى ارتكاب هذه الفظائع لا يثنيهم عنها دين يدينون به ولا يخشون عقاب فى الآخر يمنعهم عنها ويتوهمون أن فى عملهم ما يخلد لهم بين أهل مذهبهم مجدا دائما وذكرا باقيا وأثرا ينفع حزبهم بإيقاع الرعب والرهب فى قلب الكبراء وزاد بعض حكماء الغربيين الباحثين على هذه الأسباب انتشار الزنا وتهافت أولى النعمة والشرف من الكبراء على ذوات الجمال من أى طبقات النساء فيجبئن بأولاد ورثوا من آبائهم المجهولين حب النعيم (ووراثة الأخلاق ثابتة لا نزاع فيها) فيشب هؤلاء اللقطاء فى الفقر الموقع والضيق المحرج وفى نفوسهم ما فيه مما ورثوه عن آبائهم فيكون بهم مس من الجنون وتولع بحب الانتقام من أعالى الطبقات لحالتهم التى هم عليها وقد ظهر عجز الغربيين عن كف شرهم ودفع عاديتهم بعد أن بذلوا ما فى وسعهم فى سبل الوقاية منهم فلم ينفع فيهم اتحاد الحكومات وتشديد المراقبة عليهم وكثرة العيون والأرصاد والحفظة والحراس وتلك إحدى بلايات المدنية الغربية والتغالى فى فضولها والإفراط فى إطلاق حرية الكتابة والخطابة .

موسى بن عصام : نسأل الله أن يقينا شر هذه المدنية ويحمينا من تعاليم هذه الطائفة الباغية .

الشيخ : لا خوف على الشرق وأخصه البلاد الإسلامية لتيسير المعيشة فيه واقتناع كل إنسان بمقسوم رزقه ورضاه بكفاف عيشه وقل أن يحرم القوت فيه أحد حتى يموت من الطوى أو يهلك من الجوع . ولأن تمسك المسلمين بدينهم يردعهم عن هذه الأفعال القبيحة وينهاهم عن ارتكاب هذا الإثم والعدوان فهم يخشون عقاب الآخرة فوق عقاب الدنيا ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ولأن حرية القول فيهم لم

تبلغ حد الغلو الذى بلغه عند الغربيين ، ولم ينتشر التعليم بينهم فى جميع طبقاتهم مثل هذا الانتشار الذى أمكن به غرس هذه الأصول الفاسدة والقواعد الرديئة فى الأذهان. ولأن الزنا ليس فيهم على هذا الوجه المشهور ومن هنا تعلم حكمة الشرع الإسلامى فى عقاب الزانى بالرجم أن كان أرباب القوانين الوضعية يرونه عقابا فوق الذنب وقد قرنه الله بالشرك والقتل فى قوله تعالى : « **والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاما يضاعف له العذاب يوم القيام ويخلد فيه مهانا** » ويعلم الله أنه كلما أمعن الباحث فى أحكام الدين الإسلامى ازداد يقينا بأنه قد كفل للإنسان سعادة الدنيا والآخرة وضمن للجمعية نظام المعايش، ودرأ عنها الفساد ونقاها من أدران الخلل والفشل، وقطع عنها أسباب البغى والعداء. وكفى بفريضة الزكاة ردا يدفع عن الأغنياء سهام الطمع فى أموالهم ونظر المجرومين إليها بعين الحسد وتطلعهم إلى اغتيالها بيد العدوان. وهكذا كلما وجدنا فى هذه المدنية أدواء وجدنا لها فى الدين الإسلامى علاجا. وهذا هو سبب فى تحريض العقلاء على التمسك به والرجوع إلى العمل بأصوله ونشر التعليم بقواعده الحكيمة وفضائله العديدة فكان هذا التعليم الغربى الذى ظهرت مفاسده ومضاره فى قلب المدنية الغربية فما على رؤساء المسلمين إن أرادوا أن يعيشوا بخير وأن يقضى الناس حياتهم فى هذه الدنيا على قدر ما تسمح به من الراحة والهناء وما تجود به من السعادة والرخاء إلا أن يكونوا أول من يبعد بالناس عن الإفراط فى تقليد المدنية الغربية وإنماء غرسها بينهم وفيها ما فيها من الإباحة المفضية إلى انتشار الرذائل والقبائح، وأن يلتفتوا إلى أهل هذا الدين الكريم ويسعوا فى نشر آدابه وتعميم تعليمه القويم بما ينتج عنه العمل بأوامره والأخذ بفضائله وتلك هى المدنية الحقة والحضارة النافعة .

أمثلة للمقالات الصحفية

الإنشاء والعصر

" لإبراهيم بك المويلحي(١)(*)

سمعنا كلاماً يجرى فى كثير من مجالس الباحثين المدققين أولى الأدب والفضل، عن السبب الذى وقف بصناعة الإنشاء والتحرير عند هذا الحد من الضعف والخمول مع تزايد المدارس ، وانتشار التعليم ، وكثرة المطابع ، واتساع دائرة المطبوعات ، وإطلاق حرية القول ، وتعدد فنون المطالب والمواضيع فى هذا العصر خاصة . وما بالنا نرى دوائر بقية الصناعات العالية تتسع وتنمو على نسبتها، ودوائر الكتابة والإنشاء تضيق وتنكمش وتنحط ولا ترتفع ، فلا يمضى عام ولا يمر حول إلا ونجد دائرة الطب والهندسة أو المحاماة قد دخل فيها عدد ليس بقليل من الأطباء أو المهندسين أو المحامين ، وينقضى العام فى أثر العام ، ولا نسمع بظهور كاتب واحد ينضم إلى دائرة التحرير من بين أولئك الألوف المؤلفة ، من طلبة العلوم العربية فى المدارس وغيرها . وما لنا نجد أهل تلك الصناعات يسلكون سبيل الإتقان والإحسان فى دائرتهم على كل حال ، بممارسة العمل ومزاولة الصنعة ، ونجد أهل صناعة الإنشاء قد وقفوا عند حد محدود، ونقطة معينة ، لا يتعدونها ولا يتخطونها، وارتضوا لهذه الصناعة العالية وذلك العلم النفيس أن يبقى على الضعف والخمول ويقيم على النزول والهبوط .

(١) إبراهيم بك المويلحى : لا أكون مبالغًا إن قلت إن المرحوم إبراهيم بك المويلحى هو شيخ الكتابة العربية فى هذا العصر وأنه هو الذى علم الكتاب كيف يرقون بلغتهم إلى المنزلة التى وصلت إليها اليوم . وكيف يودعون فى كتاباتهم النكات البديعة والمعانى المستطرفة ، ويخرجون بها من ذلك الجمود القديم .

(*) انظروا مختارات المنفلوطى ، القاهرة : مكتبة التجارة الكبرى (بدون تاريخ)، ص ١٨١ -١٨٧ . ولم أعثر على أى إشارة إلى مصدر هذا المقال .

ولا يقال هنا إن قلة الفائدة المادية من هذه الصناعة، هى التى تصرف بوجوه الطلبة عن طريق الإتقان فيها ، والتضلع منها ، فإنها صناعة عامة تطلب لذاتها ويزدان بها غيرها من الصناعات ، وحسن النطق والتعبير أمر يرغب فيه كل إنسان، وأعظم وجوه التفاضل بين البشر تنصرف إلى قوة البيان وحجة اللسان .

وليس الاشتغال بالصناعات الأخرى التى يطلب بها الرزق ، ويستعان بها على كسب المال لسد حاجات المعيشة ، بما يمنع من ممارسة تلك الصناعة الشريفة ، ويشغل النفس عن التحلى بمزاياها الجليلة ، فالقاضى يحتاج إليها، والمحامى ينتفع بها والحاكم لا يستغنى عنها ، وجميع أرباب الوظائف المتنوعة والمناصب المختلفة، لا يخلون من الرغبة فيها ، بل لو نزلنا إلى بقية أهل الحرف والمهن من التجار والصناع وباعة الأسواق، لوجدناهم يتطلعون إلى المشاركة فيها، ويتمنون الحظوة بها وهم فى هم الحرفة وكد المهنة ، وقد علمنا أن الرجل من أهل العصور السالفة ، يكون خبازاً وشاعراً مجيداً ، ويكون جزاراً وكاتباً أديباً، ويكون حداداً وخطيباً بليغاً .

فلا يكون السبب إذن فى انحطاط صناعة الإنشاء والتحرير، وقلة عدد المشتغلين بها، راجعًا أبدًا إلى ضعف الفائدة المادية منها، وتحول النفوس عنها لالتماس الربح من وجوه الصناعات الأخرى، ولا لفقد الرغبة فيها لذاتها، فإنها زينة كل صانع، وحيلة كل ناطق، وغرة كل علم وفن ، وإنما السبب عند جمهور الباحثين، هو سوء طريقة التعليم والتلقين للعلوم العربية بين طلبة المدارس، وضعف العناية فى اختيار الكتب النافعة للتدريس . وليس هذا فى نظرنا السبب الوحيد لما نشاهده من التأخر والانحطاط فى صناعة الإنشاء والتحرير وقلة العاملين فيها، فإنك مهما جئت به من التحسين والتعديل لطريقة التعليم ، لا ينفع فى تربية ملكة الإنشاء فى أذهان التلاميذ، التى عليها المعول فى حسن الصناعة لأن المدة لدرس اللغة العربية فى المدارس لا تكفى لغير الحصول على أصول اللغة ، وقواعدها ولا تفيد فى تكوين الملكة لشىء صالح ، ولا يخفى عن علمك أن الطالب يتجرع هذه القواعد والأصول فى الدرس، ولا يكاد يسيغها ولا يتناولها إلا كما يتناول المحموم من الدواء ، ولا تمكث فى صدره ، إلا ريثما يمجها عند أخذ الشهادة ، وإن هى ثبتت فى حفظه ورسخت فى فكره فلا تكون

على صفحات قلبه إلا كما هى على صفحات الكتب، لا يدرك وجوه استعمالها ، ولا يعلم أبواب التصرف بها والتطبيق عليها، فإذا جئت له بصحيفة من كتاب لم يتوقف فى إعراب ألفاظها على وجه الإحكام والصواب ، ولكنك إذا طلبت منه أن يقرأها لك سرداً، لم يسلم على لسانه سطر واحد فيها من اللحن ، وإذا أخذته على كتابة بضعة أسطر فى أى شأن كان ، لم تخرج من يده خالية من الخطأ ؛ على مثل هذا يخرج المتخرجون فى المدارس ، سواء الفائز منهم بالشهادة والخائب فيها ، ثم ينصرف كل واحد منهم إلى ماينصرف نحوه من الأعمال والأشغال التى تلهيه عن كل صحيفة وكتاب ، ولا يجد أمامه مجالا لنمو ملكة الإنشاء ، ولا فى وقته متسعاً للانكباب على مطالعة الكتب النافعة فى إتقان الصناعة، ولا يرى بين يديه مايبعث فيه الشوق، ويحيي الرغبة لممارستها، ومزاولتها، فإذا هو انتهى فى يومه من عمله إلى بيته، اشتغل فيه بأهله، وإذا خرج إلى السوق اشتغل فيه بالناس ، والناس قد أصبحوا جميعاً فى شغل شاغل، وهم متواصل من ضروب هذه المعيشة الحديثة، وفنون المدنية الحاضرة ، فقل أن ترى فيهم من يجلس لمطالعة فى كتاب، أو يلتفت إلى محاضرة فى أدب، أو يحفل بمناظرة فى فن فيأخذ معهم فى طريقهم ويسير على نهجهم، فتتلاشى منه ملكة العلوم، بدل أن تنمو ، وتنقص رغبته فيها بدل أن تزيد ، والفكر إذا لم يجد ما ينبهه خمد ، والذهن إذا لم يصادف ما يحركه جمد .

أما إذا ما ابتلاه الله بالدخول فى خدمة الحكومة، فقل يا ضيعة العلم والأدب، ويا بؤس صناعة الإنشاء والتحرير، ويا زوال ملكة الإفصاح والتعبير، إذ يلتقى هناك لساناً جديداً، ولغة حديثة، لا يهتدى فيها إلى قاعدة، ولا ترتبط برابطة، ولا تفضل لغة البرابرة ، إلا بأنها تسطر دونها وتدون، فيضطر المسكين أن يمحو من ذهنه جميع ما تعلمه وتلقاه من قواعد اللغة وأصولها، ويحمد الله فى نفسه على زوال الحاجة إليها، وحسن خلاصه من عناء التذكرة لها، وطول الاشتغال بها . ولو أنه ذهل يوماً وجاء فى بعض عمله بجملة صحيحة، وعبارة مستقيمة اللغة، وانحرف عن ذلك اللسان المصطلح عليه شيئاً قليلا، لأصبح عرضة للتهكم عليه، والاستهزاء به بين العمال فيعمد إلى التوبة من الذنب، ويمتنع عن معاودة الإثم، ولا يجد له من سبيل إلا أن يجرى معهم فى مضمارهم، ويأخذ بلسانهم فيأمن من مكرهم .

فأنت ترى على هذه الحال أن السبيل إلى تربية ملكة الإنشاء قبل الخروج من المدرسة غير ميسرة وبعد الخروج منها متعذرة وأن مزاولة الأعمال ومخالطة الناس تعين على زوالها وتبعث على خمودها . إلا أنه قد بقى لدينا مع ذلك باب كان يرجى منه النجاح فى نمو تلك الملكة، والتدرج إلى إتقان صناعة التحرير، وهو باب الصحف والجرائد، فإن الناس إن كانوا قد غفلوا عن مطالعة الكتب وأهملوا النظر فى بطون الدفاتر فإنهم استبدلوها فى أوقات فراغهم بمطالعة الجرائد المنتشرة على الأيدى فى كل يوم، وأصبحت النفوس متولعة شديدة التولع على أخبارها والتسامر بأقوالها وصارت بينهم شيئًا من لوازم المعيشة فى كل يوم لا يصبرون عنها ولا يستغنون عن تلاوتها، وأقاموها لديهم مقام كل سفر وكتاب وتعلقت نفوسهم بهذا الشيء الحاضر على الدوام بين أيديهم فى كل مكان، فكان المأمول أن طول انكبابهم على مطالعتها عند كل صباح ومساء ينتهى على مرور الزمن فيهم باكتساب ملكة الإنشاء وسرعة الوصول إلى المنزلة الرفيعة فى حسن التعبير والتحبير ، ولكن من سوء الحظ أن الجرائد السائرة لم تلتفت إلى هذا الغرض الجليل، ولم تعمل لهذا المقصد النبيل ولم ير أربابها أن يتعبوا أنفسهم ويكدوا خواطرهم للتفنن فى بلاغة القول وفصاحة التعبير، وانتقاء الألفاظ وتنويع التركيب وتجديد الأسلوب وما شابه ذلك من محاسن هذه الصناعة التى تشوق النفوس، وتطرب إليها القلوب وتأخذ بمجامع اللب ويلطف تناولها على الملكات وتحن القرائح إلى اقتباسها وتحرص الأذهان على اقتنائها، فتتولع النفوس بمحبة الاشتغال بها وتنصرف الأفكار إلى الترقى فى مراقيها وتتكون فيها من إدمان المطالعة بضاعة نفيسة تذهب بالناس إلى طلب التزيد منها فيحلو لهم الرجوع إلى مراجعة كتب الأقدمين، ويلذ لهم صرف أوقاتهم فى اجتناء ثمراتها وينتهى بهم الأمر إلى التوغل فى أبواب الصناعة والوصول إلى جميل الإحسان والإتقان، فينبغ فيهم النوابغ من الفصحاء والبلغاء ويكثر بيننا عديد الكتاب والأدباء .

بل رأينا أرباب الجرائد وقد وقفوا هم أيضًا فى باب التحرير عند حد محدود وقعدوا عند نقطة معينة وداروا بأقلامهم فى دائرة واحدة لا يخرجون منها ولا يتوسعون فيها وكادوا يصلون فى وحدة التعبير واصطلاح التحرير وتكرير الجمل والألفاظ بعينها فى كل يوم وفى كل باب إلى مصطلح من اللغة يشابه مصطلح لغة

الحكومة وإنما يفضله بسلامته من اللحن وحده على وجه عام . وقد صارت تلك الجمل والتراكيب المعينة لطول إعادتها وتكرارها راسخة ثابتة فى جميع الأذهان، فلا يشتغل فكر كاتبها فى تسطيرها ولا يحتاج جامع حروفها إلى مراجعتها ولا يمعن قارئها بنظره في مطالعتها، فهى مشتركة فى الأذهان ومتمثلة للأنظار. وقد اهتدى بعض أصحاب المطابع إلى سبك كثير من تلك الجمل والمركبات قطعة واحدة فى قوالب من نحاس تخفيفًا للعمل واستر باحًا للوقت . وإذا شعر أرباب الجرائد يوما بهذا الإخلال والإفساد فى الصناعة قالوا إن لنا فيه عذرًا واضحًا وشفيعًا ظاهرًا وهو أننا إذا سلكنا طريق التفنن والإبداع فى التحرير والإنشاء عسر على القراء فهم ما نكتبه لهم ، فلا يستريحون إلى المطالعة ولا يستفيدون من المواضيع ، فنحن مضطرون إلى الوقوف عند هذا الحد البسيط ، وفاتهم أن الواجب على المجيدين الذين يضعون أنفسهم أمام القارئ فى موضع الهادى والمرشد، ومقام المربى والمعلم أن يرتفعوا بذهن القارئ إلى درجة أذهانهم لا أن ينزلوا بأفكارهم إلى درجة أفكاره .

الترك والعرب(*)

لم يكن فضل الترك فى حفظ السلام ، وتشييد دعامته ، ونشر دعوته ، وتأييد صولته ، والدفاع عن حرمته وحومته ، بالشيء الحديث والأمر الجديد ، ولا هو مبدوء فيه ببدء الدولة العثمانية ، ولا نشأ فى نفوسهم بنشأتها . فهم الحماة له ، والكفاءة فيه ، والذادة عنه والأنصار لدين الله منذ العهد البعيد والدهر القديم . دخلوا فى خدمته . وقاموا بنصرته فى صدره وشباب عصره . أدخلهم المعتصم بالله ثامن الخلفاء العباسيين ، فجعلهم جنده وأعوانه ووزراءه وقادته . وأخذ الخلفاء من بعده بمأخذه فيهم ، فكانوا لديهم العدة فى الشدة ، والعمدة فى فتوحاتهم وغزواتهم ؛ ينتصرون بهم ويدفعون عن الدين بجمعهم . وصفحات التاريخ بين أيدينا تشهد لهم بأنهم مازالوا ينفعون بخدمتهم نفع اليد للفم والدم للجسم منذ الأعصر الأولى إلى اليوم ، فلهم الفضل الظاهر فى الأول والآخر .

وكأنما الدهر لا يدور ، والزمان لا يحول ، والأشياء فيه تتجدد ، والنظائر تتعدد ، والحوادث فيها يبديها ويعيدها ، والكتاب كلما نفدت نسخه تجدد طبعه . فقد عثرنا على رسالة كتبها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة يقول فى صدرها :

« فإن السلطان لا ينفك مُتَنَاوَل ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن مغزول عن الحكم زارٍ ، ومن متعلل متصفح ، ومن معجب برأيه ذى خطل فى بيانه مولع بتهجين الصواب والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان جميع

(*) مصباح الشرق ٦ ، ٢٦ مايو ١٨٩٨ . انظر عبد اللطيف حمزة . **أدب المقالة الصحفية** ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٥٩ ، ص ١٧١ – ١٧٢ .

المملكة ، يضع نفسه فى مواضع الرقباء وفى مواضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يعْذُرُ ، وإن كان مجاز ولا يقف فيما يكون للشك محتملا ، ولا يصدِّق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنه لا يعرف مصادر الرأى من لم يشهد موارده ومستديره من لم يعرف مستقبله » .

إلى آخر ما تراه مسطوراً من هذه الرسالة فى الصفحة الثالثة من هذا العدد . فتعجب معنا ويحق لك العجب كيف أن ما كان يكتب ويقال فى القرن الثانى أصبح ينطبق على حال القرن الرابع عشر فى اعتراض المعترضين وانتقاد المنتقدمين ، وفى الرد عليهم ، وفى بيان الرابطة التى تربط العربى بالتركى والتركى بالعربى ، حتى كأن الجاحظ وهو يملى أقواله فى المسجد يكتب معنا اليوم فى الجريدة بعد مرور القرون وكرور العصور .

فما الرأى الأحزم لجماعة المعترضين والمتقدمين على ما لا يوجب الاعتراض والانتقاد فى أعمال الدولة إلا أن يكفوا ويرتدوا عن أمر قد سجل بذمه وعدم جدواه من عهد القرون السالفة ، وأن يتعاونوا على ماهو الأنفع والأصلح للأمة الإسلامية والدولة العثمانية ، لو ذلك أن يتركوا الأمر لصاحبه ومن يضع الهناء مواضع الجرب فهو بالنافع أدرى وبالصالح أخبر . وقد قال على بن أبى طالب لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما وقد أشار عليه فى شىء لم يوافق رأيه « لك أن تشير على بالرأى ، فإذا عصيتك فأطعنى » . وقالوا الإمام أفضل من الرعية رأيًا وتدبيراً . فالواجب على من يشير عليه بأمر ولا يقبله أن يطيع ويسلم ويعلم أن الإمام قد عرف من المصلحة مالم يعرف . وقال أبو إسحق الصابى فى بعض فصوله : ولولا فضل الرعاة على الرعايا فى بعد مطروح النظرة ، واستشفاف عيب العاقبة لتساوت الأقدام ، وتقاربت الأفهام . واستغنى المأموم عن الإمام .

اللهم أجمع قلوبنا على الحق الأبلج والصراط الأقوم ، وقنا عواقب التفرق والتشتت والتحزب والتشعب ، واسلك بنا طريق الهداية فى كل حال .

مصر وحدها(*)

العادات المصرية

لم يكن شيء في الوجود إلا وضعه الباري سبحانه وتعالى تحت حكم التغيير والانتقال ، وهو الذي يغير من حال إلى حال ، وينقل من وضع إلي وضع ، ولا يختص التغيير والانتقال بالماديات ، بل يتناول المعنويات أيضًا ، فمنها ما يتغير تغيراً يدركه الحس ، ومنها ما يظهر تغيره على مرور الأزمان وكرور الأعصار .

وليس التغير في الشيء الواحد يكون على نمط واحد من السرعة والبطء ، بل يكون التغير تارة سريعا ، ثم يتغير سيره فيصير بطيئا . ومما يدخل تحت التغيير عادات الأمم وأخلاقها ، والرسوخ والثبوت في وصفها نسبي . فهي في تغير وانتقال على الدوام . وربما تعودت الأمة عادة ، ودامت عليها أزمانًا ، ثم تحولت عنها إلى أخرى ، وبعد هذا التحول بزمن طويل أو قصير عادت إلى عاداتها الأولى مرة ثانية .

فمن ذلك عادة المصافحة ، وهي من السنة الشريفة النبوية . كانت شائعة بين المصريين ، ثم زالت أو كادت . وقد أدركنا الناس لا يصافح بعضهم بعضا إلا أرباب الطرق من أهل التصوف ، فإنهم بقوا على السنة ، وأما التحية بين طبقات الناس فإنها كانت باللسان ، وإشارات اليد ، أو بتقبيل اليد ، أو بغير ذلك من لثم الأذيال ، وهو مما أوجبه على الناس كبرياء كبرائهم حتى بلغ ببعض آل البيت النبوي الذين

(*) مصباح الشرق ١٨ ، ١٨ أغسطس ١٨٩٨ . انظروا عبد اللطيف حمزة . أدب المقالة الصحفية ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٥٩ ، ص ١٨٥ - ١٩١ .

لا ينبغي إلا أن يكونوا قدوة للناس في تعليم مكارم الأخلاق أنه كان إذا قبل يده أحد حضر الخادم في الحال بالماء فغسل ابن النبي يده أتقه واستقذاراً من لمس يد أخيه المسلم . !

ولما اختلط المصريون بالغربيين عادوا إلى السنة النبوية ، والعادة المصطفوية ، ولكن من طريق التقليد للأجنبي . وصار العظيم يصافح من دونه وأخذت التحية بالإشارات في التلاشي . ولا شك أن هذا من محاسن الأخلاق التي تستوجب مدح صاحبها ، ولكن لو كان الرجوع إليها من باب الرجوع إلى الاقتداء بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم لكان المدح أعظم والثناء أوفر . ومن التناهي في تكلف التقليد أن بعض من تراهم من المتكلفين إذا صافحك رفع كوعه حتى يكاد يساوي به رأسه ، وأمال جسمه ، وحنى ظهره ، وأخذ يدك ثم هزها هزا متتابعاً ، وانتفض كما انتفض العصفور بلله القطر . وذلك لأنهم أخذوا على أنفسهم أن يرصدوا حركات الأجنبي وسكناته في كل ما يعمله ، فيأخذوا عنه ماقبح وما حسن بلا ترو ولا تبصر .

ومن ذلك عادة الاستئذان قبل الدخول ، وهي من آداب القرآن . وقد نهى الله عن دخول البيوت بغير إذن من أهلها فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ والزمخشري يقول بعد تفسيرها : وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة ، فقد تركوا العمل به . وباب الاستئذان من ذلك . بينا أنت في بيتك إذا رعف عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا إسلام ولا جاهلية ، وهو ممن سمع ما أنزل الله فيه وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن أين الأذن الواعية ؟

وقد جرى المسلمون على هذه العادة زمنا ، ثم زالت من بينهم . وشاهدنا الناس يدخل بعضهم على بعض بلا استئذان . ثم جدد فيهم تلك السنة النبوية اختلاطهم بالأجانب ، فأخذوها عنهم ، وقلدوهم فيها ، وبغلت بهم سماجة التقليد إلى طلب الإذن بالنقر على الباب وإجابته بأمر الدخول باللفظ الأجنبي . وربما نطق به من لا يعرف من اللغة الأجنبية غيره ، ولو كان إلا باللغة المستهجنة ، ويتركون لغة تكسو مقاصد

المتكلم حسن القبول فى القلوب . وكنت ترى الكاتب الشهير لا يعرف الحروف رسمًا ، ولا تعرف لغلطه حدًا . وله أيضًا من عى القلم جمل يكررها بلا معنى ولا فائدة ، واستعارات باردة تقشعر منها الأبدان وتستنكرها الأذواق . كقول بعضهم لأمير فى الدعاء له (والله يبقى الأمير وأنجاله مسلسلين بقيود النعمة فى أوتاد الدوام) . وربما كانت هذه الجملة وأمثالها هى التى شهرته بالبلاغة بين أقرانه . أما الآن فقد تغير الحال ، وأخذت اللغة العربية فى الرجوع إلى جمال رونقها ، والكتابة فى العودة إلى بهاء بهجتها . فترى الغلام التلميذ يتكلم بالألفاظ لفصحى ، ويكتب الكتاب مزدانة بالمعانى الجزلة ، منطبقة على قواعد الرسم ، خالية من الحشو . وترى كثيرا من رجال النيابة والمحامين يقفون فى موقف الخصام والدفاع ، فيمثلون لك ما كنت تسمعه عن سحبان وقس بن ساعدة ، وأمثالها من فصاحة الألفاظ ، وجزالة المعانى ، وحسن التشبيه ، ولطف الأسلوب ، وبراعة الإلقاء ، مما يكون له وقع فى النفوس ، ومنزلة في القلوب . وقد أخذ هذا يمتد فى جميع الطبقات . وينتشر بينها على قدر مداركها واستمدادها ، فتغير أسلوب الكلام فى المجتمعات ، فأصبح أقرب إلى العربية الفصحى منه إلى العامية العجمى . ولو دام هذا الترقى فى اللغة لوضع هذا العصر فوق عصر الجاحظ وأبى تمام فى النثر والنظم . والفضل فى ذلك للمدارس والمطابع والجرائد . ولو خلت الجرائد من عبارات الشتم والسباب كما هو الواجب عليها لكان لها النصيب الأوفر من ذلك الفضل ؛ لأنها دروس يومية فى الإنشاء والسياسة يشترك جمع الأمة فى تلقيها ، وتتربى فى ملكانها بالأخذ عنها . ولكننا نرى بعضها قد خرجت عن حد ما وضعت له وأصبح ما يكتب بها يخالف شرط الاشتراك فيها ، لأن المشترك فيها لم يعط ثمنها إلا لاستفادته من نقل الأخبار . وإبداء الأفكار . فإذا خالفت هذا ، وجاءت إلى المشترك فى حجرته بين أهله وأولاده حاملة من أنواع السباب والشتائم ما يكرم نفسه عن المرور بقائله والناطق به ، فقد أضاعت وقته ، وسلبت ماله ، وأقرأته ماكان ينفر من سماعه ، وأدخلت فى حجرته ما يستعيذ له بالله من هجر القول وفحشه .

فإن كانت الجرائد تفيد الناس من جهة فإنها تضر بآدابهم من جهات . فيجب على الحكومة التى بيدها الحل والعقد فى شئون الرعية فى أن تبحث لإيجاد طريقة لحفظ الآداب بمنع الجرائد عن وقوعها موقف السلبّ ، والشاتم ، والقاذف . وأعراض الناس وديعة فى يد الحكومة فينبغى أن تحافظ عليها . ومن الغريب أن أرباب الجرائد يجعلون أنفسهم فى منزلة الرادع ، والوازع ، والوعظ ، والناصح ، ويشتمون لمنع الشتم ، ويسبون لمنع السب .

فإن لم تفعل الحكومة ما يجب عليها فى هذا الباب لم يبق إلا أن يقوم فضلاء الأمة وأهل الشأن فيها لحفظ الآداب ، ودفع هذا الشر بتأليف جمعية تقف أمام الجرائد وقفة المراقب الوازع بسلطة معنوية .

مصر وحدها

كيف يتداخل المحتلون(*)

ذكرنا فيما مضى للقراء الكرام فى كلامنا عن الشرق وحده أن الشرق واسع الخيال ، جديد الذهن ، مشتعل الذكاء ، لطبيعة الأقاليم الشرقية ، يكاد يسبق ذهنه إلى النتيجة عند بدء المقدمة ، ويعجل بمصادر الأمر قبل بوادره . والمصرى من بين جمهور الشرقيين أوسعهم خيالا ، وأحدهم ذهنا ، وأوقدهم ذكاء ، وهو أكثرهم تشعبا فى الفكر ، وأطوعهم انقيادا للوهم ، وأسهاهم عن المقدمات ، وأسبقهم إلى النتائج ، وأسرعهم فى الحكم . فلو تكلمت مع مصرى مثلا على عمل يعمله لربح يربحه لاخترق بفكره الثاقب جميع مقدمات العمل ، واحدة إثر أخرى ، ولنفذ فكره منها كما تنفذ الكهرباء إلى الأجسام ، لشغفه بالوصول إلى النتيجة ، فيأخذ فى تعداد وجوه الإنفاق من ذلك الربح الموهوم ، قبل الشروع فى ألعمل ، ويفوته حينئذ التأمل فيما عسى أن تحتوى عليه المقدمات من الأغراض التى تعكس عليه النتيجة بتمامها ؛ كالناسك الذى كان يجرى عليه من بيت رجل تاجر فى كل يوم رزق من السمن والعسل ، وكان يأخذ منه حاجته ، ويرفع الباقى فى جرة ، فيعلقها فى وتد من ناحية البيت حتى امتلأت . فبينما الناسك ذات يوم مستلق على ظهره ، والعكاز فى يده ، والجرة معلقة على رأسه ، تفكر فى غلاء السمن والعسل فقال : سأبيع مافى هذه الجرة بدينار وأشترى به عشرة أعنز ، فيحبلن ويلدن فى كل خمسة أشهر بطنًا ، ولا تلبث إلا قليلا حتى

(*) مصباح الشرق ١٩ ، ٢٥ أغسطس ١٨٩٨ ، انظروا عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية ، القاهرة : دار الفكر العربى ١٩٥٩ ، ص ١٧٣ - ١٧٩ .

تصير غنما كثيرة ، ثم حرر على هذا النحو بضع سنين ، فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز فقال : أنا اشترى مائة من البقر بكل أربعة أعنز ، ثوراً أو بقرة ، وأشترى أرضاً وبذراً ، واستأجر أكرة ، وأزرع على الثيران ، وأنتفع بألبان الإناث ونتائجها ، فلا يأتى على خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالا كثيراً ، فأبنى بيتًا فاخراً ، واشترى إماءً وعبيداً ، وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن وأدخل بها فتحمل ، ثم تأتى بغلام سرى نجيب ، فأختار له أحسن الأسماء ، فإذا ترعرع أدبته وأحسنت تأديبه ، وأشدد عليه فى ذلك . فإن يقبل منى وإلا ضربته بهذه العكازة ، وأشار بيده إلى الجرة فكسرها ، فسال ما كان فيها على وجهه.

فقد رأيت أن الناسك مر على ما ترى من المقدمات فلم يقف عند واحدة منها ، بل جعل همه كله فى الإنصراف إلى النتائج . وهذا معنى قلة التبصر .

ثم إن المصرى لتوزع فكره ، وتشعبه وتوجهه بكليته إلى النتيجة لا يتمكن من الوقوف هنيهة على علاقات الأعمال ببعضها(١) ، فتبقى أعماله منفصلة غير مرتبطة ، ويتعذر عليه ترتيبها على نسق مخصوص ، وتوجيهها إلى غرض مقصود . وهذا معنى قلة التروى .

والإنكليزى بما لم تهبه الطبيعة من قوة الذكاء واتساع الخيال تراه بطىء التصور بطىء القياس قادرا بذلك على التأمل ، والتثبت ، والتروى ، والإمعان . فإن عمد إلى أمر انصرف بجميعه أولا إلى النظر فى المقدمات ، وأخذ يقلبها بطنا لظهر ؛ فلا نثنى حتى يقتلها علما ، ثم يتبرى للقياس فلا يخطىء إلا بمعاكسة الحدثان ، صروف الزمان التى لم تكن فى قدرته أن يحيط بها . وله من تلك الإناة وذلك الإمعان ما يسهل عليه الوقوف على علاقات الأعمال بعضها ببعض على قدر الطاقة البشرية . ولما كان النجاح فى الأعمال يتوقف على العلم بارتباطها ببعضها اجتهد الإنكليزى فى ممارسة هذا الباب حتى صار عنده فى منزلة الدرس يتلقاه ويحفظه . ومن أمثلة ذلك تلك القاعدة التى تجرى عليها وزارة الخارجية الإنكليزية ، فإن كل سفير لها فى

---

(١) هذا خطأ فى استعمال « بعض » . والصواب أن يقول : علاقات الأعمال بعضها ببعض . وهو خطأ شائع فى كتاب القرن الماضى بوجه عام . (عبد اللطيف حمزة)

الخارج يرسل إليها فى ختام كل شهر تقريراً يحتوى على جميع ما يراه فى الدولة المقيم بها ، فتجمع الوزارة هذه التقارير ، وتبعث بنسخها إلى جميع سفرائها : فسفيرها فى الصين يعلم ما يعلمه سفيرها فى مراكش ، وسفيرها فى العجم يعلم ما يعلمه سفيرها فى أمريكا ، والكل يعلمون ما عند الكل ، فلا ترد على سفير منهم حادثة إلا وهو مطلع على متعلقاتها من جميع الجوانب والأطراف . وهذا سر تغلب الإنكليز على الممالك الشرقية بالرأى لا بالقوة .

فإذا اجتمع مصرى مع انكليزى على عمل خاب المصرى لاضطرابه وعجلته ، ونجح الإنكليزى لسكوته ولتؤدته . ولا يزال هذا نصيبهما إن لم يتعود المصرى على التثبت والتأمل ليرى ما وضع له فى طريقه من الحبائل والإشراك ، ولا يكن المصرى مع الإنكليزى كالمسافرين يؤمان منزلا واحدا ، أحدهما راكب متعجل ، والآخر راجل متمهل . فإن وصلا فقد فات المتعجل ما اطلع عليه المتمهل من معالم السفر ومواقف النظر . وربما وصل الراجل وضل الراكب ، فانقطع به طريقه . وقد قال عليه الصلاة والسلام « إن المنبت[٢] لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » .

وتاريخ الاحتلال يشهد لنا بكل ما تقدم . فإنك ترى المصرى يتسرع عند كل حادثة إلى التمسك بكل سبب ، والتعلق بكل طرف ، فيضطرب فى الأمر ، ويختلط فى الرأى ، وهو ذاهل عما يضعه له الإنكليزى فى المقدمات من دقائق الأغراض التى تعكس عليه النتيجة .

وما زال المحتلون ينتفعون بصوابهم وخطئنا معا ، وينالون أغراضهم بإغفالنا الحزم فى أمورنا ، وانتباههم وتبصرهم فى أمورهم ، حتى تمكنوا من التداخل فى إدارات الحكومة المصرية ، ولم يبق فى أيدينا منها إدارة سالمة من تداخلهم إلا إدارة الأوقاف التى دبروا لها ما دبروا لوقوعها فى أيديهم أيضا . وقد رأينا أن نبسط تاريخ تداخلهم فيها شاهدا على ما قدمنا ، ونموذجا لما بينا . فنقول :

---

(٢) المنبت الذى ينقطع عن أخواته فى السفر ، يجهد دابته ليسبق إخوانه فيهلك هو ودابته (عبد اللطيف حمزة).

كان ديوان الأوقاف نظارة معدودة من نظارات الحكومة إلى أواخر رئاسة نوبار (باشا) لمجلس النظار سنة ٨٤ . وفي ذلك الحين قرر مجلس النظار فصل تلك النظارة عن هيئة الحكومة ، ووضعها تحت نظر الحضرة الخديوية مباشرة ، وكان ذلك على أثر التلغراف المشهور الذى أرسله اللورد جرانفيل ناظر خارجية انكلترا فى وقتها إلى المرحوم شريف (باشا) رئيس مجلس النظار قبل استعفائه : بأنه ما دامت الجيوش الإنكليزية مقيمة فى القطر المصرى فعلى رجال الحكومة المصرية أن يأتمروا بما تشير به الدولة الإنكليزية عليم من الآراء . فارتأى المغفور له توفيق (باشا) أن يفصل هذا الديوان عن هيئة الحكومة ليكون بمأمن من تداخل المحتلين ، وليسلم من الدخول تحت نص هذا التلغراف ، فأعانه دولة نوبار (باشا) على رأيه فى فصله ليشغله به عن الحكومة ، ويستبد هو مع المحتلين بجميع أعمالها . وبقى الحال على ذلك إلى حين نظارة دولة رياض (باشا) . فسعى فى إرجاع ديوان الأوقاف إلى الحكومة كما كان عليه لما اعتاده من حب التفرد بمباشرة أعمال الحكومة كلها . فلم يسع المرحوم توفيق (باشا) إلا التسليم له فى أن يجعله تحت مراقبته الشخصية فقط مع تعيين أحمد حمدى (باشا) مديراً له ليأتمر بما يأمره به رياض (باشا) ، ويكون دولته واسطة بين الأوقاف والمعية . ورأى أن هذه المراقبة تقوم مقام إعادة الديوان إلى هيئة الحكومة ، ما دام هو رئيساً باقياً فيها . ثم استشعر الحاجة إلى سن لائحة يسير عليها الديوان فى إدارته ، فكلف لجنة إنشائها . ولما انتهت اللجنة منها سقطت نظارة رياض (باشا) ، وخلفتها وزارة سعادة مصطفى (باشا) فهمى ، فاسترجع المرحوم توفيق (باشا) وكالته التى أعطاها لدولة رياض (باشا) فى مباشرة أعمال الأوقاف ، فرجع الديوان كما كان مرتبطا بالمعية رأسا ، وحفظت اللائحة المذكورة فى محفوظات مجلس النظار لا يحركها إلا من ينقض الغبار عنها .

وفى عهد الجناب العالى عرضت مسألة من المسائل لها مساس بالأوقاف ودارت المذاكرة فيها بين الحكومة ومجلس شورى القوانين ، فذكر المجلس الحكومة بتلك اللائحة التى وضعتها ، وما كادت تعرضها عليه حتى سقطت نظارة مصطفى (باشا) فهمى . واشتد النفور بين الحكومة والمحتلين . فكان المحتلون يعيرونها ويبكتونها فى

كل آن بفساد الأمور في المصالح التى لا دخل للمحتلين فيها ، ويضربون المثل بديوان الأوقاف ، واختلال أعماله ، ويقيمونه حجة على أن كل ما كان فى أيدى المصريين خاليًا عن مراقبتهم يكون على مثل ذلك الاحتلال . وأكثروا من هذا التعبير ، والتنديد ، حتى اضطروا المعية أن تطلب بنفسها النظر فى لائحة الأوقاف . ولما كانت تلك اللائحة موجودة فى مجلس النظار ، ولابد لتنفيذها من رأى مجلس شورى القوانين ، ولا سبيل لعرضها عليه مباشرة من المعية ، بل لابد من توسط مجلس النظار أمرت المعية رئاسة المجلس بإخراج تلك اللائحة والنظر فى أمرها ، ورئيسه يومئذ نوبار (باشا) ، فانتهز هذه الفرصة ليأخذ من المعية ما كان أعطاها إياه لغرضه الذى أغنته الحوادث عنه ، ويرده إلى الحكومة ، فيدخل تحت مداخلة المحتلين ، فلم تشعر المعية إلا وقد أضيف إلى تلك اللائحة فقرة تجعل لنظارة المالية واجب المراقبة على حسابات الأوقاف ولما كان ديوان الأوقاف من المصالح ذوات الإيراد والنفقات ، وكله حساب فى حساب كانت المراقبة الحسابية عليه مراقبة عى جميع أعماله ، وتداخلا فى كافة شئونه وصار المحتلون بعد ذلك إذا ذكروا أمور الأوقاف ذكروها بغير اهتمام ولا عناية ، ليستروا ما وضعوه من الأغراض . وداموا على هذا الحال سنة كاملة اقتصروا فيها على إرسال موظف من المالية إلى الأوقاف فى بعض الأحيان ، حتى جعلوا رجال الأوقاف أنفسهم فى مقدمة المستخفين بتلك المراقبة ، والزاعمين بعدم وجودها ، واعتقدوا أن المحتلين لا يتجاوزون فى مراقبتهم إلى غير ذلك القدر ، وإنهم لا يتعدون حدود تلك المداخلة الحثيثة فى المستقبل كما يعملون فى بقية النظارات ، لأن الأوقاف يحميها منهم اسمها .

وبعد أن مضت سنة أخرى على هذه المراقبة الخفيفة حان لمندوبى المالية أن يصرحا بأنهما عاجزان عن مراقبة الحسابات وترتيبها إذا استمر الديوان على طريقته الأولى فى الحساب ، ولم يوحده ، فعضدت المالية رأى مندوبيها ، فشعرت المعية والأوقاف بما أخفى لهما ، وأحسا بثقل النتيجة التى كانا يستخفان بمقدماتها .

وهنا نقول أن القارىء لهذه السطور كأنما يقرأ قصيدة من شعر شاعر بليغ ،

فبينما هو يلهو بنسيبها إذا انتقل به إلى مديحها لحسن التخلص . وحسن التخلص هنا هو الاستيلاء على الأوقاف بعد ذلك الاستخفاف .

ولما انكشف السر للمعية والأوقاف هالهم الأمر ، وكثرت المداولات مع العلماء فى مجالس متعددة لسد هذا الباب بعدم الإفتاء بتوحيد الحسابات ، حتى قال سعادة إبراهيم (باشا) فؤاد ناظر الحقانية فى بعض تلك المجالس كلمته المشهورة عنه : إذا كانت الشريعة لا تبيح توحيد الحساب فالحكومة المصرية لا تقيد نفسها . وبعد جدال طويل تقررت الطريقة التى ترومها المالية بعد تخفيف فى ظاهرها .

والقلم واللسان عاجزان عن وصف التدرج الذى يتداخل به المحتلون وابتدائهم بالصغير لينتهوا منه إلى الكبير . وما يماثله إلا تلك النادرة من نوادر أبى دلامة الشاعر : فقد مدح الخليفة السفاح ، فقال له سلنى حاجتك . قال أبو دلامة حاجتى كلب أتصيد به . قال اعطوه اياه . قال ودابة أتصيد عليها . قال : اعطوه . قال : وغلام يصيد الكلب ويقوده . قال : اعطوه غلاما . قال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه . قال : اعطوه جارية . قال : يا أمير المؤمنين : هؤلاء عبيدك فلا بد لهم من دار يسكنونها . قال : اعطوه داراً تجمعهم . قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون ؟ قال قد أعطيتك مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة . قال : وما الغامرة ؟ قال : مالا نبات فيها فقال : قد أقطعتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافى بنى أسد . فضحك وقال : اجعلوها كلها عامرة . قال : فأذن لى أن أقبل يدك . قال أما هذه فدعها . قال : والله ما منعت عيالى شيئا أقل ضررا عليهم منها .

فانظر إلى حذقة بالمسألة ولطفه فيها ابتدأ بكلب فسهل القصة به ، وجعل يأتى بما يليه على ترتيب وفكاهة ، حتى نال ما لو سأله بديهة لما وصل إليه .

ولو أن أبا دلامة مازال مسترسلا فى هذا النحو لانتهى بالوزارة يطلبها والإمارة يخطبها !

" أيها العلماء "(*)

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

الدعوة إلى الدين وبعث البعوث لها من أطراف الأرض إلى أطرافها أمر واجب فى الدين الإسلامى ، فإنه لم ينتشر من بطاح مكة إلى حيطان الصين ، إلى أقاصى الغرب ، إلى مجاهل الجنوب ، إلى جزائر المحيط إلا بهذه الدعوة محمولة فى صدور رجال تجشموا متاعب الأسفار فى زمن كان السفر فيه قطعة من العذاب ، فلم يمنعهم هذا العذاب من الوصول إلى حدود الهند وغيرها خطوة خطوة ، يصيبهم الظمأ وتهلكهم المخمصة ، وينهكهم النصب وتنبرى تحتهم أبدان الإبل ، وتغور أعين المطايا ، قاموا بهذا امتثالاً لأمر الله بالجهاد فى سبيل الله . والجهاد ليس السيف وحده ، والسيف القاضب مخراق لاعب إذا لم تمض الدعوة حده . وجهاد الغى والغواية ، والجهل والجهالة ، والهوى والضلالة بالدليل والحجة والبرهان هو الجهاد الأكبر ، وهو الجهاد فى الله . قال الله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ .

قال المحققون من المفسرين فى تفسير هذه الآية الشريفة : هو أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى ؛ وهو الجهاد الأكبر . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه رجع من بعض غزواته فقال :" رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ".

(*) مصباح الشرق ٣٠ ، ١٠ نوفمبر ١٨٩٨ . انظر عبد اللطيف حمزة . أدب المقالة الصحفية ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٥٩ ، ص ٨٣ - ٨٩ .

هذه كانت سيرة السلف رضى الله عنهم ، وهذا كان دينهم ، وهذا كان عملهم فى نشر الدين الإسلامى ، وإنارة القلوب بنوره ، وهداية النفوس بهديه ، وتطهير الصدور من أدران الضلالة ، وأوضار الخرافة بالأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة . ولكن من نكد الدنيا أن خلف من بعضهم خلف انقطعوا عن العمل ، وقعدوا عن الواجب ، وركنوا إلى الراحة ، ووقفوا عند التفاخر والتشامخ بأعمال غيرهم ، حتى اضمحل ذلك التفاخر على طول الزمن بانقطاع العمل . والعمل بنيان إذا لم يسنده عمل آخر تهدم وانتقض . قال سيد من آل بيت النبوة رضى الله عنه :

نبنى كـــمـــا كـــانـت أوائلنا تبنى ونعـــمل مـــثل مـــا عـــملوا

وكفى بهذا البيت شاهدا على وجوب استمرار العمل بعد ذلك البناء الذى شاده جدهم صلى الله عليه وسلم .

وما زلنا على هذا التقاعد والتقاعس ، والتكاسل والتخاذل ، حتى ضاعت الفرص ، وانسدت وجوه المساعى ، وأنست النفوس بهذا الخمول ، وألف القلوب هذه العقود ، وأصبح المسلم لا يستطيع أن يطالب المسلم بتوسيع دائرة الإسلام كما يدعو إليه الواجب الأول ، بل غاية ما يستطيع أن يطالبه به هو أن يعمل على حفظ ما وصلت إليه تلك الدائرة ، فيسعى المسلمون ، وعلماء المسلمين فى إحياء السنة ، وإماتة البدعة ، ونفى الضلالة ومحو الخرافات . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا ظهرت البدعة فعلى العالم أن يظهر علمه ، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله ».

« وهذا السودان فقد توالت عليه الفتن ، وقام فيه (محمد أحمد)[1] بدعوى كاذبة ألبسها لباس الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ليجذب القلوب إليه ، فظهر لنا الآن بما كان ينشره على قومه إنه كان يسعى فيهم لإحياء السنة ، وإماتة البدعة ، وهو – وإن كان أخطأ فى دعواه ، فإنه أصاب فى مسعاه ، وقد عثرنا على كثير من هذا القبيل فى الأوراق التى كان ينشرها ؛ ومنها الرسالة التى أثبتناها له فى آداب

---

(١) هو محمد أحمد المهدى المعروف فى التاريخ (عبد اللطيف حمزة) .

الصوم . ولكنه ما كاد يؤلف القلوب على هذا الطريق حتى قضى نحبه ، وخلفه طاغ ، باغ ، أفاك ، سفاك ، عامى ؛ أى ، عريق فى الجهالة والضلالة ؛ ذلك (عبد الله التعايشى) فكان أول ما بدا منه أنه هدم ما بنى محمد أحمد . فدفعه جهله وعداوته للعلم أن أمر بإلقاء جميع ما فى أيدى الناس من الكتب في النيل إلى أفواه التماسيح ، وحرم أهل السودان قاطبة من الوقوف على واجباتهم الدينية ، والرجوع إليها فى كتاب ، ونفى أصحاب محمد أحمد الذين كانوا يرشدون باشاده جملة إلى (فشودة) ، فمكث السودانيون على الجهل سنين تراكمت عليهم الضلالات ، وتمكنت منهم الخرافات ، وتأصلت فيهم البدع ، ولم يبق فيهم من يأمرهم بمعروف ، وينهاهم عن منكر .

أما الآن وقد فتحت أبواب السودان ، وظهرت هذه الأمة السودانية الإسلامية بمظهر الافتقار إلى تجديد السنة ، وتبديد تلك الخرافات بمرشدين يرشدونها إلى هداها ، ويخلصونها من هراها ، فكان ينبغى أن أول ما نسمعه عقب الفتح أن مجلس العلماء فى إدارة الأزهر الذى يجتمع لغير شىء ، قد اجتمع مراراً فى اليوم الواحد لانتخاب جماعة من طلبة العلم ، يرسلهم إلى السودان ، ليرشدوا الناس إلى دينهم قبل أن تلتبس عليهم الوجوه ، ويتخبطهم ما يتخبطهم بعد الفتح ، لا أن نسمع (السردار) يدعو قومه إلى اكتتاب يفتح به مدرسة انجليزية فى السودان إحياء لذكرى (غوردن باشا) الذى كان رئيساً عند الإنجليز فى الدين ، لما كان لديهم فى السياسة رئيساً ، ولا أن نسمع الأخرى ؛ وهى أن حضرة البابا أمر بعد فتح السودان بإرسال رسل من المبشرين اليسوعيين ، وعيّن للسودان وأفريقيا رئيساً لنشر الدين المسيحي . هذا وأهل الأزهر يتثاءبون ويتناومون تحت ظلال مجلس إدارتهم ، لا ينظرون إلى ما يوجب سعادة الدارين ، ولا سعادة الدار الواحدة . فهم يفضلون البقاء على أكل الخبز البحت ، فإن كان ثم إدام فالفجل ، والجبن ، وقشور الفواكه ، وقد رضوا من الدنيا بالنزول إلى ما لا يقدر الدهر أن يسلبه منهم ، فإنه لا يقدر أن يسلب الخبز من أحد فى مصر ، ومن رضى لنفسه هذه القناعة هانت عليه الأعمال العظيمة ، وقويت نفسه على تحمل المشاق فى سبيل الأعمال الصالحة التى

يدخرها ليوم الحساب . وهم أجلّ من يرضوا بالزهدين : الزهد فى الدنيا ، والزهد فـى الآخـرة ، ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .

قال الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية الكريمة « دلت الآية على أنه يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلى الحق ، وإرشادهم إلى الدين القويم ، والصراط المستقيم ، لأن الآية تدل على أنه تعالى أمرهم بالنفقة فى الدين ، لأجل أنهم إذا رجعوا إلى قومهم أنذروهم بالدين الحق . وأولئك يحذرون الجهل والمعصية ، ويرغبون فى قبول الدين ، فكل من تفقه وتعلم لهذا الغرض كان على المنهج القديم ، والصراط المستقيم . ومن عدل عنه وطلب الدنيا كان من الأخسرين أعمالا ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وقال الإمام الزمخشرى فى تفسير هذه الآية بينها (فلولا نفر) : فحين لم يكن نفير الكافة ، ولم تكن مصلحة فهلا نفر . (من كل فرقة) أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير . (ليتفقهوا فى الدين) ليتكلفوا الفقاهة فيه ، ويتجشموا المشاق فى أخذها وتحصيلها . (ولينذروا قومهم) وليجعلوا غرضهم ، ومرمى همتهم فى التفقه إنذارهم ، وإرشادهم ، والنصيحة لهم ، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ، ويؤمونه من المقاصد الركيكة من التصدير والترأس ، والتبسط فى البلاد ، والتشبه بالظلمة فى ملابسهم ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضاً ، وفشو داء الضرائر بينهم ، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر ، أو شرذمة جثوا بين يديه ، وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم . فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل ﴿ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ﴾ الخ .

وعنوانه هكذا :(*)

رأينا من الإصـــلاح فى مـــصـرنوعــه	وسوف نرى سودانها مثل ما نرى
فـمـا هبطت حـمـر الـشيـاب ببلدة	وكـان لذر الأرض قـوت من الثـرى

نعم هذا السودان الذى تنقل وتقلب بين أيدى ملوك المصريين جيلا فجيلا ، من فراعنتهم ، وعربهم ، وعرين مازال منذ فرغت منه يد الطبيعة على حالة واحدة إلى اليوم . فأقام كالسبخة لايجف ملؤها ، ولا يرجى نباتها . وقد تغيرت البلاد ومن عليها على مر العصور وكر الدهور ، وهو باق على عهده لا يتغير . وحتى تغيرت تلك الجزيرة جزيرة القوم بعد أن كانت تقتسم معه مهمه من جفوة الطبيعة وقسوة الإقليم : هذا يذيب أواره دماغ الضب وتتوارى فيه الحرباء عن قرص الغزالة ، فترغب عن عادتها ، وترتد عن عباءتها . وتلك لقرها وشدة بردها يصطلى فيها القوس ربها ، وينتصر فيها المجوسى لعبادة النار ، فينبعث متغنياً بقول بشار :

الأرض مظلـمــة والنار مــشــرقــة	والنار مـعـبـودة مــذ كـانـت النار

فانتقلت بنعمة الجد والاجتهاد وفضل السعى ، والإقدام درة البحر وغرة العصر ، واستعان أهلها عليها بكثرة الدأب وشدة الطلب وكد القريحة ، وكدح الفكر ، فخرجوا من ظلمة الانعزال والانكماش إلى الانتشار والانبعاث ، ومن ضعف الأيد

(*) مصباح الشرق ٥٦ ، ٢٥ مايو ١٨٩٩ . انظر عبد اللطيف حمزة . أدب المقالة الصحفية ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٥٩ ، ص ١٦٦ - ١٧٠ .

وقلة الحول إلى بسطة الحكم وعرض الجاه ومن ضيق الرزق وشدة الحرمان وضعف الجناح إلى سعة الغنى وغبطة الحال وصعود الجد وخفض العيش .

وما زالوا منذ فرغوا من استصلاح بلادهم ، واستثمار أرضهم يرتادون بلاد العالم يصلحونها لأنفسهم ويفلحونها لمنفعتهم ، حتى انتهى بهم الدور اليوم في مجاهل أفريقيا إلى هذه البقعة التي طالما ذاقوا معها مرارة البأساء وغضاضة الضراء ، فبدأوا بنصب مصائد الإصلاح وحبائل التمدن وفخاخ الترقي الإنساني . وكأننا بالسودان إذا انبسط فيه بساط هذه المدينة الغربية ، فما شئت من طرق حديدية وأسلاك برقية وتخطيط للري وتشييد للمصانع وتأسيس للمعامل وإنشاء للمدارس وتكوين للشركات ، وقد خلعت عنه تلك الأيادي البيضاء لباس السواد ، ونزعت عنه ثوب الجداد ، فأنبت فيه الصخر ، ولفظ رغامه التبر ، وانسابت جداول الماء على وجه الدهماء ، وغدت العظاة في غرص القطاة في قفزها كالسمكة في نهرها لا تنشد مواقع السماء . وأورقت عمد الأطناب وأعشبت شعب الأقتاب ، وارتقى الظليم بعد الجلاميد ، وإنبات العناقيد ، وجرى سليل البخار جرى الأيام في الأعمار والآجال في الآمال . فألقت الآبال عصا الترحال ، والتفت ظمأ العشر في هجير الفقر ، ودجن فيه الآخدري ، وأنس البقر الوحشي ، فذلك للركوب ، وتلك للسواقي والغروب ، واكتنست الغزلات حدائق القصور ، وهجرت تلك الربى وتلك الصخور ، وأصبح الفيل مركبًا للزينة في الخرطوم ، بخطر محطم الناب موسوم الخرطوم . وغدا العبد القن حبرًا في كل علم وفن ، وترقى ذو الجلدة السوداء إلى البحث في غوامض الكيمياء والكهرباء . وسما الزنجي من مبارك الأنغام إلى مراصد الأجرام وانقلبت يده من خريطة الزاد إلى خريطة البلاد واعتاض من زئير الليوث في الغابات بحفيف الألحان في حافظة الأصوات ومن رؤية الوحوش في المسارح بمشاهدة الصور المتحركة في المراسح ، ومن الدخن والأعشاب بالفالوذج والكباب ، وطبق ريح الإصلاح آفاق السودان ، وسخر كل ما فيه للمصلح ؛ يقتطف ثمرته ويلتقف منفعته فيحمل ما يحمله إلى خزائن الأرض في بلاده ويجلس فوقها منشدًا :

وأرض بت أقـــرى الوحـش زادى بهـــا ليـــشـــوب لـى منـهن زاد
فـأطعـمـهـا لأجـعلهـا طعـامى ورب قـطيـعـة جلب الـوداد

ومـا يدريك بعـد ذلك أن يكون هذا الانقـلاب من داعيـات الخـراب ، وأن يكون الخروج من باب الشقاء دخولا فى باب المحنة والبلاء ، والانسلاخ من المعيشة الفطرية إلى المعيشة المدنية اندماجًا فى ثنايا الأسواء والأرزاء .

فإن صدق الطير وقضى الأمر فلا أحب إلا أن يأتى يوم يتمنى فيه العبد عيش الأب والجد ، ونشتـهى لو تنقلب به الأيام إلى مـراعى الأنعـام ، ويؤثر ظليم أكل المرد والهبير على مـعسول تلك العناقيد ، وتود تلك الدواجن من الماشيـة لو عـادت طعاما للأسود الضارية .

فـإن فطن السـودانيـون – ولما يقع القنيص فى الشـرك – إلى مـجـاراة القـوم ومبـاراتهم فى جدهـم ونشـاطهم ، وحسن تقليدهـم فضـائل المدنية ، مع التحـرص مما يدخلونه عليهم من فضـولها ، ثم الانتفـا ع بعلومـهم والتغلب عليهم بفضـائل تلك العلوم ، وإن لم يجلس فى صدورهـم داء التدابر والتـقاطع والتشـاحن والتضـاغن والتـحاسد وحب الإثرة ، ولم يحـتدم فـيهم ضـرم الفتن ولهيب الشـغب « ولشـد مـا لقينا من هذه الأدواء ، أفلتـوا من تلك المصـائد ، وأوشكوا أن يـعيـدوا إلـى الشـرق رونقـه الأسنى ، ويمحـوا من صـفحـاته كلمة التوحش التى ليس للمؤلف الغربى محيد عنها عند وصف الأمم الشرقية .

وإن كانت الأخرى ونام السودانيون نومة المصريين فى ظلال الاحتلال ؛ يتفيأونها وأغفلوا الحـزم ، وأخطأوا منافع الرأى ، وضلوا مـوارد التدبير ، واغـتروا مـن المدنية بالظاهر المموه دون النظر إلى الباطن المشوه ، وأجـالوا النظر فى أمورهـم على الغد ، وتعلقوا بحـبال المحال فى التسـويف بالاستقبال ، فما أشبه الحال بالحال ، ومـا أعجل أن تقوم بينهم نوادب الجرائد تستـصرخ وتسـتنجد وتسـتـغيث وتسـتعدى ، ولا سـامع للشكوى . ولا كـاشف للبلوى ، وقـد حلم الأديم وبلـى الرديم . هذا إذالـم ينسلخ من

أرضه الجلد الأسود كما انقرض من أمريكا الجلد الأحمر . هنالك يبكى الهندى للمصرى ، ويبكى المصرى للزنجي والقوم رابضون فى أرضهم ربوض الآساد فى آجامها محلقين فوق رءوسهم تحليق الأجادل والنسور فى سمائها .

وأعجب العجب أن الانجليزى يسقط من منطقة الجليد إلى تلك المنطقة المحترقة ، ويخرج مما كان فيه من رفاهية المدنية ورفاهية العيش ، ويهبط من أفق النعيم إلى درك الجحيم ، تلفحه الرمضاء ، وتلوحه الشمس ، ويرنحه التعب ، وينهكه الأين والكلال لينتفع بما قضى به لنفسه من حق الاشتراك فى السودان ، وترى شريكه المصرى منزوياً فى بلاده فاقداً للقوت ، محروماً من الرزق ، قد أضناه العسر والبؤس ، وأذابه الفقر والعدم ، وبات يتململ من آلام المعيشة تململ السليم من لدغ الحية ، فلا ينشط أبداً ولا يهتز للخروج من هذا الضيق ، وسلوك ما يتسع أمامه من مسالك الأرزاق ، وهذا السودان قد صار منه على رمية سهم ، وفواق ناقة ، وهو أقرب الناس إلى الانتفاع منه ، وأدناهم إلى أهله لوحدة الدين ، ووحدة اللغة ، وتناسب الطباع ، وتآلف العادات وتوافق الإقليم ، فينام عنه بملء جفونه ، ويفضل التسلى بالأنين والشكوى عما هو محيط به من الآلام والمحن .

فإذا كان ما رسخ فى النفوس من الفزع والجزع عند ذكر السودان أيام كان مهبطاً للنفى ، وسجناً للتعذيب ، وما كان يهول المصرى من بعد المشقة ومشقة السفر ، ومخاوف البيداء قد بعد به عن قصد تلك البلاد ، والانتفاع منها طوال تلك الأزمنة الماضية ، فما عذره اليوم وقد كادت الحرب تشتعل والقتال يستعر بين دولتين من أكبر دول العالم ، فيهدم ما شيده العلم ، وأنشأه التمدن قروناً عديدة فى لحظة واحدة للتنافس بينهما على تلك البلدة التى كانت معدة عندنا لنفى المجرمين فى أقصى بلاد السودان . وبماذا يقنع المصرى نفسه فى هذا القعود وقد أصبح السفر إلى السودان أيسر طريقاً ، وأقرب مسافة وأخف مؤونة من السفر إلى مثل البرليس أو الواحات .

أفلا ينظرن المصرى نظرة واحدة إلى اليونان الذى سبقه إلى الانتفاع والارتزاق فى أنحاء السودان ، فيراه يسير وراء الجيوش ، حتى إذا حطت رحالها ، وانتشب

القتال ، وعلا القتام ، وتزلزلت الأقدام ، واشتبكت الأسنة واشتجرت الرماح ، وسالت الدماء حط اليونانى أيضا رحله ، وعرض بضاعته لمن يشتريها فى هول هذا الموقف ، وحر ذلك الموقع ، ثم يعود بعد ذلك إلينا فيعيش بيننا بما جمعه من مال عيشة تغبطه عليها الخاصة ، وتحسده العامة . ومع هذا كله فالإنجليزى بحكم الطبيعة إنسان واليونانى إنسان والمصرى إنسان .

* * *

لعل هذا المثال الأول من الأمثلة التي نسوقها لكتابة المويلحي الكبير يعتبر نموذجًا كاملا لفن الكتابة عنده . فهو رجل تغلب فيه نزعة الآداب نزعة الصحافة ، ويرتفع بالمقال الصحفي إلى الدرجة التى لا يطمع المقال الأدبى نفسه فى أبعد منها .

فمن تقطيع موسيقى للعبارات ، إلى إيثار لجزالة الألفاظ ، بل حرص شديد على هذه الجزالة ، إلى إتيان بالموازنات اللفظية والمعنوية إلى سمو فى العبارة ، إلى مهارة عظيمة فى تبكيت المصريين لتكاسلهم عن مسابقة الإنجليز فى عمارة السودان ، وعن منافسة اليونان فى استجلاب الرزق . وهو تبكيت قوى انتهى منه الكاتب بهذه العبارة اللطيفة وهى قوله :

« ومع هذا كله فالإنجليزى بحكم الطبيعة إنسان ، واليونانى إنسان والمصرى إنسان » .

العزة فى القوة :(*)

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فإنما نحن للأسياف كالخدم

استنهاضك الرجل وهو فى أرضه ومزرعته بين زوجه ، وولده ، وأنسبائه وأقربائه ، وخلانه وجيرانه ، ومعالم دياره ، وأعلام دينه ، وحملك له على على التدجج بالسلاح ، والتحصين بالدروع ، ليدفع عن حماه العدو المفاجىء ، ويذود عن حرمه المغير الطارىء ، فينهض فيرميه بسهم أو يطعنه برمح ، فيلقيه إلى الأرض صريعا لليدين والفم ، فيسلم له أهله وماله – ذلك حقيقة معقولة وأمر حاصل يعمل به .

وقعودك بالرجل عن الأخذ بأسباب الدفاع ، واختيارك له فى حفظ حوزته ، والعدو محيط به من كل مكان أن يضع ابنه فى المكتب ، ثم فى المدرسة ، ثم فى الكلية ، فيتلقى هناك ما تشتت من علوم التمدين والتهذيب ، وما تفرق من وجوه العلوم والمعارف ، وما اختلف من أبواب الصناعات والحرف ، ثم ينتقل إلى المطالب العالية من البحث فى الطبيعيات والرياضيات ، فيخترع الآلات ، ويبتدع الأدوات ، ثم يرجع من البحث فى ما وراء الطبيعة وقد تساوت عنده الأديان ، وأصبحت لديه الديانات كلها إحنًا ، والمذاهب كلها فتنًا ، وخلص من تلك الغلطة الموروثة ، فلانت عريكته ، وانبسطت نفسه للناس على اختلاف مذاهبم وبقائهم عليها ، فرآهم كلهم له إخوانًا ، واعتبرهم له أعوانًا . فإذا وصل إلى هذه الدرجة المطلوبة ، وأمله العدو تلك السنين

(*) مصباح الشرق ٦٦ ، ٢ أغسطس ١٨٩٩ . انظر عبد اللطيف حمزة . أدب المقالة الصحفية ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٥٩ ، ص ١٨٠ – ١٨٤ .

الطوال ، قام يدفع العدو عن حوزة أهله وبيضة قومه - ذلك هو الطيران على أجنحة الخيال فى جو المجال .

وقد بحث الباحثون فى اختيار الوجهة التى تتخذها الدولة العليا لدفع ما يستدير بها من الملمات والخطوب ، ويحفظ مركزها فى الوجود مما يحدق بها من المكائد والمكاره ، فذهبوا مذاهب شتى ، وانصرفوا إلى أغراض مختلفة ، ومنهم صاحب تلك الرسالة التى طلعت من أفق المشرق على « المصباح » فأوضح فيها أن الوجهة القويمة للدولة العلمية فى حفظ مركزها من مخالب الأعداء المحيطة بها هى التحصن بالقوة ووسائل المنعة ، وأن ذلك هو الدواء النافع الذى يقتضيه حالها فى وجوب الإسراع فى التوقى لعدم احتمال المدة وجها من الوجوه الأدوية الأخرى . فوقعت أقواله أحسن الوقع من نفوس الذين يدركون تلك الحقيقة ، ويحسنون بموضع ذلك الصواب ، واستيقنتها قلوبهم ، وحلت محل الاستكراه من غيرهم ، واستنكرتها قلوبهم ، فاعترضوا عليها بأن الدولة لو عملت بقول أولئك المنادين لها بالتحصن بأطراف الرماح ، والتوقى بالدروع لتصد عنها المهاجم ، وترد المنازل لاجتمعت الدول الأخرى عليها ومزقتها تمزيقا ، وتقاسمت أملاكها فى أسبوع من الزمان ، ولأحدقت بها من كل جانب برا وبحرا ، ولأوردتها حتفها قبل أن تدرج من مهدها شبرا .

وهو وهم وخيال دفع إليه شدة التسرع فى فهم المقصود من كلام كاتب الرسالة ، فإنه لم يطلب من الدولة العلية أن تحشد الجنود ، وتحشر الجموع ، وتدعو الدعوة العامة لغزو الغزوات وفتح الفتوح ، وأن تقف فى موقف القتال ، وتقول لكل الدول : نزال نزال . لأن كل إنسان يعلم أن مثل هذه الدعوة لو قامت بها أقوى دولة فى العالم لا تفقت الدول على التنكيل بها ، ولقامت كلهن فى وجهها صوتا لوجودهن . وإنما دعا كاتب الرسالة الدولة العلية إلى الأخذ بأسباب القوة لدفع الطارىء ، وصد الطامع على ماتقضى به حاجتها ، وتهدى إليه مصلحتها ، والتمس من الخليفة أمير المؤمنين أن ينهج هذا المنهج الذى هو ناهجه فى الحقيقة ، واجتنت الدولة من باكورة ثمرته ما اجتنته . وقد رأيناها تزيد فى عدد العساكر . وتجتلب الأسلحة وتعد المعدات الحربية ، فتستحضر السلاح من النمسا وألمانيا ، وتصلح السفن الحربية على الطراز

الجديد ، وتنشىء المدرعات فى معامل إيطاليا ، وترسل بضباطها للتعليم الحربى والبحرى إلى ألمانيا وانجلترا وأمريكا ، وتنشىء الطرق الحديدية فى البلاد التى تحتاج إلى قرب المواصلات لسهولة نقل المعدات الحربية عند الحاجة إليها . ولم نسمع بعد ذلك كله أن دولة من الدول غضبت من هذا الاستعداد . أو عارضت فيه ، أو اتحدت مع غيرها من الدول على منع الدولة العلية من تحصين بلادها ، ولم يهتز للبرق سلك بالإشارة إلى شىء من هذا القبيل ، ولم تجتمع به حروف أوروبية فى جريدة .

والاستعداد للقوة على ما تقدم لا يمنع الدولة العلية من مداومة المسير على نظام التمدن والتقدم فى العلوم الجديدة النافعة والعلوم المقيدة الحادثة ، مما هى آخذة فى أسبابه أيضا . وكما أن كاتب الرسالة نبه المسلمين إلى العمل بكتابهم فى التذرع بالقوة ، كذلك يجب على كل مسلم أن ينبه المسلمين ما بكتابهم وسنة نبيهم وسيرة أسلافهم من التأدب بأدب الدين والاجتهاد فى طلب العلم والتعليم واستخلاص اللب ونبذ القشور . ولما كان الدين الإسلامى دينا يتناول أمور الدنيا كما يتناول أمور الآخرة كانت الدعوة للقوة أو للمدنية من طريق الدين أقرب وأدنى ، وأوقع وأنفع ، وعز الدولة ومنعتها ورسوخ مركزها ، وتقدمها فى العلوم والمعارف من هذا الطريق لا تقتصر منفعته على فئة من رعيتها دون فئة ولا ملة دون ملة ، فإن الدين الإسلامى دين يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويجيب فى العمل ، ويبغض فى الكسل ، ويرشد إلى حسن المعاملة وجميل المعاشرة ويرفع من قلوب المسلمين العداوة والبغضاء ، ويحض على إكرام الجار ، ويوجب حفظ الحقوق والمساواة فى القضاء بين المسلم وغير المسلم . ولن يفعل فى المسلمين نداء مناد مثل ما يفعل نداء من يناديهم من طريق دينهم للعمل بالفضيلة . ولذلك تقبل المسلمون هذه الرسالة قبولا حسنا ، وأجلوا قدرها فى صدورهم ، وأطمأنت لها قلوبهم ، وارتاحت لها نفوسهم .

وقد غيرت الدهور وكرت العصور والفرق المختلفة مقيمون تحت حكم المسلمين فى عيشة راضية ، لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، فعاش الفريقان فى اتفاق ووفاق وسلام ووئام ، لم يقل منهم للآخر : إنى أكمن لك الحقد ، وأحرق عليك الأرّم ، وأبطن

لك السوء ، وأتربص بك الدوائر والتهب عليك عداوة ، وأتميز منك غيظًا . ولا يغرنك ما يجرى بيننا من ألفاظ المجاملة فإنما هى الظاهر المموه من تحتها الباطن المشوه . وإنى أختار لك شكلا للحكم ، فإن لم ترض به فهلم فاخرج من ديارك التى فتحتها بحد السيف ، واستوطنتها مئات من الأعوام ، وحكمنت فيها قرونًا طويلة من السنين ، ودونك البوادى والقفار فاتخذها لك سكنًا ودارًا .

فإن كانت تغيرت اليوم الأحوال وتبدلت الأمور ، فالمسلمون لا يزالون متمسكين بآداب دينهم ؛ لا يختارون إلا ما يختار لهم حكمه ، فمنه قوتهم ، وفيه مدنيتهم ، وبه هداهم ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

هذا وأمل ماتذهب إليه أفكار بعض كتبة المسلمين من اجتماع أئمة المسلمين فى دار الخلافة العلية لعقد مؤتمر ينظر فيما يجمع كلمة المسلمين ويلم شعثهم ، فهو رأى مقبول ، إلا أن مثل هذا العمل فى الوقت الحاضر مما يشوش على السياسة العامة . والأمر فيها موكول إلى نظر أمير المؤمنين ؛ يسير فيها بحكمته وليس من وراء هذا المشروع كبير فائدة . ويكفى لهذا الآن الاجتهاد فى نشر الجرائد الإسلامية للبحث على جمع الكلمة وتأليف القلوب . ومبادلة الأفكار التى تنفع الإسلام بين المسلمين فى أنحاء الأرض . ولمثل ذلك المؤتمر وقت يحين بعد . ولا عبرة بما يقال من أن الدول تألبت على الدولة العلية بعد حرب الروسيا ، وأخرجت من يدها تونس ، ومصر ، بسبب اجتماع المصرى والمراكشى والتونسى وغيرهم فى الآستانة . فإننا لم نسمع عن اجتماع سياسى على هذا الشكل فى تلك الأيام ، ولم نسمع أن الدول تكلمت فى شأنه .

وليس المطلوب من جماعة المسلمين الذين تحت حكم الدول الأجنبية أن يتفقوا فيما بينهم للمظاهرة على من يحكمهم ، والوقوف فى وجهه والخروج عليه . وإنما المطلوب منهم أن يساعدوا الدولة العلية اليوم بأفكارهم ، وأموالهم لصيانة الإسلام ، وقد شهدت الحرب اليونانية بأن المسلمين لا يتأخرون برهة عن بذل أموالهم فى إعانة

الدولة العلية . وانفاقها فى سبيل الدفاع عن حمى الدين ، والذود عن ذمار المسلمين .
وهم كلهم على تنائى ديارهم فى يدهم كتاب الله يقرأون فيه تلك التجارة الرابحة فى الآية الشريفة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾ الآية ، ويتلون فيه تلك الأرباح المضاعفة فى الآية الكريمة ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ .

الفهرس

صدر من سلسلة


رواد الفنى القصصى

« الأعمال الكاملة »

- محمود طاهر لاشينى

- محمد إبراهيم المويلحي

- إبراهيم المويلحي


المجلس
الأعلى
للثقافة